المركز الديمقراطي العربي برلين - المانيا

المجاعات والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور

اشراف وتنسيق: د. تلي رفيق

وقائع اعمال المؤتمر الدولي الافتراضي

أيام 24 و 25 - 07 - 2021

2001

المجاعات والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور

المركز الديمقراطي العربي ألمانيا - برلين

المركز متعدد التخصصات للبحث في حسن الاداء والتنافسية،

جامعة محمد الخامس - المغرب

مكتب الثقافة مسلاته - وزارة الثقافة والتنمية المعرفية - ليبيا

VR . 3383 - 6547 B

DEMOCRATIC ARABIC CENTER

Germany: Berlin 10315 Gensinger- Str: 112

http://democraticac.de

TEL: 0049-CODE

030-89005468/030-898999419/030-57348845

MOBILTELEFON: 0049174274278717

المجاعات والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور

الناشر

المركز الديمقراطي العربي

للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية

ألمانيا/برلين

Democratic Arabic Center

Berlin / Germany

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه
في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق خطي من الناشر.
جميع حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved

No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, without the prior written permission of the publisher

المركز الديمقراطي العربي

للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية ألمانيا/برلين

Tel: 0049-code Germany

030-54884375

030-91499898

030-86450098

البريد الإلكتروني

book@democraticac.de

المركز الديمقراطي العربي
للدراسات الاستراتيجية، الاقتصادية والسياسية
Democratic Arabic Center
for Strategic, Political & Economic Studies

المؤتمر الدَّولي العلمي الافتراضي

تحت عنوان:

المجاعات والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور

لا يتحمل المركزورئيس المؤتمرولا اللجان العلمية والتنظيمية مسؤولية ما ورد في هذا الكتاب من آراء
وهي لا تعبربالضرورة عن قناعاتهم، ويبقى أصحاب المداخلات هم وحدهم من يتحملون كامل المسؤولية القانونية عنها

المركز الديمقراطي العربي- برلين (ألمانيا)

بالتعاون مع

المركز متعدد التخصصات للبحث في حسن الاداء والتنافسية، جامعة محمد الخامس – المغرب

مكتب الثقافة مسلاته – وزارة الثقافة والتنمية المعرفية – ليبيا

ينظمون المؤتمر الدَّولي العلمي تحت عنوان:

المجاعات والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور

أيام 24 / 25 – 07 – 2021

اقامة المؤتمر بواسطة تقنيَّة التَّحاضر المرئي عبر تطبيق Zoom

ملاحظة: المشاركة مجانا بدون رسوم

رئيس المؤتمر:
د. تلي رفيق جامعة سعيدة- الجزائر
الرئاسة الشرفية:
أ.د. عمر حنيش – المركز متعدد التخصصات للبحث في حسن الاداء والتنافسية، جامعة محمد الخامس – المغرب.
د. نصرالدين البشير العربي – مكتب الثقافة مسلاته – وزارة الثقافة والتنمية المعرفية – ليبيا
أ. عمار شرعان – رئيس المركز الديمقراطي العربي – برلين – ألمانيا
رئيس اللجنة العلمية:
د. موسم عبد الحفيظ جامعة سعيدة- الجزائر
مدير المؤتمر:
د. قدوري عبد الرحمن رئيس شعبة التاريخ جامعة سعيدة- الجزائر
منسق عام المؤتمر:
د. ناجية سليمان عبد الله – رئيسة تحرير مجلة العلوم السياسية والقانون
رئيس اللجنة الاستشارية:
أ. حسن عبد السلام العربي – مكتب الثقافة مسلاته – وزارة الثقافة والتنمية المعرفية – ليبيا
رئيس اللجنة التنظيمية:
أ. كريم عايش – المركز الديمقراطي العربي.
رئيس اللجنة التحضيرية:
أ.صهيب شاهين، المركز الديمقراطي العربي.

أعضاء اللجنة العلمية للمؤتمر:

- ✓ أ.د مقنونيف شعيب، جامعة تلمسان، (الجزائر).
- ✓ أ.د عبد الحق زريوح، جامعة تلمسان، (الجزائر).
- ✓ أ.د الطاهر جبلي، جامعة تلمسان، (الجزائر).
- ✓ أ.د بلعربي خالد، جامعة بلعباس، (الجزائر).
- ✓ أ.د العايب معمر، جامعة تلمسان، (الجزائر).
- ✓ أ.د دريس بن مصطفى، جامعة سعيدة، (الجزائر).
- ✓ أ.د كريم مطر حمزة ألزبيدي، جامعة بابل (العراق).
- ✓ أ.د. يوسف كاظم الشمري، جامعة بابل (العراق).
- ✓ أ.د شيبوط سعاد يمينة، جامعة تلمسان، (الجزائر).
- ✓ أ.د حمدادو بن عمر، جامعة وهران01، (الجزائر).
- ✓ د. لوصيف موسى، جامعة قسنطينة 02، (الجزائر).
- ✓ د. تلي رفيق، جامعة سعيدة (الجزائر).
- ✓ د. بوداعة نجادي، جامعة سعيدة (الجزائر).
- ✓ د. حبيب حسن اللولب، جامعة صفاقس (تونس).
- ✓ د. يماني رشيد، جامعة تلمسان، (الجزائر).
- ✓ د. مهدي قصير، جامعة غليزان (الجزائر).
- ✓ د. مجدوب موساوي، جامعة سعيدة، (الجزائر).
- ✓ د. لطرش صليحة، جامعة البويرة (الجزائر).
- ✓ د. بن دوبة شريف الدين، جامعة سعيدة (الجزائر).
- ✓ د. حميد آيت حبوش، جامعة وهران (الجزائر).
- ✓ د. دلباز محمد، جامعة سعيدة (الجزائر).
- ✓ د. بوشيبة ذهيبة، جامعة سعيدة (الجزائر).
- ✓ د. بوحسون عبد القادر، جامعة سعيدة (الجزائر).
- ✓ د. داعي محمد، جامعة سعيدة (الجزائر).
- ✓ د.كبداني فؤاد، جامعة سعيدة (الجزائر).

- ✓ د. قراوي نادية، جامعة سعيدة (الجزائر).
- ✓ د. بن دحمان حاج، جامعة غليزان (الجزائر).
- ✓ د. طويلب عبد الله، جامعة سعيدة (الجزائر).
- ✓ د. شباب عبد الكريم، جامعة سعيدة (الجزائر).
- ✓ د. شيخ فطيمة، جامعة سعيدة (الجزائر).
- ✓ د. جبران لعرج، جامعة سيدي بلعباس، (الجزائر).
- ✓ د. داعي محمد، جامعة سعيدة (الجزائر).
- ✓ د. مجاود حسين، جامعة سعيدة (الجزائر).
- ✓ د.بكوش فافة، جامعة سعيدة (الجزائر).
- ✓ د. بوشاقور عبد الرحيم، جامعة عين تموشنت (الجزائر).
- ✓ د. كوشنان محمد، جامعة المدية (الجزائر).
- ✓ د. بوزياني فاطمة الزهراء، جامعة تلمسان (الجزائر).
- ✓ د. بوزياني زبيدة، جامعة تلمسان (الجزائر).
- ✓ د. جحنيط حمزة، جامعة برج بوعريريج (الجزائر).
- ✓ د. عبد الرحيم براوكي، جامعة مكناس (المغرب).
- ✓ د. براهيمي محمد، جامعة وهران02 (الجزائر).
- ✓ د. سعيداني لخضر، جامعة تيسمسيلت، (الجزائر).
- ✓ د. كركب عبد الحق، جامعة تيارت، (الجزائر).
- ✓ د. نوال مجدوب، جامعة تلمسان (الجزائر)
- ✓ د. طالب دليلة، باحثة، (الجزائر)
- ✓ د. وهيبة حليمي، جامعة أبوبكر بلقايد تلمسان، (الجزائر)
- ✓ د. مجدوب خيرة، جامعة ابن خلدون (الجزائر)
- ✓ د. سالم مفتاح ابوالقاسم، مكتب الثقافة مسلاته (ليبيا)
- ✓ د. إبراهيم الانصاري، جامعة الحسن الثاني (المغرب)
- ✓ د. جواد الرباع، جامعة ابن زهر (المغرب).

أعضاء اللجنة التنظيمة للمؤتمر:

- ✓ أ.شعشوعة علي، جامعة سعيدة (الجزائر).
- ✓ د. سكاكو مريم، جامعة سعيدة، (الجزائر).
- ✓ د. رزيوي زينب، جامعة سعيدة (الجزائر).

كلمة رئيس المؤتمر:

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين، وبعد؛

- أستاذي الفاضل/ الأستاذ عمار شرعان -رئيس المركز الديمقراطي العربي -برلين -ألمانيا.

- أ.د. عمر حنيش رئيس المركز متعدد التخصصات للبحث في حسن الاداء والتنافسية، جامعة محمد الخامس – المغرب.

-د. نصر الدين البشير العربي رئيس مكتب الثقافة مسلاته – وزارة الثقافة والتنمية المعرفية – ليبيا.

- الدكتور موسم عبد الحفيظ رئيس اللجنة العلمية جامعة سعيدة – الجزائر.

- الأخ الفاضل الأستاذ كريم عايش المدير الإداري للمركز الديمقراطي العربي. رئيس اللجنة التنظيمية للمؤتمر.

- الأخ الدكتور أحمد بوهكو مدير النشر المركز الديمقراطي العربي-برلين -ألمانيا.

- مدير المؤتمر :د. قدوري عبد الرحمن رئيس شعبة التاريخ جامعة سعيدة- الجزائر.

- منسق عام المؤتمر :د. ناجية سليمان عبد الله – رئيسة تحرير مجلة العلوم السياسية والقانون.

-رئيس اللجنة الاستشارية :أ. حسن عبد السلام العربي – مكتب الثقافة مسلاته – وزارة الثقافة والتنمية المعرفية – ليبيا.

-رئيس اللجنة التحضيرية :أ. صهيب شاهين، المركز الديمقراطي العربي.

- السادة الأساتذة أعضاء اللجنة العلمية للمؤتمر، والسادة الأساتذة رؤساء الجلسات العلمية كلّ باسمه ورسمه ووسمه.

- السادة الأساتذة الباحثين المشاركين في هذا المحفل العلمي، سلام الله عليكم ورحمته تعالى وبركاته، أحييكم بتحية من القلب تحمل في طياتها حبا وفاء واحتراما.

إنه لمن دواعي السرور أن تنطلق وبحمد لله فعاليات المؤتمر الدولي الافتراضي الموسوم بـ: المجاعات والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور الذي ينظمه المركز الديمقراطي العربي ببرلين-ألمانيا بالتعاون مع المركز متعدد التخصصات للبحث في حسن الاداء والتنافسية، جامعة محمد الخامس – المغرب ومكتب الثقافة مسلاته – وزارة الثقافة والتنمية المعرفية – ليبيا. وينعقد هذا المؤتمر العلمي افتراضيا بسبب جائحة كورونا التي ألمت بالجميع فندعو الله عزوجل أن يرفع عنّا البلاء والوباء.

ومن باب من لم يشكر الناس لم يشكر الله أسجي شكري وامتناني واحترامي للأستاذ الفاضل عمار شرعان على منحنا ثقته في احتضان هذا المؤتمر الدولي العلمي على انجاحه عن طريق الاشراف وتذليل الصعوبات إيمانا منه بضرورة خروج المؤتمر بالشكل اللائق فبجده وصبره وتفانيه في العمل استطاع أن يجعل المركز

الديمقراطي العربي منارة للعلم والفكر والمعرفة والابداع في مجال البحث العلمي، كما أعرب عن شكري وامتناني للأستاذ الدكتور عمر حنيش رئيس المركز متعدد التخصصات للبحث في حسن الاداء والتنافسية، جامعة محمد الخامس – المغرب، والشكر موصول إلى الدكتور نصر الدين البشير العربي رئيس مكتب الثقافة مسلاته – وزارة الثقافة والتنمية المعرفية – ليبيا على مدهم يد المساعدة واحتضان هذا المحفل العلمي ليخرج في أبهى حلة.

كما أتوجه بالشكر الجزيل لأعضاء اللجنة العلمية على رأسهم الدكتور موسم عبد الحفيظ على سهرهم وتفانيهم في تحكيم الأوراق العلمية الخاصة بالأساتذة والباحثين المشاركين في هذا المؤتمر، كما أشكر السادة أعضاء المركز الديمقراطي العربي ببرلين وعلى رأسهم الأستاذ كريم عايش رئيس اللجنة التنظيمية للمؤتمر والمدير الإداري للمركز، وأشكر الدكتور أحمد بوهكو مدير النشر بالمركز، والشكر موصول إلى أعضاء اللجنة الاستشارية والتحضيرية للمؤتمر.

يطيب لي أن أرحب بالسادة الأساتذة الأفاضل ونسعد باستقبال مداخلاتهم واقتراحاتهم وتصوراتهم في هذا المؤتمر العلمي الدولي، ونعتذر لهم عن أي تقصير بذر منا في التواصل مع حضراتهم، كما أتمنى لهم مشاركة موفقة طيبة بإذن الله تعالى.

يسعى المؤتمر الموسوم بـ: المجاعات والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور إلى التعرف على مختلف المجاعات والأمراض والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور، ومحاولة الوقوف على أسبابها وتداعياتها، وإزالة اللبس والغموض عن مراحل صعبة عاشها الوطن العربي إثر تعرضه لمثل هذه الأزمات، ودراسة المستوى المعيشي والوضع الصحي لمجتمعات الوطن العربي عبر العصور في ظل هذه الأزمات، والتعرف على المظاهر الناتجة عن المجاعات والأوبئة عبر العصور، والتعرف على مواقف السلطات في الوطن العربي عند التعرض لمثل هذه الأزمات، والتعرف على الإجراءات الوقائية عند حدوث مثل هكذا أزمات في الوطن العربي عبر العصور، ومن خلال هذا المؤتمر نحاول خلق جو من التفاعل العلمي وتبادل المعارف.

أجدد شكري وترحابي وأسأل الله عزوجل أن تكلّل أعمال هذا المؤتمر بالنجاح والتوفيق والسداد وأن يحقق الأهداف المرجوة راجيا السلامة والصحة والعافية للأمة العربية والإنسانية جمعاء، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

د. تلي رفيق

جامعة سعيدة/ الجزائر.

تقديم:

تعد المجاعات والأوبئة من العوامل التي تتسبب في تأخر المجتمعات وضعفها، نظرا لما تلحقه بها من أضرار (اقتصادية، اجتماعية، ديمغرافية ...)، فقد تعرض الوطن العربي عبر العصور إلى عدّة أوبئة ومجاعات، حصدت منه عدّة أرواح وكادت أن تغير مجرى التاريخ فيه، وهو ما نود معالجته من خلال هذا المؤتمر العلمي.

لقد عرفت المنطقة العربية على إثر هذه المجاعات والأوبئة سلسلة من التحولات الكبرى والانعطافات الحاسمة في مسارها التاريخي، فكانت المجاعات والأوبئة من أشد البلايا وقعا على المجتمع العربي، خاصة وأنها أفرزت واقعا مريرا صعَّب على الإنسان العربي حياته ومعايشته لتلك الفترات. كما عرف الوطن العربي طيلة فتراته التاريخية تقلبات مناخية ومراحل جفاف قاسية نجم عنها قحط ومجاعات. أدّت إلى ظهور القحط والمجاعات والأوبئة التي أصابت ساكنته، بدرجات متفاوتة من حيث الخطورة. هذا فضلا عن الحروب والنزاعات السياسية التي كانت على قدر كبير من الأهمية في انتشار المحن الاجتماعية التي تسببت هي الأخرى في ظهور عدّة أوبئة ومجاعات على مرّ التاريخ.

شكلت المجاعات والأوبئة خطرًا حقيقيًا على حياة السكان في الوطن العربي، حيث ظلت تهدّدهم بالفناء، لذلك لم يكن من المستطاع إسقاط هاتين الكارثتين من ذاكرة التاريخ، ذلك أن النتائج التي تمخضت عنها قد ساهمت في تكوين جزء كبير من مصير الأحداث التي اعتني برصدها. وبالبحث عن أسباب حدوث المجاعات والأوبئة، نكشف عن وجود نوعين من الأسباب؛ طبيعية وبشرية تتفاعل كل واحدة مع الأخرى بدرجات متفاوتة في حدوثها (الجفاف الذي كان من الظواهر المألوفة في البلاد العربية، الحروب والفتن...).

إن موضوع المجاعات والأوبئة من الموضوعات الحياتية والمصيرية التي نحياها؛ إذ يترتب عليه مصير بشرية أو أمة بأكملها في تلك الفترة الحرجة؛ فهي نوع من أنواع التهديدات الخطيرة خاصة لصغار السن، كما أنها تتحكم في سلوكيات الأمة وتعاملاتها. فهذه الأزمات تعتبر تجربة صعبة وقاسية مر بها الوطن العربي على مر العصور، ولها تأثير كبير جدا على كل شيء يحيط بالإنسان، وكان التأثير الأكبر لها على الحالة النفسية السيئة للبشرية. ولم يكن الأثر النفسي السيء المترتب على المجاعات والأوبئة في تلك الفترة للعامة فقط، بل كان تأثيرها كبير أيضا على الأمراء والخلفاء الذين ظلوا يسعون جاهدين من أجل إيجاد الحلول.

لقد عاش أفراد المجتمع العربي في ظل هذه الأزمات أوضاعا مزرية، من أبرز مظاهرها الاقتصادية انخفاض محسوس لمستوى المعيشة، ونفاذ الأغذية من المخازن، حتى أصبح غذاء الإنسان العربي في كثير من المناطق العربية يقتصر على بعض الحشائش البرية، ولحوم الميتة مما سرّع عجلة الموت أكثر؛ بسبب ظهور الأمراض وحتى فساد الأغذية كان من العوامل المؤدية إلى حدوث الأوبئة والأمراض. هذا فضلا على التحولات الديمغرافية الكبرى المتمثلة في الحركة السكانية، وهجرة أفراد المجتمع العربي للبحث عن الغذاء من جهات أخرى. هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد أفرزت هذه الأزمات عن ظهور نوع من التضامن والتكافل الإنساني على أكثر من صعيد.

إشكالية المؤتمر:

يعالج هذا المؤتمر إشكالية المجاعات والأوبئة في الوطن العربي عبر مراحل التاريخ المختلفة من خلال محاولات الإجابة على التساؤلات التالية:

- ✓ فيما تتمثل أهم المجاعات والأوبئة التي حلت بالوطن العربي عبر العصور؟
- ✓ كيف كان الوضع الصحي والمعيشي للوطن العربي في ظل هذه الأزمات؟
- ✓ ما مدى انعكاس المجاعات والأوبئة على الوضع الديمغرافي والاجتماعي والاقتصادي في الوطن العربي عبر العصور؟
- ✓ كيف تعايش سكان الوطن العربي مع الأوبئة والمجاعات التي حلت به عبر العصور؟

أهداف المؤتمر:

- ✓ التعرف على مختلف المجاعات والأمراض والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور، ومحاولة الوقوف على أسبابها وتداعياتها.
- ✓ إزالة اللبس والغموض عن مراحل صعبة عاشها الوطن العربي إثر تعرضه لمثل هذه الأزمات (المجاعات والأوبئة).
- ✓ دراسة المستوى المعيشي والوضع الصحي لمجتمعات الوطن العربي عبر العصور في ظل هذه الأزمات.
- ✓ التعرف على المظاهر الناتجة عن المجاعات والأوبئة عبر العصور.
- ✓ التعرف على مواقف السلطات في الوطن العربي عند التعرض لمثل هذه الأزمات.
- ✓ التعرف على الإجراءات الوقائية عند حدوث مثل هكذا أزمات في الوطن العربي عبر العصور.

محاور المؤتمر:

- ✓ مفاهيم ومصطلحات: المجاعات، الأمراض، الأوبئة...
- ✓ المجاعات في الوطن العربي عبر العصور.
- ✓ الأمراض والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور.
- ✓ الأسباب والعوامل المؤدية للمجاعات والأوبئة.
- ✓ الفترات التاريخية لظهور المجاعات والأوبئة عبر العصور في الوطن العربي.
- ✓ المستوى المعيشي في ظل المجاعات والأوبئة عبر العصور.
- ✓ المظاهر الناتجة عن المجاعات والأوبئة عبر العصور.
- ✓ الآثار والانعكاسات للمجاعات والأوبئة على كافة المستويات (السياسي؛ الاقتصادي؛ الاجتماعي والديمغرافي...) في الوطن العربي عبر العصور.
- ✓ مواقف السلطات في الوطن العربي عند التعرض لمثل هذه الأزمات.
- ✓ الصحة والسكان في ظل زمن المجاعات والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور.
- ✓ طرق ووسائل المعالجة من الأمراض والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور.
- ✓ الجهود المبذولة لتجاوز المجاعات والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور.
- ✓ التأريخ للمجاعات والأوبئة في الوطن العربي.
- ✓ المجاعات والأوبئة في الوطن العربي في الكتابات الأجنبية.
- ✓ مجاعات وأوبئة العصر.
- ✓ التضامن والتكافل الإنساني بالوطن العربي زمن المجاعات والأوبئة.

من الجائحة إلى الأدب- روايتي؛ " الطاعون " لكامو و"الحلزون العنيد" لبوجدرة أنموذجين

From the Pandemic to Literature : The Novels : The Plague of Camus , and The Stubborn Snail of Boudjedra .

أ.د. شعيب مقنونيف

-جامعة تلمسان- الجزائر

الملخص:

إن موضوع الأوبئة والجوائح، لم يتوقف أبدًا عن إثراء مخيال المبدعين، وكذا الإنتاج الأدبي. حيث استمرت الأوبئة في إزعاج أذهان الكتاب وأثارت مناقشات عاطفية حول الأدب الوبائي.

و منذ منتصف القرن الماضي، شهدنا ولادة روايات تشكل جزءًا من موضوع وبائي مثل حالة "الطاعون" لكامو، و"الحلزون العنيد " لبوجدرة. حيث قُدمت فيهما شخصيات تتصارع مع الفيروسات القاتلة والآفات، كما لجأ أيضًا إلى رموز الحيوانات.

و فضلا عن هذا كله، وجدنا من الروائيين، المهتّمين بأدب الأوبئة، مَن يشير إلى دلالات سياسية وفنية وإنسانية في كتاباتهم أكثر من إشارتهم لحوادث الوباء ونتائجه، ألم يقل، قديما، الفيلسوف اليوناني أبيقور: " يُمكن للإنسان أن يكونَ في مأمنٍ من كلّ شيء سوى الوباء، فأمامه يعيش كلّ البشر في مدينة لا أسوار لها "، وهذه حقيقة ما زال الكائن البشري يعيشها إلى اليوم، فمع الأوبئة يتساوى عالَم ما بعد، بعالَم ما قبل في تاريخ البشريّة.

ومداخلتنا الموسومة بـ:" من الجائحة إلى الأدب: روايتي؛ " الطاعون" لكامو" و "الحلزون العنيد" لبوجدرة أنموذجين"، تحاول معرفة الاستراتيجيات المستخدمة لهكذا قضايا؟ وهل يمكننا التحدث عن الكتابة الوبائية؟ وكيف فسّر هذان الأديبان تجربة الوباء الفردية و الجماعية؟

الكلمات المفتاحية: الجائحة - أدب- - رواية الطاعون- رواية الحلزون العنيد.

Abstract;

The subject of Pandemics and epidemics , does not stop the enrichment , the imaginary of creators and their works , since the Epidemics disturb minds of writers and aroused emotional discussions about Epidemiological literature .

Since the middle of the last century , we noticed the birth of novels dealing with Epidemiological topics such as « the Plague of Camus and the Stubborn Snail of Boudjedra . in which they presented personalities wrestling with mortal viruces and pests , they found refuge in annimal symbols .

Besides this , we founded some novelists interested on epidemics literature and indicated political, artistic , and human semantics in their writings more than their signal to the pandemic accidents and their results .

Apygore the greg philosopher said : « human can be in safe of everything , but not the epidemic , in front of him people are living in a city without fences «

This is a truth , human being is living till nowadays .

In our communication entitled « From the Pandemic to Literature the novels (the Plague of Camus , and the Stubborn Snail of Boudjedra we are going to explain the strategies used to such issues and can we deal with a pandemic wrinting ?. and how did those two novelists explain their individual and collective epidemic experience ?

Key words : pandemic- literature – the Plague novel : the Stubborn Snail novel .

تمهيد: في الأوبئة والأدب الروائي

تعاقبت الإحن والمحن والأزمات التي حلت بالبشرية عبر تاريخها الطويل، وأصاب الناس صنوف وأشكال شتى من الابتلاء مثل الطواعين والمجاعات والفيضانات والزلازل والجفاف والحرائق وغير ذلك. لذلك وجدنا الأوبئة والأمراض المستشرية أو "المعدية" تحتل واجهة من واجهات التاريخ البشري، وقد توقف عندها المؤرخون بصفتها حروباً مستترة أو غير معلنة، استطاعت أن تقضي على أعداد هائلة من البشر على مر العصور. وليس وباء الكورونا الخطير الذي يرعب العالم اليوم ويجتاح بلداناً وأصقاعاً إلا نموذجاً من الأوبئة الشهيرة التي غزت التاريخ وأحدثت هزات عنيفة في الحياة الجماعية، متخطية التخوم الجغرافية والسياسية، مخلفة وراءها مآسي ما برحت محفورة في الذاكرة العالمية.

إن بعض هذه الأوبئة شكّل محطات "مظلمة" في التاريخ مثل "طاعون أثينا" الذي حل في العام430 ق.م بُعيد حرب البيلوبونيز الشهيرة، و "طاعون روما" (165- 190 م)، و "الطاعون الأسود" الذي ضرب أوروبا وقضى على ثلث أهل القارة (1347-1352) ثم انتشر في آسيا والشرق الأدنى، والطاعون الذي انتشر أكثر من مرة في الشام وبلاد المغرب والعراق والأندلس وقتل ألوفا من ساكنتها[1]، و" الطاعون الأسود" بمصر الذي أسقط آلاف الضحايا (1347- 1349)، وحصد << الكثير من أرواح المصريين، حتى إن الطرق امتلأت بجثث المصابين، وكان يخرج من القاهرة يومياً نحو 800 جثة لتدفن خارج العاصمة، حتى إن الأكفان نفذت من الأسواق، وأصبح الدفن من دون غسل أو صلاة أو تكفين >>[2].

أولا-كلمة عن الروايتين:

1- رواية "الطاعون "[3] لألبيركامو

تعد رواية الطاعون للكاتب الفرنسي ألبير كامو، الصادرة سنة 1947، من أهم الروايات العالمية، وقد سمحت لصاحبها الفوز بجائزة نوبل للأدب سنة 1957، وهي من الأعمال الأدبية الرفيعة التي تحدثت عن وباء الطاعون، وكيف يعيش الإنسان حياته في ظل الأوبئة، فهي تسرد حكاية تآزر العاملين في المجال الطبي في عملهم زمن الطاعون بمدينة وهران الجزائرية، وبطل الرواية هو طبيب ظل يقوم بعمله الاعتيادي في مجابهة وحشية الطاعون، فكانت تمر عليه عشرات

---

[1]- لقد قدم المؤرخون الذين عاصروا تللك الحوادث صورا متنوعة عن تلك الأوبئة وما نجم عنها في سائر أرجاء الأرض أمثال " المقريزي "(764 - 845 هـ) (1364 - 1442م) صاحب " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" والمعروف "بالخطط المقريزية"، و " يوسف بن ثغري بردي الأتابكي جمال الدين " (813- 874 هـ / 1410 – 1470 م) صاحب كتاب " حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور"، وأيضا موسوعته" المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي"، و إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي أبو الفدا عماد الدين" (701- 774 هـ/ 1301- 1373م)، صاحب كتاب " البداية والنهاية"، و "محمد بن أحمد بن إياس الحنفي" (1447- 1522 م) صاحب كتاب "بدائع الزهور في وقائع الدهور"، و " ابن بطوطة أبو عبد الله (703- 779 هـ/ 1034 -1377) " صاحب الرحلة المشهورة والموسومة بـ" تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، وكبير مؤرخي بلاد المغارب "ابن عذاري المراكشي" (ت 695 هـ / 1295م)، صاحب كتاب " البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب". كما بحثت بشيء من العناية في ذلك كتب النوازل الفقهية مثل ما فعله أحمد بن يحي الونشريسي (834- 914 هـ/ 1430 - 1509 م) في كتابه" المعيار المُعْرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب"، و "أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي" المشهور بابن رشد الجد (450 – 520 هـ / 1058 – 1126م) في نوازله المسماة ب " الفتاوى" و "الأجوبة" (ينظر: علي الخلوصي، الأوبئة والأمراض في التاريخ الإسلامي، دار المنصور للنشر التاريخي: بغداد، ومطبعة الزمان: بغداد، ط 01، د.ت، ص ص 48،49).

[2] محمد أمير: حكايات منسية، دار الهلال: القاهرة، ط 04، 2007، ص35.

[3]- العنوان بالفرنسية هو : La Peste صدرت سنة 1947 بباريس عن دار Gallimard، نقلها إلى العربية الدكتور سهيل إدريس وصدرت عن دار الآداب للنشر والتوزيع: بيروت، طبعة عام 2013.

الحالات التي يعمل على علاجها حتى لحظة الموت أو ربما النجاة، وقد كان يمارس ذلك العمل دون أن يثير المرض المعدي في نفسه سؤال الموت والحياة، إلى أن رمى القدر في طريقه طفلاً مصاباً بالوباء، فكان تعلقه بهذا الكائن الوديع بمثابة منعطف في حياته العملية والإنسانية.

وأهمية الرواية تنبع من تلك الأسئلة الحارقة حول الإنسان والقدر ومصير البشر، كما أن الحكمة الكبيرة التي تستخلص من الرواية أن **المرض والموت** لا يفرقان بين طبقة اجتماعية وأخرى، فتلك هي اللحظة الوحيدة التي يتجمع فيها البشر في وحدة ضد عدو حقيقي بغض النظر عن أوضاعهم الاجتماعية ووظائفهم وأعمارهم، لكن رغم ذلك فإن العمل يتعمق في تناول وقع الوباء على الطبقات الشعبية والمقهورة، والمعروف أن الرواية قد حققت مبيعات كبيرة ولا تزال تلقى رواجاً حتى الآن[4].

واليوم، وفي ظل **جائحة كورونا** التي تهدد العالم، تعود تلك الرواية العظيمة إلى الواجهة، فيقبل عليها القراء والنقاد معاً، يستخلصون تلك العبر الكبيرة فيها، خاصة أن الرواية قد كتبت بعمق فلسفي، فألبير كامو لم يكن مجرد روائي، فهو كذلك فيلسوف له تأملاته في الحياة والوجود، ولقد انعكست كل رؤاه الفكرية في الرواية خاصة تلك الأسئلة العميقة المتعلقة بالبشر ومصائرهم تحت ظل الوباء، فهم يخرجون أفضل ما لديهم من روح تعاضد وتعاون، وفي ذات الوقت يظهرون أسوأ المشاعر وهي الخوف والهلع، ويصبحون جميعاً تحت رحمة شيء واحد هو الانتظار.

لقد استطاعت الرواية تصوير الحياة اليومية وحالة الرعب والترقب، فقد كان الحجر المنزلي يمثل طوق النجاة الوحيد. أغلق الناس منازلهم عليهم وصاروا لا يستقبلون الضيوف حتى من الأقارب، ولم تخل الرواية من قيمة الأمل في مواجهة الموت، فقد راهنت على قدرة البشر عبر تلاحمهم على هزيمة الوباء، ولعل ما جعل هذا العمل الإبداعي العظيم يكتسب أهمية وقيمة تلك العبر والمعاني الإنسانية الكامنة فيه[5].

الطاعون" رواية مُفزعة ومفسِّرة، تُخفيْ بين سُطورها حالاتِ القلق الاستثنائيّة التي تمر بهاالإنسانيةُ اليوم. << سطورٌ كتبت إبانَ نهاية حرب عالميّة كبرى، واليومَ تدفعنا جائحةُ الكورونا إلى إعادةِ قراءتها بحثًا عن إجابة لسؤالٍ وجوديّ، عن هشاشةِ الوجود الإنسانيّ أمام كونٍ عدائيّ حتى النُخاع>> [6]. و لعل البشرية اليوم في أمس الحاجة لاستلهام الدروس العظيمة التي قدمتها الرواية في مواجهة جائحة كورونا، فما يلفت النظر بشدة إلى رواية "الطاعون"، كونها راهنية في كل تفاصيلها، وكأنها تتحدث عمّا يجري في العالم اليوم، ذلك أنها روايةٌ من عالم الخيال تحكي وقائعَ سوداويّة لوباءٍ سيّءِ السُّمعة يظهر فجأة، يجثمُ ثقيلًا ثمَّ ينسحب دون نذير نحو مخبئه الغامض، تاركًا الجميع في حيرة، يضربون كفًا بكفّ متسائلين كيف ظهر؟ وأين اختفى؟ ومتى يضرب من جديد؟[7]. حيث خصَّ ألبير كامو مدينة وهرانَ الجزائرية << بوقائع

---

[4] هذه الرواية تعد أول نجاح كبير للكاتب من حيث المبيعات (161000) نسخة في السنتين التي تلت النشر، وملايين النسخ منذ ذلك التاريخ). ومع تفشي فيروس كورونا في عام 2020، كانت الرواية الأكثر مبيعًا، كما أشارت صحيفة البيان الإماراتيّة إلى أنَّ دار "بنغوين" للنشر أعادتْ طباعة الترجمة الإنجليزيّة للرواية تلبية للطلب المتزايدِ عليها، لاسيّما وقد نفدَ المخزون منها على موقع «أمازون» مع ارتفاع المبيعات في الأسبوع الأخير من فبراير بنسبة 150% عن نفس الفترة من عام 2019، وفي حين تصدَّرت الرواية قائمة المبيعات في إيطاليا، ارتفعت مبيعاتها في فرنسا أيضا بنسبة 300% عن العام السابق. وذكرت صحيفة "لوموند" الفرنسية أن رواية "الطاعون" للفرنسي ألبير كامو عام 1947، و«العمى" للبرتغالي جوزيه ساراماجو عام 1995، شهدتا انتعاشا في المبيعات بمكتبات إيطاليا، منذ اندلاع الأزمة الصحية في العالم.(ينظر: سهى العلي، الثقافة الإبداعية في زمن الأوبئة و الكوارث، منشورات ألف باء: بيروت- عمان، 2018، ص 28 وما بعدها)

[5] ينظر: عبد الرزاق الجيلالي غانم: القيم الإنسانية في الروائع الأدبية العالمية، منشورات دار العلم للنشر: بيروت- عمان، ط 02، د.ت، ص 103.

[6] أحلام العايدي ووفاء الكافي: خلفيات العمل الإبداعي والتشكل الجمالي في زمن الجوائح والاضطرابات، دار البشائر: بيروت- طرابلس، ط 01، 2008، ص 67.

[7] ينظر: الثقافة الإبداعية في زمن الأوبئة و الكوارث..، ص 39.

روايته الفلسفية، وفتَّش في شوارعها عن معنى الوُجُود، و الحدِّ الفاصل بين الحياة والموت في تلك الأيام من شهر نيسان/أبريْل، من أربعيناتِ القرن الماضي>> [8]، ولذلك عدّت الرواية في مجملها محاولة للإجابة عن سؤال مفصلي ووحيد مفاده: كيفَ نحيا والمَوتُ على الأبواب ؟

لقد منحتنا هذه الرواية << وصفا رائعا جليا للحظات مواجهة الإنسان لقدره ومعايشته للموت المتشكل على نطاق ملحمي في صورة مرض الطاعون>>[9] ، ومع مداهمة الكوفيد 19 لنا اليوم، تجلت حوادث الرواية ماثلة أمامنا حرفيا ومجازيا.

هذا، ولا بأس من الإشارة إلى أنه لا علاقة لوهران بالطاعون، إلا بوصفها مسرحاً له. فكان يمكن أن يحدث هذا الوباء في غير مكان، كما يتبدَّى من الرواية. و الطاعون في عمل كامو ليس حقيقياً، لأن مدينة وهران لم تعرف الطاعون في أواخر أربعينيات القرن الماضي، بل عرفت وباء الكوليرا قبل ذلك التاريخ بمائة عام. ربما كان ذلك في بال الروائي لما كتب روايته[10]. ولكنَّ طاعون كامو، برأي النقاد، رمزيٌّ. ولا علاقة له بالجزائر[11]، بل بفرنسا التي كانت قد اجتاحتها القوات النازية من دون مقاومة تذكر.

رواية كامو التي كانت تسير بمحاذاة الاحتلال الألماني، وقت كتابتها، لم تتبن الدرس الفرنسي، فالطاعون الذي أصاب وهران صنع مقاومة داخلية للوباء، غيَّر من سلوكيات أناس كانوا، حتى تلك اللحظة، لاهين ومنغمسين في شؤون حياتهم الخاصة، بيد أن التحدّي الذي طرحته عليهم الجثث الملقاة في الشوارع، والجرذان التي احتلت المدينة، أعاد تشغيل آليات مقاومة، تضامن، عمل جماعي، كانت معطلة، أو غير مختبرة.

كان على وهران التي حوصرت وراء سياج الطاعون ألا تنتظر العون الخارجي. كان عليها أن تبتكر الحل من الداخل: المواجهة عبر العمل الجماعي. فالطاعون ليس مرضاً. المرض يصيب الأفراد. إنه وباء. وهذا يطال الجماعات، ولا يفرِّق بين فئة و أخرى. لا فئة معصومة من الوباء[12].

2- رواية "الحلزون العنيد "[13] لرشيد بوجدرة

إنها رواية من 96 صفحة، تحكي ستة أيام من يوميات مدير مصلحة إبادة الجرذان التي تشكل خطرا على الجزائر العاصمة، وتتزايد أعدادها بشكل مخيف وهذا المدير هو شخص مهزوز النفسية يعاني من عديد العقد.

تصنف رواية " الحلزون العنيد" ضمن أدب روايات ما بعد الحداثة، التي تعمل على تحرير الإنسان من قهر السلطة، كما أنها تهدف إلى انتقاد المؤسسات الثقافية والسياسية المالكة للقوة والمعرفة والسلطة، وأهم مميزات هذه الرواية أنها:

1- أعادت الاعتبار للمرأة في مجتمع لا يعير اهتماما لها، نتيجة موروث حضاري قديم- (العرف، الدين)،

---

[8] خلفيات العمل الإبداعي والتشكل الجمالي في زمن الجوائح والاضطرابات..، ص 79.

[9] حنان الزايدي، جماليات الرواية العبثية: الطاعون لكامو مثالا"، منشورات دار الكتاب للنشر والتوزيع والترجمة: بيروت- الخرطوم، ط01 2009، ص 93.

[10] م.م.س: ص 46.

[11] توفيق الغزالي، الأدب الوجودي في ميزان النقد المعاصر، دار شهرزاد للنشر والتوزيع: بيروت، ومنشورات عويدات: لبنان، د.ط، دت، ص 61.

[12] ينظر: جماليات الرواية العبثية: الطاعون لكامو مثالا..، 98.

[13] العنوان الأصلي هو: L'escargot entêté صدرت عن دار Gallimard 1985. وترجمها إلى العربية هشام القروي ونشرتها المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار (ANEP) ، ط 01، 1984، ط 02، 2002.

فلم ينصفها فكر وفلسفات المجتمعات التقليدية، فبالرغم من المكاسب التي حققتها المرأة اليوم فإنّ هناك الكثير مما يمكن أن يقال حولها، لأنها لا تزال تصارع الكثير من التحديات في مجتمعاتنا الذكورية لذلك فإن البطل في رواية " الحلزون العنيد" جعل للمرأة مكانة عظيمة إذ يركز على امرأتين اثنتين؛ أمه وأخته فقد جعل من أمه المعول الأساسي الذي يتكئ عليه في تسيير حياته فهي مرجعية البطل الثقافية والأخلاقية فنجده متأثرا كثيرا بأمه إذ يعدّد أمثالها وحكمها في الرواية << أمثالها معين أستقي من ثرائه الذي لا ينضب >> [14] لا سيما عندما يقدم على اتخاذ كذا قرارات حيث يقول: << كانت أمي فخورة بي تحب أن تغدق علي الإطراء أنت وريث طباعي، لكنها أيام يتعكر مزاجها تؤاخذني على هشاشة رئتي "ولد الفار يطلع حفار" >>[15] يضيف.. << يرعبني الحنين، لكن أمي تشوقني، أنا لها مدين بكل شيء بالنظام، بالدقة >>[16]، ويقول أيضا..<< إنني أحب وحدتي، كانت أمي تقول: " الخلطة بلط والجرب يعدي" >>[17] .

ذكر الراوي الكثير من الأمثال والحكم التي ورثها عن أمه، فجعلته يقلدها ويقتدي بها وبموروثها الثقافي، كما نجد في الرواية سلطة الأم على الأب فالكاتب قد تعمد هذا ليرفع من شأن المرأة ، فالأم في الرواية تكسر تسلط الأب فهو يدعو الى كسر السلطة الذكورية التي تعاني منها المجتمعات العربية فقد اتخذت قرارا حاسما في أنها لا تريد مزيدا من الأطفال إذ يقول البطل في الرواية: << أمي لم تضعف أبدا حتى لحظة موتها، كانت تود أن تراني أسمم القوارض الستة بالعنصل الأحمر، وقد كان بوسع أبي أن يسعل ما طاب له السعال فهي قد أقصته عن الفراش الزوجي منذ مولد أختي ... كانت والدتي حاسمة، لقد صممت : ولد فبنت، نقطة، انتهى .كانت تقول :الزهد حسن الصالحين ودواء الرئتين. لم يكن زوجها يعلم إن كان ما تدعو إليه حقا أمرا باطلا لكنها أخافته كثيرا، فأركن إلى الهدوء>>[18] .فهي تمثل المرأة الصارمة والحاسمة في اتخاذ قراراتها، فقد صورها لنا الراوي على أنها قوية الشخصية لا تفكر بعواطفها بل بعقلها لذلك كانت لا تحب الحنين والتناسل وهذا ما ورثه ابنها عنها << لم تكن تحب الحنين، وهي حين طلبت أن أصورها يوم موتها، فذلك لكي تبقى لي ذكرى عن صرامتها، وصلابتها كانت تعرفني من طينتها>> [19] . وفي المقابل نجد شخصية الأب هشة فقد ورث عن أبيه هشاشة الرئتين، إلا أن البطل يفضل أمه على والده، << ... غير أن هشاشة رئتي كانت تجعلها تخشى أن تثقل كفة الميراث الأبوي، لم تكن ترغب في أن أرث علاوة عن ذلك ضعف شخصيته >>[20] .

كما تحدث البطل في الرواية عن امرأة أخرى وهي أخته و التي تعد المخزن لأسراره بعد أمه فهو يثق بها ويحترمها لأنها تحترم مبادئه بالرغم من الحاده، << لكنها تحترم مبادئي تزعم أن هشاشة رئتي هي سبب الحادي لا أريد معاكستها فهي تشبه أمي، نفس العينين، نفس الشعر، نفس البشرة >> [21] ، كما أنها تسعى إلى تزويجه لكي يكون أسرة و لا يبقى وحيدا . و لا تحب أن يقوم بأعمال المنزل بنفسه، فهي تذكره بأمه، ومن هنا نستنتج أن الكاتب رشيد بوجدرة أراد أن يبرز للقارئ مدى أهمية المرأة ودورها في المجتمع، ففي" الحلزون العنيد" صورها

الكاتب على أنها امرأة مقاومة، وصامدة فهي المحرك الأساسي للعائلة، كما أنها نصف المجتمع.

---

[14] رشيد بوجدرة،" الحلزون العنيد"، ترجمة هشام القروي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر 1981 م، ص 89.

[15] نفسه، ص 48.

[16] نفسه، ص 09.

[17] نفسه، ص 30.

[18] نفسه، ص 73.

[19] نفسه، ص 57.

[20] نفسه، ص 58.

[21] نفسه، ص 31.

2/ الثورة ضد المسكوت عنه في المجتمع بحكم أنه من الطابوهات، كبّلت المجتمع وقيّدت الحريات وهي: "الدين"، و" الجنس"، و" السياسة ".

أ/ الدين: تحدث الراوي عن إلحاده في أكثر من موضع في الرواية << أنا من الإخلاص للدولة بحيث لا يسعني الإيمان بالله >> [22]، وقد وكرر هذا الموقف مرارا في الرواية فها هو يسخر من طريقة بناء المساجد بقوله: << و بينما تُصرف الملايين في بناء مساجد ذات مآذن لا جدوى منها، لا يجد مركز إبادة الجرذان اهتماما من أحد>> [23] . فالبطل ينتقد الدولة لاهتمامها ببناء المساجد وإهمال الأمور التي تتعلق بنظافة المدينة << لكن الأجدى أن تبنى الجوامع دون صوامع كما تكبر ميزانية مركز إبادة الجرذان>>[24].

ومن هنا يمكننا أن نستشف الاشارة الى المسجد الأعظم بالعاصمة الذي بني بأموال طائلة وفي المقابل المستشفيات بحاجة إلى أجهزة والمسؤولين يعالجون خارج الوطن.

نلاحظ أن البطل ينتقد عبر الرموز الموجودة في الرواية الدولة ومؤسساتها، تلك الدولة التي توفر ميزانية كبيرة للمساجد والمآذن الخاصة بها رغم أن تلك المآذن ستصبح بلا جدوى؛ أجهزة راديو تبث الآذان في حين أنها تقلل ميزانية مكافحة الجرذان التي تتناسل وتهدد مأسورة الغاز التي قد تقرضها. في أية لحظة << ... بعض ألسنة السوء تقول إن صوت المؤذن قد عوضوه بأسطوانة مستوردة من مصر، فلم يبق عليه سوى وصل الالكتروفون بالكهرباء ومع ذلك فهو تبذير..>>[25].

صاحب الرواية يعزز إلحاده بسخريته من القائمين على الشؤون الدينية الإسلامية من إمام ومؤذن ويعدّهم سدّجا ولا يفقهون مما يقولون شيئا تقول الرواية بالحرف الواحد: << لكن المؤذن الجاهل لا يعرف هذا والا لأمر بإحراق جميع آثار أبي الروحي >> [26].

هذه الاعترافات الجريئة والانتقادات اللاذعة للدين والسخرية من رجالاته تبيّن أن بوجدرة قد تجاوز الخطوط الحمراء وتخندق مع " المقدسين للمدنس و المدنسين للمقدس" وهي السّمة التي امتازت بها روايات ما بعد الحداثة.

ب/ الجنس: يعدّ "بوجدرة " من الروائيين الأقرب إلى تيار الرواية الجديدة، وصاحب جرأة في تناول المستور والمسكوت عنه والاعترافات بتفاصيل الحياة الجنسية لأبطاله، فهو لا يهتم في أعماله بمفهوم الخطيئة والدنس ورغم تعرض بوجدرة لوابل من الانتقادات من قبل أنصار التيار الاسلامي وغيرهم، وذلك منذ سبعينيات القرن العشرين، إلا أنه ظل متمسكا بتيمة الجنس بوصفه موضوعا محوريا، وقد يكون الجنس في رواية "الحلزون العنيد" طريقة لتدمير ثقافة الصمت، وكشف للحقيقة الإنسانية في عريها الفاضح فليست الحقيقة دائما هي الروح والنفس النقية، بل هي أيضا الجسد الذي تبنى عليه كل الأشكال الاجتماعية من السلوك لأجل فضح زيف المجتمع ونفاق الأخلاق التي قد تكون مجرد ستائر لإخفاء البشاعات المضمرة، وهذا ما نلمسه في الرواية فقد وصف بوجدرة حال المجتمع بدّقة، مجتمع مكبوت جنسيا، منحط أخلاقيا مضطرب نفسيا، وعلى الرغم من أنه يصور لنا الواقع فإن حكاية الجنس في مجتمع محافظ تجعل

---

[22] نفسه، ص 21.

[23] نفسه، ص 72.

[24] نفسه، ص 58.

[25] نفسه، ص 26.

[26] نفسه، ص 75.

القارئ لا يقبل الطريقة التي يكتب بها من التفاصيل والوصف الدقيق فهي بلا شك تشعر القارئ بالتقزز، يقول في الرواية<< سيكون المساء مماثلا، ومع الاحتلام وهملان المني، يلحق الممارسات المنعزلة، النادرة، خجل لا يطاق >>[27].

وهناك عبارات جنسية أخرى فاحشة تزخر بها الرواية يستحي الانسان أن يتلفظ بها حتى مع نفسه فكيف وأن تنشر ليقرأها العالم بأسره.

ج/ **السياسة:** الرواية فيها نقد لاذع في شكل ساخر للإدارة و البيروقراطية، فالبطل في الرواية ضد السلطة لأنه أراد أن تتغير المدينة نحو الأحسن فهو يدعو إلى التخلص من الممارسات البيروقراطية يقول: << ولعل من الواجب أن يعتز بي رؤسائي، فأنا أهتم حتى لسائقي الحافلات يقظ أنا، وغيور على حقوق الدولة ومباد ا رتها، ولو كان جميع الموظفين مثلي، لكانت المدينة في هذه الساعة تبرق عوض التخبط في أوحالها، وقذاراتها وبالوعاتها، لقد كتبت في تقريري أن تورمها الدسم وفوضى سكانها هما اللذان سيقضيان عليها...>> [28]، فهو ينتقد أيضا السلوكات المجتمعية كما نجد في الرواية البطل يسخر من السلطة والسياسيين فها هو يقول: << في الواقع الشيء الوحيد الذي أحسد عليه رؤساء الدول، ذلك الاحساس بالسيطرة، أما فيما تبقى فإني أشفق عليهم إنهم وحيدون، مثلي، مع فارق وهو أني لا ألقي خطبا رنانة طنانة كما يحبني الناس، و لا أستحم وسط الجماهير، فهي تغمني، و الحماس يصدمني، وتضايقني رائحة العرق >>[29].

ولما أيقن البطل أن تحقيق هدفه في إبادة الجرذان تعترضه عوائق وإكراهات قلة الميزانية، يعلن أنه غير مهتم بشأن الدين لأنه مخلص أكثر للدولة في إشارة ساخرة إلى اعتبار الدولة إلها من نوع آخر، فالرواية فيها نقد لاذع في شكل ساخر للإدارة البيروقراطية وبعض السلوكات المجتمعية.

ويمكن وصف هذه الرواية بأنها رواية سياسية ساخرة إذ يقول البطل في الرواية: << كما لو كنت أنا شغوفا بالسياسة، كلا أبدا ليست للخطب تأثير علي، وحين يصدف أن أقرأ خطابا رنانا طنبا أدرك أن السياسيين أناس وحيدون مثلي وأجدهم ظرفاء... إنني أشفق عليهم وأرثي لحالهم، ثم انهم فضلا عن ذلك لا يهمونني>>[30].

فهذه الرواية تعبر عن الواقع الذي ما زالت تعاني منه الجزائر، وحتى بعض الدول العربية، وهذا ينفث جميع مشاريع التحديث والتنمية البشرية و الوقوع في المخاطر الكبرى، لذلك يسعى الكاتب رشيد بوجدرة في هذه الرواية إلى بتر الطبقة السياسية التي لا تعرف كيف توازن ما بين المداخيل والواجبات والحقوق.

ثانيا- من "الطاعون " إلى "الحلزون العنيد":

نجدد القول إنه في عام 1947، شهدت مدينة وهران الجزائرية وباء الطاعون الذي عزلها عن بقية العالم. مثل جميع الأوبئة، فإن الطاعون في ازدهار ولكنه يتراجع أيضًا، مما يؤثر على السكان. يحاول ألبير كامو بهذه الطريقة أن يصف سلوك الرجال في فترة الأزمات. ما يميّز القصة هو وصف دقيق للمدينة، معروضة على أنها << مدينة عادية>> [31]،يعرضها المؤلف حسب المواسم والطقس والمهام اليومية: العمل والأسواق والمواصلات والمقاهي ودور السينما والأحياء المختلفة

---

[27] نفسه، ص 44.

[28] نفسه، ص 44.

[29] نفسه، ص 94.

[30] نفسه، ص 14.

[31] Camus, Albert, La Peste, Originale,1947, p 5.

والبحر<< هذه المدينة المهجورة، بيضاء بالغبار ، مشبعة بروائح المارينز ، كلها رنانة صرخات الريح، مشتتة مثل جزيرة تعيسة >>[32].

إن الطاعون الذي ظهر بشكل عنيف وآخذ في الانتشار بسرعة، في جميع أنحاء المدينة، يتّم تقديمه إلينا بدقة طبية متناهيو؛ انتقاله عن طريق الجرذان، والحمى والإسهال وصعوبة التنفس، وبعض التفاصيل الواقعية التي لا تطاق تقريباً. مع تفاقم الوباء ، تم اتخاذ الإجراءات القانونية: عزل المرضى في المستشفيات ثم في المدارس، والحجر الصحي للأسر التي تعيش في المخيمات، والدفن في البداية فاشل، ثم نقل الجثث في "الترام" إلى محارق الجثث خارج المدينة عادة ما يتبع المرض الموت. هذا موصوف في اللوحات المؤثرة، والتي تتصاعد: لوحة بواب، ثم المغني الذي يؤدي دور "أورفيوس". الحلقة الكتمردة لوفاة طفل تتبعها حادثة كاهن ثم حادثة "جان تارو" أحد الشخصيات الرئيسية وصديق الطبيب "ريو".

مدينة الطاعون معزولة عن العالم، لا احد يستطيع أن يدخلها، ولا أحد يستطيع أن يتركها. لم يعد تشغيل نظام البريد.. البرقيات فقط هي التي تسمح معرفة أخبار الغائبين من بعيد. لذلك كل شخص عدّ منفيا عن عائلاته وأحبائه، يختبر بطريقة أو بأخرى تجربة الانفصال. أي رجل يحتمل أن يصاب بالعدوى يشكل خطرا على الآخرين. يظهر الوباء كنظام جماعي، كما قدمه كامو في المقطع التالي: << لم تعد هناك مشاعر فردية في ذلك الوقت، بل تاريخ جماعي كان الطاعون والمشاعر المشتركة بين الجميع>> [33]. كما يتم تقديمه كتذكير مستمر بالموت وتحريض على السجن يغير السلوك ويثير الثورات ولكن أيضًا أعمال التفاني والتضامن.

بعيدًا عن كل بطولة، سيقول ألبير كامو: << ليس هناك ما هو أقل إثارة من الطاعون، وبمرور الوقت، فإن المصائب الكبيرة تكون رتيبة >>34 .

في الجزائر العاصمة، المكان المفضل للفئران، لدى رشيد بوجدرة، هذه الثدييات غنية بالرموز والتعقيد. ومكافحتها سوف تولد علاقة حميمة مع هذه الفئران لدرجة التعاطف معها عندما يفترض أنها ألدّ أعدائها، كما يحدد المؤلف في الملاحظات التالية: << يجعلهم يلعبون بأسلاك حديدية >>[35].

تشير ظاهرة الفئران هذه إلى ثنائية الطاعون / العلاج والموت / الحياة . في الواقع في هذه الرواية، أطلقت الجرذان فكرة سرقة الثروة، بكل الدلالات السياسية الممكنة. ما جعل الباحث "بوردون دي سيجري (Bourdon de Sigrais) يوضح ذلك في هذه الكلمات: << تقدم الفئران تنجز ، في النوع التاريخي، أجمل موضوع في العالم. إنهم يتصلون بكل شيء، وكل شيء يتعلق بهم >>[36]، يفتحون عدة آفاق للدراسات من بينها ما يفسح المجال له في" الحلزون العنيد"، وبالتالي ينتشرون في شوارع الجزائر العاصمة ويتكاثرون نتيجة للخصوبة البشرية مع شره وجشع النسل. إن هياج الفئران هو نوع من إشارة الخطر. هذا السلوك الزلزالي ينبه السكان ويحذرهم من حالة متوطنة. ومع ذلك، يبدو أن هؤلاء السكان غافلين عن هذا الوباء.

---

[32] Ibid, p. 135.

[33] Ibid, p.137.

[34] Ibid, p.142.

[35] Boudjedra, Rachid, L'escargot entêté, Gallimard, 1985, P.98.

[36] Delort, Robert: Mensuel 74, 1985, P.1.

سيقول الراوي في الحلزون العنيد إن << الفئران لديها القدرة على قلب الطيف السياسي للبلد رأسًا على عقب>>[37] . سيكونون بمثابة ذريعة للتنديد بحالة الشعب و حالة الحكومة كما يبيّن أحد الدارسين بشكل جيّد لمن << الفئران ، قوارض المدينة ، وكذلك" خط أنابيب الغاز "(التصنيع الجزائري متضمن ؟) يهاجم الفساد بالفساد، لكن الرجال غير الفعالين لا يستطيعون إحباط السم >> [38].

إن فصل نفسه عن هذا الحب والعاطفة تجاه الجرذان ليس سوى طريقة واحدة للراوي لإظهار تعاطفه مع القوة الاستبدادية واستعباد الشعوب: << شعار الأمريكيين هو عبارة عن فأر ذكي بعض الشيء. لهذا السبب يحكمون العالم ويحترمونني. شعار الأزتك هو الحلزون المتلألئ. هذا هو السبب في أنهم خضعوا للهيمنة ويستحقون ازدرائي >>[39]. الأمريكي، سيد في بلده و المسيطر، في الخارج، نموذجًا على عكس "الأزتيك" الذين، على الرغم من ثقافتهم العظيمة، يشبهون رخويات بطنيات الأقدام التي لا تتوقف عن السبات.

هذا البلد صنع أيضا، مستعمر. يعود بوراوي إلى هذه الفكرة بالتأكيد على أنه << بتدخل غير متزامن، يرسم بوجدرة خلسة مشكلة المستعمِر المستعمَر، أو بشكل أدّق مشكلة المستعمرين الجدد الذين يتصرفون مثل مستعمري شعوبهم. لكن يبدو أنه يشير إلى أن هذه الصراعات الداخلية ضرورية وربما مفضلة على الحياد الذي يمثله غياب الفئران كما هو الحال في إدمونتون ، ألبرتا ، بكندا >>[40].

في الطاعون، معظم الشخصيات الرئيسية هم من الرجال. النساء الوحيدات الحاضرات هن الأمهات اللواتي يجسدن الصبر والألم. هم يشكلون شخصيات اجتماعية: طبيب (ريو)، كاهن (بانيلو)، صحفي (رامبرت)، موظف بلدي (غراند) ، قاضي (أوثون) ، تاجر (كوتارد). بجانبهم، تارو، صديق الطبيب، هو فيلسوف منعزل من ناحية أخرى، في الحلزون العنيد" ، يختلف تمثيل الأم عن ذلك في الطلاق[41].

بل إنها تجسد الاستقرار، وتعمل، وتداعب الآخرين، من خلال أقوالها وأمثالها، ودليل الفطرة، ووصي على النار المقدسة. تستمد الأم قوتها من خيال الأجداد وتحاول إفسادها، كما يوضح هدي بوراوي في الآتي:

<< هذه الأم ليست خاضعة لسلطة الأب، بل تملي بإيماءاتها، بالوضوح المذهل لفلسفتها العملية، طريقة جديدة لإبراز الحكمة المغربية. وبإصرارها على التكاثر الذاتي البسيط، وهو ما أطلق عليه الأمريكيون "النمو السكاني الصفري"،

---

[37] L'escargot enteté, Op.Cit, p.78.

[38] Bouraoui, Hédi,: L'Escargot entêté, Mensuel 74 Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, 1978, 26, pp161-169.

[39] L'escargot entêté, Op. Cit, p.157.

[40] Bouraoui, Hédi, Ibid, pp. 161-169.

[41] Boudjedra, Rachid, La Répudiation, De noël, 1967.

إن الأم في الطلاق تتعرض للتعذيب. إنه لعنة على المجتمع الجزائري وهذا المجتمع والعشيرة. تظل الأم صامتة وغير مستجيبة وتقبل كل ما يحدث. حتى أنها تنظم حفلات زفاف زبيدة وسي زبير، وهي حفلات العربدة التي ينظمها الرجال. إنها غير قادرة على الرد لأنها لا تزال تعتمد على سي الزبير أخلاقياً ومالياً: لا يحق للمرأة الجزائرية سوى الحفاظ على العضو الجنسي لزوجها.

تحرم الزوج من الفراش الزوجي بعد ولادة ابن وابنة عرجاء. ومن ثم فإنه يصوغ بيانات ثقافية جديدة تتواءم مع المشكلات الديموغرافية والاقتصادية وعادات الأجداد وطرائق المستقبل>>[42].

ثالثا-رسم تخطيطي مقترح

في الطاعون، الذي يلمح إلى التاريخ المعاصر بأسلوب الحكاية، يعطل الوباء الحياة اليومية للمدينة وسكانها. إنها استعارة للحرب، أي الشر. يذكر المؤلف الحرب العالمية الثانية، ومعسكرات الاعتقال، والقتل المرعب. يتّم تقديم كل هذا تحت شعار مجازي.

<< وهكذا عانوا من المعاناة العميقة لجميع الأسرى وجميع المنفيين، وهو العيش بذاكرة لا طائل من ورائها. هذا الماضي بالذات الذي استمروا في التفكير فيه عن أسفهم فقط. كانوا يرغبون، في الواقع، في أن يكونوا قادرين على إضافة كل ما يأسفون لعدم القيام به بينما لا يزال بإمكانهم فعل ذلك مع الشخص الذي توقعوه - وكذلك في جميع الظروف، حتى في ظل الظروف السعيدة نسبيًا، بحياتهم كسجناء، اختلطوا بالغائبين، وما كانوا آنذاك لا يمكن أن يشبعهم. نفد صبرهم على حاضرهم، وأعداء ماضيهم وحرمانهم من المستقبل، فنحن بذلك نشبه أولئك الذين تجلبهم العدالة أو الكراهية الإنسانية للحياة خلف القضبان. في النهاية، كان السبيل الوحيد للهروب من هذه العطلة التي لا تطاق هو جعل القطارات تعمل مرة أخرى بالخيال وملء الساعات بالرنين المتكرر لجرس الباب الذي لا يزال صامتًا >>[43].

تشير هذه القصة الرمزية إلى الطاعون البُني[44]. أوضح أوريلي بالو (Aurélie Palud)، الأستاذ المعتمد في الآداب الحديثة، أن الوباء الجسدي في هذه القصة يتضح أنه وباء أخلاقي. تنبت فكرة أن الإنسان يحمل الشر في داخله. من خلال التلوث الوبائي، يلقي الإنسان الضوء على لغز هويته[45].

وهي الفكرة نفسها المذكورة أعلاه من قبل كامو نفسه، في هذه الكلمات: << لقد بدأ مواطنونا في السيطرة ، لقد تكيفوا ، كما يقولون ، لأنه لم تكن هناك طريقة أخرى. لا يزال لديهم، بالطبع، موقف المحنة والمعاناة، لكنهم لم يعودوا يشعرون بقشيشها. علاوة على ذلك، اعتبر الدكتور ريو ، على سبيل المثال، أن هذا هو بالضبط سوء حظ، وأن عادة اليأس أسوأ من اليأس نفسه. في السابق، لم يكن المنفصلون غير سعداء حقًا، كان هناك إضاءة في معاناتهم تلاشت للتو. الآن يمكنك رؤيتهم في زوايا الشوارع، في المقاهي أو مع أصدقائهم، هادئين وشارد الذهن، بعيون شديدة الملل، وبفضلهم، بدت المدينة بأكملها وكأنها غرفة انتظار. بالنسبة لأولئك الذين لديهم تجارة، قاموا بذلك بنفس وتيرة الطاعون، بدقة وباهتة. كان الجميع متواضعا.

---

[42] Bouraoui, Hédi, Op. Cit, pp. 161-169.

[43] Ibid,p.155.

[44] هو لقب أطلق على النازيين إبان الحرب العالمية الثانية

[45] Palud, Aurélie, La peste de Camus, récit d'une épidémie littéraire, dans l'émission Les Chemins de la Philosophie, d'Adèle Vn Reeth, 2014 https://www.franceculture.fr/emissions/les-nouveaux-chemins-de-la-connaissance/epidemies-44-la-peste-de-camus-recit-dune-epidemie

ولأول مرة، لم يتردد المنفصلون عن الحديث عن الغائب، أو استخدام لغة مشتركة، أو فحص انفصالهم من خلال نفس العدسة مثل إحصاءات الوباء. وبينما كانوا حتى ذلك الحين قد تخلصوا بشدة من معاناتهم من التعاسة الجماعية، فقد تقبلوا الآن الارتباك. بدون ذاكرة وبدون أمل، استقروا في الحاضر. في الحقيقة، أصبح كل شيء حاضرًا لهم. يجب أن يقال أن الطاعون قد سلب قوة الحب وحتى الصداقة من الجميع. لأن الحب يأخذ القليل من المستقبل، ولم يتبق لنا شيء سوى لحظات >>[46]. وبالتالي، تجدر الإشارة إلى أن وباء الطاعون عند كامو ليس سوى ذريعة لتسليط الضوء على موت السكان الأصليين. يتحدى الكاتب مذبحة الحرب ويستبدلها بوباء يتسبب أيضًا في وقوع عدد كبير من الضحايا.

رابعا- الوظيفة الرمزية للطاعون

عند تحليل البعد الاستعاري / المجازي للطاعون في الرواية، تبرز ثلاث نقاط، وهي:

1/ البعد الميتافيزيقي:

بداية، يتم تقديم الطاعون كقصة رمزية للحالة الإنسانية، والتعبير التالي بشكل خاص << ساكن وهران>>[47]، سيكون متعلقًا بالتعبير الآخر << الإنسان بشكل عام>>[48].

تظهر في النص دلالات أخرى لتعميم الموضوع، وبالتالي فإن مدينة وهران ، مثل أي مدينة حديثة، ستكون عالمًا مصغرًا يمثل العالم. يبدو أن هذا الطاعون الذي يصيب الإنسان يمثل عبثية الحالة البشرية. سيكون أيضًا رمزًا للشر في الإنسان، وبهذا المعنى سيقول كامو في هذه الكلمات: << الإنسان ذئب للإنسان>>49.

وتجدر الإشارة أيضًا إلى أن هذا الوباء يمكن أن يرمز إلى الرجل "القاتل" طوعيًا أو على الرغم من نفسه، مما يبرره الكاتب نفسه: << من" قاتل "فاقد للوعي إلى" قاتل عاقل "إلى" قاتل بريء " ،" ما هو الطبيعي هو الميكروب >>[50].

2/ البعد الديني:

فكرتان رئيسيتان تجعلان جوهر هذا البعد، أي أن الطاعون سيكون عقابًا إلهيًا على معصية الإنسان ورمزًا للإنسان الذي يحمل وصمة الخطيئة الأصلية. بالنسبة للكاتب، فإن وباء الطاعون يمثل السخط الإلهي.

3/ البعد التاريخي:

يبدو أن نص كامو يعمل على تلميحات لأحداث الحرب العالمية الثانية ومع ذلك لم يستطع القارئ الادعاء بأن الطاعون يمثل النازية، إنه مجرد تفسير واحد من بين العديد من التفسيرات. لذلك يلمح الطاعون إلى الطاعون "البُني" الذي يشير إلى النازية التي تجتاح أوروبا. في ذلك، يذكر الكاتب إشارات صريحة إلى أحداث الحرب العالمية الثانية: المضاربة، والسوق السوداء، ومعسكرات العزل، واستخدام الملاعب. في نظام أكثر عمومية، يمثل الطاعون جميع أشكال الشمولية

---

[46] La peste, Op. Cit, P.79.

[47] Ibid, p.90.

[48] Ibid, p.95.

[49] Ibid, p.100.

[50] Ibid, p.95.

والديكتاتورية السياسية. بالإضافة إلى ذلك، فإن مدينة وهران هي استعارة ورمز للعالم خلال الحرب العالمية الثانية: الفرح، حيث تستذكر مدينة وهران المحررة، على سبيل المثال، تحرير باريس.

في رواية " الحلزون العنيد" ، يكشف بوجدرة عن حميمية البيروقراطي الذي يعاني من الفصام والبارانويا. يقوم المؤلف بتثبيت شخصيته في مشهد استعاري يتعلق بالرائع، ويضفي عليها بعدًا فكاهيًا مغلفًا باستجواب النظام الجزائري وكل البيروقراطيين كان بوراوي محقًا في توضيح ذلك في هذه الرواية: << هناك حمل زائد حقيقي للرموز العملية غالبًا على مستويات متناقضة، مما يزيد من الشعور بالغموض الأساسي الذي يميز هذه القصة >>[51] يستهدف هذا الإدانة بشكل أساسي بيروقراطية العالم الثالث التي تستنكر حرية التعبير.

اللافت أن معظم هذه الأوبئة اجتاحت عالم الأدب والفن ولا سيما الرواية التي بدت مؤهلة لاستيعاب مثل هذه الكوارث بصفتها مادة سردية غنية في وقائعها ومآسيها. ولا تحصى فعلاً الروايات التي تناولت أوبئة مثل الطاعون والكوليرا والسل والإيدز و الإيبولا...

رواية "الطاعون" لألبير كامو، عرفت، كما سلف الذكر، نجاحاً فرنسياً وعالمياً منذ صدورها العام1947. اختار كامو مدينة وهران الجزائرية في فترة الأربعينيات عندما كانت تحت نير الاستعمار الفرنسي، موقعاً لحوادث الرواية الواقعية وشبه المتخيلة في آن. فمدينة وهران بحسب المراجع الطبية والاستشفائية لم تشهد هذا المرض الذي يسميه كامو "الطاعون المحرِّر" في تلك السنوات بل عدوى أخرى كانت انتقلت من العاصمة الجزائرية. ومعروف أن وهران اجتاحها الطاعون في القرن الثامن عشر إبان الاحتلال الإسباني[52].

ووفق مضمون الرواية، كانت مدينة وهران بدأت تشهد انتشار وباء الطاعون الذي ضربها وأوقع فيها ضحايا كثراً وعزلها عن الجوار. يكتشف الطبيب "برنار ريو"، أحد أبطال الرواية، أن حارس المبنى الذي يقطنه أصيب بمرض لم يلبث أن قضى عليه. ثم يفاجأ الدكتور بشخص يدعى "جوزف غران" يزوره في عيادته ليعلمه بأن أعداداً كبيرة من الجرذان تنفق في الشوارع. و "غران" هذا يعمل في البلدية ويحاول أن ينجز كتاباً، لكنه متوقف عند الجملة الأولى، وهو أول شخص يشفى من الطاعون بعد إيجاد دواء له. على أثر هذه الظاهرة تقرر السلطات، بعد تردد، إغلاق المدينة وعزلها من أجل منع الوباء من التفشي. وعندما يسود الهلع يقرر الصحافي الفرنسي الذي يدعى "ريمون رامبر"، مغادرة وهران إلى باريس. أما " كوتار " فيجد حافزاً للبقاء ليواصل نشاطه غير القانوني في مثل هذا الجو المبهم، ويصاب في الختام بالجنون. وبعدما أحدث المرض حالاً من الخراب المادي والاجتماعي في المدينة يتّم اكتشاف اللقاح الملائم. الرواية أرادها ألبير كامو رمزية وذات بعد سياسي، فالطاعون هنا إنما يرمز إلى النازية التي كانت بدأت تنتشر، وليست مقاومة المرض سوى مقاومة لهذا الوباء الهتلري المتفشي في ألمانيا وأوروبا. ويقول كامو في رد على مقال كتبه الناقد رولان بارت عن الرواية: << رواية الطاعون، التي شئت أن تُقرأ على مستويات عدة، تحوي مضموناً واضحاً هو معركة المقاومة الأوروبية ضد النازية>> [53].

وفي الختام سواء في رواية "الطاعون" أو رواية " الحلزون العنيد"، فإن الوباء، هذه الحاصدة القاتمة، تسبب الكرب والارتباك بين السكان. إنها تجعل الرجال معروفين وتظهر أفضل ما لديهم. يصبح المجتمع موقع بناء كبير حيث

---

[51] Bouraoui, Hédi, Op. Cit, pp. 161-169.

[52] ينظر: الثقافة الإبداعية في زمن الأوبئة و الكوارث..، ص 32، 33.

[53] م.م.س، ص 36.

يختلط المرض والمودة، وهي سمة من سمات كارثة لا يمكن التغلب عليها، مما يثير استجابة ضد الموت على حساب العديد من التضحيات.

مثل أي وباء يترك عواقب لا تمحى، تظل هذه الآفات محفورة في الذاكرة الجماعية للبشرية. هكذا يطارد الرجال شعور إحياء هذا الرعب فيما يتعلق بالتاريخ الأدبي، هاتان القصتان متشابهتان من حيث الأسلوب والموضوع، فهي المحصلة التي يمكننا استخلاصها من روايتي الغريب والطاعون لكامو عبر تشكيلات رسمية جديدة خاصة ببوجدرة.

ففي رواية "الطاعون" فإن" ريو " (Rieux) هذه الشخصية التي تطمح إلى العبثية وتبدي اللامبالاة بالشر، تبدو عكس الراوي في رواية " الحلزون العنيد" ، التزامه بعيد كل البعد عن كونه سياسيًا اجتماعيًا. بينما في رواية " الحلزون العنيد"، يحاول بوجدرة وضع حدّ لماضي الجزائر الأدبي وإعادة بنائه. هذه الفاتورة الرومانسية الجديدة تولد مشاكل أساسية جديدة تؤثر على الجزائر خاصة البيروقراطية التي تسبب القلق والاضطراب التهديد اليومي بالموت والحبس يغير السلوك. هذه المشاعر نفسها تولد ثورات ولكن أيضًا أعمال تكريس و تضامن، وكوفيد 19 في 2020 دليل لا يقبل الجدل على ذلك.

قائمة المصادر و المراجع:

أولا- المصادر

ألبير كامو:

الطاعون، نقلها إلى العربية الدكتور سهيل إدريس، دار الآداب للنشر والتوزيع: بيروت، طبعة عام 2013.

رشيد بوجدرة:

" الحلزون العنيد"، ترجمة هشام القروي، هشام القروي، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار (ANEP) ، ط 01، 1984، ط 02، 2002.

ثانيا- المراجع

1/ بالعربية

أحلام العايدي ووفاء الكافي:

-خلفيات العمل الإبداعي والتشكل الجمالي في زمن الجوائح والاضطرابات، دار البشائر: بيروت- طرابلس، ط 01، 2008.

توفيق الغزالي:

-الأدب الوجودي في ميزان النقد المعاصر، دار شهرزاد للنشر والتوزيع: بيروت، ومنشورات عويدات: لبنان، د.ط، دت.

حنان الزايدي:

- جماليات الرواية العبثية: الطاعون لكامو مثالا"، منشورات دار الكتاب للنشر والتوزيع والترجمة: بيروت- الخرطوم، ط01 2009

سهى العلي:

-الثقافة الإبداعية في زمن الأوبئة و الكوارث، منشورات ألف باء: بيروت- عمان، 2018.

عبد الرزاق الجيلالي غانم:

- القيم الإنسانية في الروائع الأدبية العالمية، منشورات دار العلم للنشر: بيروت- عمان، ط 02، د.ت.

علي الخلوصي:

-الأوبئة والأمراض في التاريخ الإسلامي، دار المنصور للنشر التاريخي: بغداد، ومطبعة الزمان: بغداد، ط 01، د.ت.

محمد أمير:

- حكايات منسية، دار الهلال: القاهرة، ط 04، 2007.

2/ باللغة الأجنبية:

Boudjedra, Rachid:

- La Répudiation, De noël, 1967.
- L'escargot entêté, Gallimard, 1985.

Bouraoui, Hédi :

- L'Escargot entêté, Mensuel 74 Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, 1978, 26.

Camus, Albert:

- La Peste, Originale,1947.

Delort, Robert:

- De lort, Robert, La peste soit du rat, Mensuel 74, 1985 https://www.lhistoire.fr/la-peste-soit-du-rat

Palud, Aurélie :

- La peste de Camus, récit d'une épidémie littéraire, dans l'émission Les Chemins de la Philosophie, d'Adèle Vn Reeth, 2014 https://www.franceculture.fr/emissions/les-nouveaux-chemins-de-la-connaissance/epidemies-44-la-peste-de-camus-recit-dune-epidemie

الجوائح والأوبئة في مغرب ما قبل الحماية: أشكال المواجهة وطرق التدبير

Pandemics and Epidemics in Morocco before the Protectorate: Forms of confrontation and Modes of Management.

محمد الكرادي

Mohammed EL GRADDI

أستاذ التعليم العالي، جامعة ابن طفيل، القنيطرة/ المغرب

Ibn Tofail, Kenitra City / Morocco

الملخص:

يقدم البحث نظرة عامة عن مختلف الجوائح والأوبئة التي ضربت المغرب قبل دخول الحماية الفرنسية، بالتركيز على القرنين 18 و19م، متناولين بالتحليل مصدرها وبعض أماكن انتشارها، ومختلف التدابير المتخذة لمواجهتها، سواء من طرف العامة المدفوعة بالخوف من شدة فتك الوباء والجهل بآليات انتقاله، أو من طرف المخزن الراغب في الحد من انتشاره ودفع كل ما من شأنه زعزعة الاستقرار الاجتماعي والسياسي، أو من طرف القوى الامبريالية الأوروبية المتعطشة لاقتناص أي فرصة بهدف التسرب إلى البلاد وفرض الوصاية الصحية تمهيدا للوصاية السياسية. مع استعراض مختلف الأدبيات التي أنتجت زمن هذه الكوابح المالتوسية، والتي ألقت بظلالها على طرق الوقائية والعلاج وأشكال تقبلهما من المنظور الفقهي والشعبي.

الكلمات المفتاحية: الجوائح، الأوبئة، طرق التدبير، ردود الفعل، الكرنتينة.

Abstract:

The research provides an overview of the different pandemics and epidemics that affected Morocco before it came under French protection, focusing on the 18th and 19th centuries, analysing their source and some of the places of spread, and the different measures taken to deal with them, whether by the public motivated by fear of the severity of the epidemic and ignorance of its transmission mechanisms, or by the Makhzen party wishing to limit its spread and push anything that would destabilise social and political stability, or by the European imperialist powers thirsting to seize any opportunity in order to infiltrate the country and impose sanitary supervision with a view to political supervision. With a review of the different literatures that produced the era of these Malthusian brakes, which influenced the methods of prevention and treatment and the forms of their acceptance from the doctrinal and popular point of view.

Key words: Pandemics, epidemics, management methods, reactions, quarantine.

مقدمة:

لئن كان من الضروري أن نبرر لماذا يجد المؤرخ العربي نفسه اليوم مدعوا أكثر من أي وقت مضى إلى الانخراط في البحث عن تاريخ الجوائح والأوبئة وأثرهما على نمو الشعوب العربية وتطورها، فلأن الاهتمام بالرأسمال البشري ما يزال إلى يومنا هذا لم يُؤخذ بالجدية الكافية لتحقيق الإقلاع الاقتصادي ببلداننا، في وقت بدأت تحوم فيه جوائح جديدة تذكرنا بماض اعتقدنا واهمين برحيله دون عودة.

فقد دأب المغاربة -كباقي المجتمعات العربية- على معايشة ومنافحة سلسلة من الأوبئة والجوائح الدورية، واقفين أمام ضرباتها مشدوهين وعزلا، باستثناء اللجوء إلى بعض المؤسسات الصحية التقليدية، فاختلطت الممارسات العلمية بالطقوس الدينية، وشاع الاستنجاد بالطب الشعبي والصلحاء من ذوي الكرامات، في وقت رفض فيه البعض الآخر الإقرار بجدية العدوى. ومهما تكن ردود فعل المغاربة من هذه الجوائح، فقد حالت سلسلة الكوابح المالتوسية دون نموه الديموغرافي، وحكمت على هياكله بالثبات والركود طيلة قرون ممتدة. في وقت شهدت فيه أوروبا طفرة نوعية في سبل مواجهة مختلف الأمراض ابتداء من القرن 18م، وخاصة خلال القرن 19م، تزامنا مع الثورة الصناعية والتقنية والعلمية التي ما فتئت تغير مسار هذه القارة، وتهيئ لها السبل لبسط سيطرتها على بقية العالم.

لذلك ارتأينا التركيز في هذه المداخلة على التعريف بأهم الجوائح والأوبئة التي واجهها المغاربة خلال القرنين 18 و19م، أي قبل الاحتلال الأوروبي، بمستحدثاته وأطره، في محاولة لإماطة اللثام عن أشكال تدبير المغاربة لهذه الأزمات، ومدى نجاعتها، وكيف استطاعت الامبريالية الأوربية توظيفها ابتغاء تسهيل تغلغلها في البلاد، والتحكم في مقدرات العباد.

1- نظرة عن الجو ائح بالمغرب خلال القرنين 18 و19م

عرف المغرب خلال مختلف حقبه التاريخية أوبئة متنوعة المصدر ومتباينة الأعراض والخطورة، يمكن إجمالها في ثلاث فترات رئيسية؛ كان أولاها خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد، عقبتها ثلاث أمواج وبائية في القرن السابع عشر، واثنتين في القرن الثامن عشر، وثلاث في القرن التاسع عشر، مع تقطع أو امتداد داخل كل فترة، الشيء الذي وسع من رقعة انتشار الأوبئة، وجعل من مسألة ضبط عدد المصابين والضحايا أمرا في غاية التعقيد.

يصعب حصر جميع أنواع الأوبئة التي نغصت حياة المغاربة على مر التاريخ، لذلك يكتفي المؤرخون بالتركيز على بعضها دون سواها، إما لخطورة أعراضها أو لسهولة انتشارها وقوة فتكها، نذكر منها؛ الطاعون والزهري والجذري والكوليرا والتيفوئيد وغيرها الكثير من الأمراض

> [1]، التي أمعنت في تشويه ملامح المصابين وإذلالها، ناشرة بذلك جوا بئيسا قوامه الخوف والرعب من استشراء العدوى واستفحال الألم، حيث يمتزج أنين المرضى وابتهالاتهم ببخور بعض المتوسلين بالقوى الغيبية. الكل يناشد السماء لرفع الوباء وإيقاف البلاء، وإقفال المقابر الجماعية التي ما فتئت في الازدياد.
>
> لم يكن المغاربة -كباقي المجتمعات العربية- مصدر هذه الأوبئة ومنبعها، بل على العكس من ذلك تماما، فأغلبها كان زائرا غير مرحب به، قادما من أوروبا أو الشرق[2]، حال طاعون عام 1799م الوارد على يد بعض الحجاج، لينتشر بعد ذلك في مختلف بوادي ومدن المغرب انتشارا فظيعا، مخلفا 20000 قتيل في مدينة الرباط وحدها، وهو ما يمثل ثلثي مجموع ساكنتها آنذاك. كما تجمع الدراسات على كون الهند المُصدر الرئيسي لموجة الكوليرا التي

[1] Bernard Rosenberger et Hamid Triki, (1973), **Famines et épidémies au Maroc aux XVIe et XVIIe siècles**, in Hespéris :- Voir Tamuda, Vol. XIV, Fasc. Uniquen.

[2]- يفسِر ذلك التفاوت المجالي الحاصل في انتشار الأوبئة بالمغرب على مر التاريخ، إذ كانت المدن الأطلنتية ذات الموانئ المفتوحة الأكثر تضررا على الدوام، مقابل نجاة مناطق داخلية أخرى، لا سيما الجبال والواحات المعزولة، ما يؤكد على انتقال هذه الأوبئة من بلدان أخرى.

ضربت البلاد سنة 1834م، والتي أسفرت عن موت "خلق كثير وجم غفير" بحسب العبارة التي تناقلتها الكثير من النصوص التاريخية[1].

وقف مغاربة ما قبل الحماية مشدوهين أمام هذه الأوبئة المتواترة، عاجزين عن إدراك آليات زحفها ومراحل تطورها، وكذا سبل مكافحتها، وهو ما نستشفه من تعبير المفكر العربي المشرفي عن مرضى جائحة الكوليرا خلال القرن 19م، إذ يقول: "كان الموت موت بغتة وفجأة، كم من واحد مات فيه بالحيرة والدهشة، حيث يرى الإنسان أخاه يمشي صحيحا فيسقط ميتا، وقل من جاوز في تلك المدة أربعة وعشرين ساعة"[2].

تقدم لنا حيرة "العالم" المشرفي ودهشته أمام وباء الكوليرا صورة واضحة عن تمثل مغاربة القرن 19م القاصر لطبيعة الأمراض والأوبئة، ومحدودية فكرهم الباتولوجي مقارنة مع أطباء الضفة الشمالية للبحر الابيض المتوسط، خاصة إذا علمنا بمناداة فرنسا سنة 1834م، بتوحيد مقاييس الحجر الصحي، ومصادقة المجتمع الدولي على ذلك سنة 1851م أثناء المؤتمر الطبي العالمي الأول المنعقد بباريس[3].

وهكذا، عاثت الكائنات المجهرية فسادا في أجساد المغاربة، مستفيدة من توالي سنوات القحوط والمجاعات المنهكة، وكذا من ضعف الالتزام بشروط الوقاية وإجراءات الحجر (الكرنتينة)، بعدما استنكارها عدد من مؤرخي القرنين 18م م19م، باعتبارها بدعة لا يمكنها درء قضاء الله، ومن ذلك ما أورده مؤرخ الدولة العلوية "أبو القاسم الزياني" بعد منعه -رفقة عدد من الحجاج- من دخول ميناء تونس، وإجباره على قضاء حجر صحي بإحدى الجزر، مدة عشرين يوما، فكتب قائلا: "...أنزلونا بقلعة تيكي وسط البحر، بقصد بدعة الكرنطينة التي جعلوها دفعا للوباء قبح الله مبتدعها"[4]. وزاد المشرفي عن ذلك بقوله: "نعوذ بالله من هذا الاعتقاد فلا يموت ميت دون أجله"[5].

أما المؤرخ الناصري فقد أمعن في انتقاد الحجر إلى حد تحريمه شرعا، فكتب قائلا: "...الحاصل أن الكرنتينة اشتملت على مفاسد كل منها محقق، فتعين القول بحرمتها، وجلب النصوص الشاهدة لذلك من الشريعة لا تعوز البصير"[6]. وبالتالي لم يكن غريبا دخول وباء جديد أشد فتكا سنة 1842م من فصيلة بكتيريا التفوئيد، الذي أودى بحياة نصف المصابين بمدينة مراكش وحدها[7]، ودفع الساكنة إلى التوسل بكل ما من شأنه دفع هذا المرض والتخفيف من وطأته.

2- تعامل المغاربة مع الأوبئة

اشتهر مغاربة ما قبل الحماية بإعطاء أصول غيبية لكل مرض عارض، عبر إيعازه إلى قوى سحرية أو كائنات شيطانية تستوطن بعض المستنقعات والمسطحات المائية، كما ساد الاعتقاد بأذى عين الحسود والضرر الذي

---

[1]- محمد حبيدة، (2020)، **تاريخ الوباء من الطاعون الأسود إلى الكورورنا**، ضمن الحياة... في زمن الفيروس التاجي "كوفيد-19"، إشراف جمال الكركوري وأحمد الفرحان، الطبعة الأولى، منشورات جامعة ابن طفيل، مطابع رباط نت، ص. 20.

[2]- العربي المشرفي، **أقوال المطاعين في الطعن والطواعين**، مخطوط بالخزانة الحسنية، رقم 2154، ص. 4.

[3]- محمد حبيدة، مرجع سابق، ص 20.

[4]- أبو القاسم الزياني، (1991)، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا**، تحقيق وتعليق عبد الكريم الفيلالي، مطبعة فضالة، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، ص. 282.

[5]- أورده: محمد الأمين البزاز، (1992)، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 18، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، ص. 405.

[6]- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، (1997)، **الاستقصا**، الجزء 5، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ص. 185

[7]- محمد حبيدة، مرجع سابق، ص. 19.

يُلحقه أكل الطعام المسحور (التوكال)[1]، وهو ما أثر بشكل حاسم على طريقة تقبل المغاربة للمرض والمُمرضين، لتتبلور ثقافة صحية فريدة، قوامها الخوف من الطبيب وتجنب عيادته، عملا بالقول المأثور "اسأل المُجرب ولا تسأل الطبيب"، على الرغم من وجود أطباء محليين تجاوزت شهرتهم حدود البلاد، مخلفين تراثا علميا لم ينل حظه من الدراسة الكافية حتى الآن[2]. بالمقابل درج المغاربة على سلك دروب ممارسات علاجية بعيدة كل البعد عن المنظور العلمي، تنبني على الرقية والتعاويذ وغيرهما، فامتزج الطب مع السحر والكيمياء. وعن ذلك يقول الفرنسي فريش (Frisch) أواخر القرن 19م "لا يُمارس الطب في المغرب سوى من طرف فئة قليلة من المعالجين، ممن لهم دراية بالباتولوجيا وعلم العلاج، ولا يتوفرون سوى على معارف محدودة للغاية نابعة من تجربة، تعتمد على بعض النباتات التي يعرفون كيف يقدرون خصائصها، ويحسنون توظيفها بشكل نادر. أما علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء فغير معروفين البتة عندهم"[3].

من جهة أخرى شكلت أضرحة الأولياء أماكن يدلف إليها الناس طلبا لكشف ما قد يحيق بهم من الأمراض أو السحر أو العين، وما إلى ذلك من أنواع الضرر. إذ دأب المغاربة على تقديس الأولياء وإحسان الظن في قدراتهم، فيهرعون إلى أضرحتهم لدفع المكاره كلما نصحهم أحد الأقارب أو المجربين. كانت زيارة الولي تتم إلى ضريحه أو قبره أو إلى شجرة كان يتفيأ ظلها خلال حياته أو إلى عين كان يشرب منها[4] ... فاشتهرت تبعا لذلك العديد من الأضرحة؛ من قبيل "سيدي بن عاشر" بمدينة سلا، وضريح "سيدي علي بوغالب" المتخصص في علاج الدمامل، وضريح "مولاي إبراهيم" في منطقة الصويرة المعروف بعلاج المصابين بالسعار. كما تمت صياغة أدعية خاصة بكل وباء، حيث أوصى إبن هيدور بترديد نوع خاص من الدعاء عند نزول الطواعين، جاء بصيغة: "ياحي يا حليم يا حنان يا كريم"، مضيفا أنه تقليد سار عليه أهل المشرق، إذ ينقشون الدعاء على خاتم يضاف إليه ثمانية "حاءات"، على الشكل التالي:

---

[1]- بوجمعة رويان، (2013)، **الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912-1945**، مطابع الرباط نت، صص. 75-76.

[2]- نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

- عبد الوهاب بن أحمد أدراق، صاحب كتاب: **هز السمهري على من نفى عيب الجدري**؛

- عبد السلام العلمي، صاحب كتاب: **البدر المنير في علاج البواسير**؛

- أبو العباس احمد بن حمدون، صاحب كتاب: **الدرر الطبية المهداة للحضرة الحسنية**.

[3]- Frisch (R .J), (1895), **Le Maroc, géographie, organisation-politique**, Ernest Leroux, Paris, p 176.

[4]- بوجمعة رويان، مرجع سابق، ص. 91.

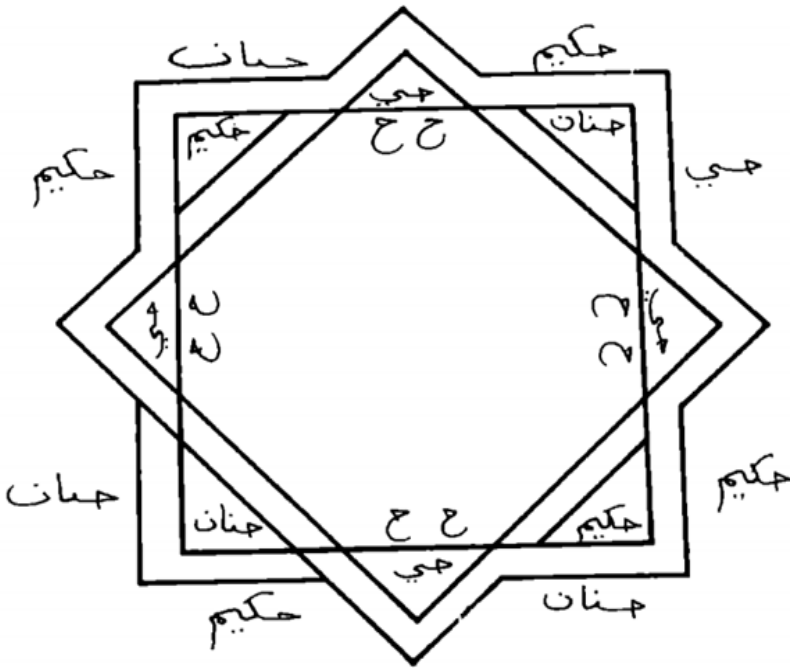

ثم يوصي المؤلف بأدعية أخرى، من قبيل "يا حليم يا حنان يا كريم اللهم اكفني شر هذا الريح وما جاء به بفضل بسم الله الرحمن الرحيم". وكذلك: "اللهم صل على سيدنا محمد صلاة تعصمنا من الأهوال والآفات وتطهرنا من السيئات". مؤكدا أن التجربة برهنت على فعالية هذا الدعاء الأخير، فيقول: "وقد أخبرني من أثق به أنه جربه في دفع الداء الوبال مرارا يكتبه في بطائق ويلصقه بحيطان الدار فأصاب جميع جيرانه إلا داره، وبالله التوفيق"[1].

كما شاع بين الناس تعليق التمائم (الحِجاب) والإيمان بقدرتها لدفع ما كان يعتري حياتهم من علل، وهي عبارة عن ورقة يخط بها "الفقيه" جداول أو أشكال هندسية تحمل طلاسم وآيات قرآنية وحروفا وأرقاما يصعب فهم دلالاتها، ثم تطوى الورقة بإحكام وتعلق على رقبة الشخص للعلاج أو الوقاية.

تباينت مواقف المغاربة من الأوبئة، ففي الوقت الذي رأى فيها الكثير من الناس عقابا سماويا جراء كثرة الفساد والمعاصي والمنكرات، دعا بعض الفقهاء إلى التسليم بالقضاء والقدر، بينما قال البعض الآخر بضرورة الأخذ بالأسباب امتثالا لتعاليم الإسلام، فشاع استعمال الأعشاب والنباتات البرية مثل "مربوت" وأوراق الصفصاف لعلاج الحمى، كما آمن البعض بقدرة "حب الرشاد" ومسحوق الكمون على علاج الزهري، هذا إضافة إلى استعمال الحشرات كالنمل والجراد والدود والصراير والعقارب وغيرها في علاج بعض الأمراض؛ ومن الأمثلة على ذلك، ما كان شائعا في منطقة زمور لطرد الحمى، إذ تُعلق دودة على عنق المريض، وتتكلف الرائحة الكريهة المنبعثة منها بكشف الضُر، بينما أحرق آخرون الصراصير ليستنشق المحموم دخانها[2].

لم تتوقف الطرق العلاجية لدى مغاربة ما قبل الحماية على هذا النحو، فكثيرا ما لجئوا إلى الحجامة باستفراغ ما تحت الجلد من دم، أو الفصد باستئصال الأورام أو استخلاص ما فيها من أخلاط، هذا إضافة إلى الكي عند مستوى البطن أو أعلى العنق، على الرغم مما يحمله هذا الإجراء من ألم. أما مرضى الجلد فقد دأبوا على عيادة

[1]- أورده: محمد الأمين البزاز، مرجع سابق، صص. 391-392.

[2]- بوجمعة رويان، مرجع سابق، صص. 95-96.

الحامات الساخنة، أشهرها حامة "مولاي عقوب" شمال غرب حاضرة فاس، بعدما تواتر الاعتقاد بقدراتها الفعالة في مداواة البثور والتقرحات الجلدية، بفضل درجة حرارتها التي تصل إلى 53 درجة، وملوحة مياهها التي تنبعث منها رائحة الكبريت والهيدروجين[1]، وعن ذلك كتب "جول إيركمان" (Jules Erckmann) أثناء زيارته للحامة أواخر القرن 19م قائلا: "إن لمولاي عقوب زاوية بنيت قرب عين حامية ذات فعالية كبيرة، وكان يرسل إليها بالجنود المصابين بالزهري، تحتوي العين على صهريجين، يمر الماء من صهريج الرجال ثم يتدفق لصهريج النساء"[2]. لكن اختلاط المصابين واجتماعهم في وسط مائي مليء بشتى أنواع الميكروبات والفيروسات يسر من سبل انتقال العدوى، وجعل من الحامة بؤرة وبائية تنهش بأجساد المصابين أكثر مما تلملم من جراحهم، أمام مرأى ومسمع القائمين على الجهاز المخزني.

3- تدبير المخزن للجوائح

تشير كلمة "المخزن" في العرف المغربي إلى الدولة بمختلف أجهزتها ورجالاتها، وهو مصطلح يحيل إلى فعل الادخار والاحتفاظ بالمال والطعام والذخيرة لزمن الحاجة[3]، ومن هنا ارتبط دور المخزن في المخيال الجمعي للمغاربة بكيفية تدبيره للأوبئة والكوارث العارضة.

وإذا كانت الروايات الأجنبية قد أمعنت في إظهار المخزن بمظهر المتقاعس عن القيام بأي دور اجتماعي، واعتباره جهازا قمعيا لا يهدف سوى إلى جمع الأموال واستنزاف السكان، دون القيام بأي دور اجتماعي، في مجال الأمن والصحة[4]، فإننا بالرجوع للمصادر المغربية، وكذلك لعدد من الدراسات الوطنية التي أنجزت حول وظائف المخزن وعلاقته بمختلف القبائل، نجد حضورا وازنا لأدواره الاجتماعية في حياة اليومية، خاصة زمن المسغبة، وذلك من خلال بناء الحمامات والبيمارستانات[5] لاستقبال المرضى ومعالجتهم. نذكر منها على السبيل المثال لا الحصر المارستان الجديد الذي بناه مولاي عبد الرحمان بن هشام سنة 1831م بمدينة سلا، وعنه يقول علي الدكالي: "هذا المارستان الرفيع، العام النفع والبركة... [يشمل] على بيوت... متصلة نحو الثلاثين بيتا، بين كبير وصغير، وبنى لهذا المارستان جامعا مربعا للصلاة وداري وضوء، لهما سقايتا ماء جار... إحداهما للرجال، والأخرى للنساء"[6]. لكن ومع تزايد الضغوط الاستعمارية على المغرب أواسط القرن 19م ستتراجع أدوار هذه المؤسسات، في وقت لم تتوقف فيه سلسلة الكوارث الطبيعية والوبائية، فاشتكت المارستانات من الإهمال وقلة التجهيز،

---

[1]- نفسه، ص. 87.

[2]- Jules Erckmann, (1885), **Le Maroc moderne**, Challamel Aine, Libraries colonial, Paris, p. 111.

[3]- Michaux-Bellaire (E), **Makhzen** , in Encyclopédie de l'Islam, 1er Edition, tome III, Leiden, Brill, pp. 131-132.

[4]- جرمان عياش، (1986)، **حول تكوين الشعب المغربي**، ضمن دراسات في تاريخ المغرب، الطبعة الأولى، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، صص. 322-323.

[5]- تعد البيمارستانات من المؤسسات الصحية القديمة في تاريخ المغرب، يرجع ذكرها إلى القرن الثاني عشر ميلادي، زمن يعقوب المنصور الموحدي.

عبد الواحد المراكشي، (1949)، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، ضبط وتصحيح محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، الطبعة 1، مطبعة الاستقامة، القاهرة، صص. 287-288.

[6]- محمد بن علي الدكالي، (1996)، **الاتحاف الوجيز- تاريخ العدوتين**، تحقيق مصطفى بوشعراء، الطبعة الثانية، منشورات الخزانة العلمية الصبيحية بسلا، المغرب، ص. 75.

وأضحى بعضها مطلع القرن العشرين بنايات لإيواء المرضى النفسانيين والمجانين، أكثر منها مؤسسات استشفائية، حال مارستان مراكش[1].

لم يقتصر دور المخزن على بناء المرافق الصحية فقط، بل حرص مختلف سلاطين المغرب على مواساة الضعفاء عبر توزيع الصدقات، وتخصيص الحارات للمجذومين وإيقاف الفنادق لإيواء المتسولين، حيث تجرى لهم الأرزاق، إضافة إلى تزويد الأسواق بالحبوب. وقد أورد الباحث محمد أمين البزاز أنه بالرغم من تآكل موارد المخزن وتقلص سلطته خلال القرن التاسع عشر فإنه لم يتخلى عن القيام بأدواره زمن الأزمات، ومن ذلك محاربة الاحتكار واستنهاض همم الفلاحين للحرث والزرع، وتسليفهم البذور والدواب اللازمة لخدمة الأرض، وتشجيعهم على مكافحه الجراد ماديا ومعنويا[2]، وهو ما يؤكده الباحث عكاشة برحاب في دراسته للمنطقة الشرقية، حيث أشار إلى مبادرة المخزن بإلغاء "العشور" إبان مجاعة 1898م، لكن هذا الاجراء لم يكن كافيا، فتمت مكاتبة حاجب السلطان "أحمد بن موسى" قصد المساعدة، فنفذ لهم 2000 مدٍ من الشعير[3].

موازاة مع ذلك، جاهدت أجهزة المخزن في سبيل منع تسرب الأوبئة إلى البلاد، عبر فرض الحجر في الموانئ على السفن القادمة من البلدان الموبوءة، إذ تحفل الخزانة المغربية بجملة من الرسائل السلطانية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، تهم إجراءات تطبيق "الكرنتينة" وإكراهات تنظيمها، نذكر منها على سبيل المثال رسالة السلطان محمد بن عبد الرحمن بن هشام إلى قائده بتطوان عبد القادر بن محمد أشعاش سنة 1283هـ/ 1856م، يمنعه فيها عن استيراد الملابس القديمة خيفة حملها للوباء[4].

4- الاستغلال الامبريالي للجوائح

تمت هذه التدابير المخزنية -في الغالب- تحت ضغط من "المجلس الصحي الدولي" المُؤسَس بمدينة طنجة في 28 أبريل 1840م، بإيعاز من الدول الأوروبية، التي قضت بضرورة وجود مؤسسة دولية يُعهد إليها بالسهر على مختلف جوانب حفظ الصحة بجميع المراسي المغربية، ومنحها حق اتخاذ الإجراءات القمينة باتقاء شر السفن القادمة من الجهات الموبوءة، دون التدخل في الشؤون الصحية الداخلية للبلاد. لكن وبالتدريج أخذ هذا المجلس يتجاوز صلاحياته واختصاصاته، ليتدخل بشكل سافر في شؤون البلاد الداخلية، من خلال إقدامه على محاصرة سفن الحجاج المغاربة في أكثر من مناسبة، بل ذهب الحال سنة 1856م إلى رفض السماح بتزويد إحدى سفن الحجيج بالمؤن الضرورية، مما كاد يعرض ركابها لموت محقق عرض البحر[5].

---

[1]- Lwoff et Serieux (Dr), **Les aliénés au Maroc, extrait du rapport de mission**, Masson et Cie, Paris, p 8.

[2]- محمد الأمين البزاز، مرجع سابق، صص. 379-380.

[3]- عكاشة برحاب، (1989)، **شمال المغرب الشرقي قبل الاحتلال الفرنسي 1873- 1907**، منشورات جامعة الحسن الثاني، سلسلة أطروحات ورسائل رقم 3، الدار البيضاء، صص. 278-279.

[4]- جاء في الرسالة السلطانية المؤرخة ب 1244 هجرية/ 1828م: "وبعد فقد طلب منا جميع القنصوات أن لا يدخل لمراسينا السعيدة ما كان من ثياب اللباس قديمة...وحوائج الفراش ...وغير ذلك مما يمكن أن يكون مكمونا فيه رائحة المرض، ويعود بالضرر ويكون مظنة ذل، فأجبناهم لما طلبوا، لأنهم أعرف بأمور دنياهم، وعليه فكل ما ورد من ذلك لا تقبلوه".

محمد الأمين البزاز، (2000)، المجلس الصحي الدولي في المغرب، 1792-1929، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص. 44.

[5]- زكي مبارك، (2010) **الطب الاستعماري من عمل إنساني إلى أداة للتسرب السلمي**، ضمن تاريخ الاستعمار والمقاومة بالبادية المغربية خلال القرن العشرين، تنسيق المحفوظ أسمهر، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الدراسات التاريخية والبيئية، سلسلة الندوات والمناظرات رقم 22، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ص. 11.

ومن التدخلات السافرة أيضا لهذا المجلس في شؤون البلاد الداخلية، نذكر تجرؤه من تلقاء نفسه، خلال ظهور وباء الكوليرا بمدينتي فاس ومكناس سنة 1878م، على ضرب حصار صحي صارم حول طنجة وبعض الموانئ المغربية الأخرى، ومنع الدخول إليها، ما دفع السلطان مولاي الحسن إلى إرسال وفود رسمية نحو المدينة، تحمل أمرا سلطانيا بضرورة إلغاء هذه التدابير، لكنها منعت من الدخول، وبالتالي لم تحظ رسائل السلطان الموجهة إلى المجلس الصحي بأي اعتبار[1].

دأب المجلس الصحي على التصرف في شؤون طنجة مستبدا برأيه وكأنه في مدينة مفتوحة، وقد توج هذا التدخل عام 1892م، لما انتزع من السلطان مولاي الحسن ثلاثة ظهائر جديدة كانت نقطة انعطاف أخرى في تنامي نفوذه، إذ خولت له حق ممارسة أنشطة جديدة شبيهة بالتي تمارسها اليوم المجالس البلدية. وبالتدريج تحولت المراقبة الصحية الدولية إلى وسيلة لانتهاك السيادة الوطنية، ودوس حقوق المخزن بعد مساسها بمجالات جد حساسة، وعلى رأسها مجال الحج[2]. مما دفع المولى عبد العزيز إلى التفكير في منع الحج سنة 1897، بعدما أيقن بظهور الطاعون في الهند، فأصدر نائبه بطنجة محمد الطريس، بعد استفتاء فقهاء فاس ومراكش، أوامره إلى كافة المدن بمنع رحلات الحج، ردا على تحرشات المجلس الصحي بالحجاج الوافدين.

أدى تزايد استقرار الجاليات الأوربية بالمدن المغربية خلال النصف الثاني من القرن 19م إلى تدخلها في جملة من الشؤون الصحية وكل ما يتعلق بأشغال الصيانة والنظافة، خاصة بعد انتشار وباء الكوليرا سنة 1878م. فعلى صعيد مدينة الدار البيضاء فقد نظم القناصلة والتجار الأوربيون حملة اكتتاب لتنظيف المدينة، مشكلين ما يشبه مجلس بلديا لتدارس الأوضاع الصحية وأشغال الصيانة والنظافة، وتقدموا مذكرة من 14 صفحة في الموضوع إلى قائد المدينة. إلا أن المخزن رفض موضوع المذكرة. لكن، وبفعل ضغوطات الهيئة القنصلية تم تنظيف الأزقة وترصيف بعضها. أما مدينة الصويرة فقد تدخل القناصل ليفرضوا على السلطات المحلية العناية بإصلاح مجاري المياه. وفي سنة 1890م فرض قناصلة مدينة الجديدة على حكامها حق مراقبة الميناء وتحركات وتنقلات الصيادين[3].

خاتمة:

لم تكن النوائب حدثا عارضا في تاريخ المغرب، إذ دأب مغاربة ما قبل الحماية على معايشة زمرة من الجوائح والأوبئة، مخلفة أدبيات غزيرة تفاوتت انتماءاتها ومواقف أصحابها، وثقافة شعبية حبلى بندبات زمن المسغبة، واقتصاد قائم على القلة والكفاف، وتطور ديموغرافي أشبه ما يكون بأسنان المنشار، سعى المخزن إلى إيقاف نزيفه من خلال تطبيق إجراءات شتى، لكنها لا تخلو من ارتجالية في التدبير، ومحدودية في النتائج. خاصة مع ركون عامة الناس بل وحتى فقهاءهم إلى حلول غير علمية، تكشف تمثلهم الغرائبي للوباء، وتفضح عجز العقل المغربي عن استيعاب ميكانيزمات انتقال الكائنات المجهرية. وهو ما استغلته الهيئات القنصلية والجاليات الأوروبية لإقحام نفسها في الشؤون الداخلية للمغرب، فتحولت من طرف مساعد إلى قوة تسعى إلى تقويض استقرار البلاد، تهيئه للاحتلال القادم، الذي تم تصويره في هيئة عمل إحساني يبتغي انتشال الساكنة المحلية

---

[1]- Tom I, Guilmoto, Paris, doc XLI. Nehlil (M), **Lettres chérifiennes**, (1915),

[2]- محمد الأمين البزاز، (2005) **المغرب وخونطة القناصل**، ضمن معلمة المغرب، الجزء 21، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، ص. 7226.

[3]- زكي مبارك، مرجع سابق، ص. 12.

مما تكابده وتعانيه. وهو ما يفسر إعجاب المقيم العام الفرنسي "ليوطي" غير ما مرة بالطبيب، فأحاطه بهالة من الإجلال والتقدير، ورأى في عمله وسيلة فعالة في نشر إشعاع الحضارة الفرنسية، وآلية لتمهيد البلاد وتطويعها.

قائمة المراجع:

- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (1997): الاستقصا، الجزء 5، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء .
- أبو القاسم الزياني (1991): الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا، تحقيق وتعليق عبد الكريم الفيلالي، مطبعة فضالة، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط .
- بوجمعة رويان (2013): الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912-1945، مطابع الرباط نت.
- جرمان عياش (1986): حول تكوين الشعب المغربي، ضمن دراسات في تاريخ المغرب، الطبعة الأولى، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.
- زكي مبارك (2010): الطب الاستعماري من عمل إنساني إلى أداة للتسرب السلمي، ضمن تاريخ الاستعمار والمقاومة بالبادية المغربية خلال القرن العشرين، تنسيق المحفوظ أسمهر، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الدراسات التاريخية والبيئية، سلسلة الندوات والمناظرات رقم 22، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط.
- عبد الواحد المراكشي (1949): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبط وتصحيح محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، الطبعة 1، مطبعة الاستقامة، القاهرة.
- العربي المشرفي، أقوال المطاعين في الطعن والطواعين، مخطوط بالخزانة الحسنية، رقم 2154.
- عكاشة برحاب (1989): شمال المغرب الشرقي قبل الاحتلال الفرنسي 1873- 1907، منشورات جامعة الحسن الثاني، سلسلة أطروحات ورسائل رقم 3، الدار البيضاء.
- محمد الأمين البزاز (1992): تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 18، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط.
- محمد الأمين البزاز (2000): المجلس الصحي الدولي في المغرب، 1792-1929، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء .
- محمد الأمين البزاز (2005): المغرب وخونطة القناصل، ضمن معلمة المغرب، الجزء 21، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا.
- محمد بن علي الدكالي (1996): الاتحاف الوجيز- تاريخ العدوتين، تحقيق مصطفى بوشعراء، الطبعة الثانية، منشورات الخزانة العلمية الصبيحية بسلا، المغرب.
- محمد حبيدة (2020): تاريخ الوباء من الطاعون الأسود إلى الكورورنا، ضمن الحياة... في زمن الفيروس التاجي "كوفيد-19"، إشراف جمال الكركوري وأحمد الفرحان، الطبعة الأولى، منشورات جامعة ابن طفيل، مطابع رباط نت.
- Bernard Rosenberger et Hamid Triki, (1973), Famines et épidémies au Maroc aux XVIe et XVIIe siècles, in Hespéris Tamuda, Vol. XIV, Fasc. Uniquen.

- Frisch (R .J) , (1895), Le Maroc, géographie, organisation-politique, Ernest Leroux, Paris, p 176.
- Jules Erckmann, (1885), Le Maroc moderne, Challamel Aine, Libraries colonial, Paris.
- Lwoff et Serieux (Dr), Les aliénés au Maroc, extrait du rapport de mission, Masson et Cie, Paris.
- Michaux-Bellaire (E), Makhzen , in Encyclopédie de l'Islam, 1er Edition, tome III, Leiden, Brill.
- Nehlil (M), Lettres chérifiennes, (1915), Tom I, Guilmoto, Paris.

المجاعة الكبرى في لبنان خلال الحرب العالمية الاولى 1918-1915

The Great Famine in Lebanon during World War I 1915-1918

الدكتورة هيفاء سليمان الامام

Dr. Hayfa Suleiman Al Imam

رئيسة تحرير مجلة وميض الفكر للبحوث العلمية المحكمة

وأستاذة الحضارة العربية الإسلامية في الجامعة اللبنانية الدولية/البقاع/لبنان

Editor-in-chief of Wameed Al-Fikr Journal for Refereed Scientific Researches

Professor of Arab-Islamic Civilization at the Lebanese International University/Beqaa/Lebanon

h_imamomais@hotmail.com

ملخص:

تحدثت في هذه الدراسة عن المجاعة الكبرى في لبنان بعد الحرب العالمية الاولى، وقد تم عرض وتحليل أسبابها وكيفية مواجهتها. فكانت عبارة عن وصف لما مرّ به لبنان منذ مئة عام، والمريب هنا، أنّنا لم نتعلم من تاريخنا، فالظُروف عينها عاودت لتطرق بابنا، الويلات نفسها، حتّى الوجوه هي نفسها.. فالمجاعة الكبرى التي حصلت في لبنان بين 1915-1918 هي نفسها ما يتكرر اليوم على لبنان 2021 والاسباب مشابهة الى حد بعيد والخوف الخوف أن تتشابه النتائج، فعلى سبيل المثال كان وما زال الموقع الجغرافي للبنان من اهم العوامل المقلقة في المنطقة، كذلك الحصار البحري والحصار البري حيث قانون قيصر المفروض الأن على سوريا من قبل إدارة ترامب الأميركية، ومن ثم سوء ادارة الدولة وفساد المسؤولين، وأضف إلى ذلك فايروس كورونا المشابه لموجات الجراد سابقا وأخيراً انهيار العملة بشكل غير منطقي. كما وتحدث هذا البحث عن التأثر والتأثير الثقافي والفني للمجاعة على اللبنانيين وخصصت الكلام عن اهزوجة شعبية هي اغنية (الروزانا) والتي تشير الى الحالة المخزية والمحزنة التي كانت مسيطرة على الشعب اللبناني في ذلك الوقت.

الكلمات المفتاحية: المجاعة الكبرى - لبنان- الحرب العلمية الأولى-الحصار- الدولة العثمانية- "الحلفاء"-موجات الجراد.

Abstract:

In this study, I have talked about great famine in Lebanon after World War I and, its causes and the way to confront it have been exposed and analyzed.

The present is considered as a description to what Lebanon has faced since 100 years, and what is suspicious here is that we haven't learned from our history. The same circumstances are knocking our door again, the same scourges, even the faces are the same...The great famine that has occurred in Lebanon between 1915 and 1918, recues nowadays in Lebanon 2021 and the reasons are similar but the fear is that the results would be the similar. For example, Lebanon's geographical location is one of the most important disturbing factors in the region, sea and land blockage of Caesar Syria Civilian Protection Act by the American Trump's administrative, the mismanagement of the State, the official corruption, Corona Virus that is similar to the previously locust waves and at last the illogical collapse of the currency. Furthermore, this research talked about being culturally affected by the famine and its cultural influence on the Lebanese. I have also allocated the talk about a folk song (El Rozana) indicating the shameful and sad situation that has took over the Lebanese people at the time

Key words: Great Famine – Lebanon – World War I – blockage – Ottoman Empire – allies - locust waves.

المقدمة

كل مئة عام مكتوب على لبنان أن يعيش الويلات والمصائب عينها. ففي هذا العام لاحت في الأُفق فصول المجاعة التي أدّت قبل قرن من الزمن الى هلاك أكثر من ثلث سكّانه، نتيجة حصار مزدوج (بحري وبرّي) فرضه العثمانيون من البر وقوات التحالف الغربي (فرنسا وبريطانيا) من البحر خلال الحرب العالميّة الأولى، وذلك باستعمالهم استراتيجية التجويع ليسهل التطويع -كما يحصل اليوم من قبل نفس التحالف اضف اليه امريكا واسرائيل-، وبفعل جشع التجار واحتكارهم، وبسبب اجتياح الجراد الذي قضى على الأخضر واليابس، وتفشّي الأوبئة والأمراض في الشّوارع والأزقّة التي امتلأت بجثث الرّاقدين. تنوّعت أسباب المجاعة يومها، بين العوامل السّياسيّة والطّبيعيّة والاجتماعيّة، إلا أنّ النّتيجة كانت واحدة: جوع وألم وموت!

من هنا كانت اشكالية هذه الورقة البحثية لتسأل: ما هي المجاعة الكبرى التي حدثت في لبنان منذ قرن من الزمن؟ ما هي اسبابها ونتائجها؟ هل من تشابه بين الأمس واليوم ؟

وتأتي اهمية دراسة المجاعة في لبنان اثناء الحرب العالمية الأولى، من اجل القيام بالمقارنة بعد 100 عام على تكرر السيناريو نفسه في لبنان في ما يشبه الحرب العالمية الثالثة على كل المنطقة العربية.

و تهدف هذه الدراسة تسليط الضوء على اهم اسباب المجاعة الكبرى التي اجتاحت لبنان اثناء الحرب العالمية الاولى، حيث تعمل على استحضار الماضي القاسي لتجنب تكرار مآسيه اليوم .

اما **المنهجية**: فقد استعملت المنهج التاريخي التحليلي المقارن بين الأحداث التاريخية الهامة التي مر بها لبنان خلال المجاعة الكبرى.

وقد قسمت هذا البحث الى ثلاثة مطالب وخاتمة، ففي **المطلب الأول**: تحدثت عن الفترة التاريخية للمجاعة الكبرى حيث ترافقت مع اضطرابات عالمية وتصارع قوى عالمية على منطقتنا.

اما **المطلب الثاني** فقد خصصته لعرض وتحليل اسباب المجاعة الكبرى وكيفية مواجهتها.

وفي **المطلب الثالث** تحدثت عن التأثر والتأثير الثقافي والفني للمجاعة على اللبنانيين وخصصت الكلام عن اهزوجة شعبية هي اغنية (الروزانا) والتي تشير الى الحالة المخزية والمحزنة التي كانت مسيطرة على الشعب اللبناني في ذلك الوقت.

المطلب الأول: تأسيس لبنان الكبيروالمجاعة الكبرى:

تحدث المؤرخ عبد الرؤوف سنو في مقال نشر له في جريدة اللواء عن رسائل علنية ارسلها المؤرّخ الدكتور حسان حلّاق، في 6 تشرين الأول 2017، إلى الرؤساء الثلاثة، عون وبرّي والحريري، يرفض فيها الاحتفالية المئوية للبنان الكبير التي ستجري العام 2020، معتبرًا أنّ الدولة الوليدة كانت صنيعة دولةٍ استعمارية هي فرنسا، وكيانًا مرفوضًا من قبل المسلمين. وقد شدّد حلاق على أنّ ولادة لبنان حدثت يوم استقلاله العام 1943، بمعنى أنَّ "لبنان الكبير" وتاريخه تحت الانتداب الفرنسي غير شرعي، لأن أحدًا لم يأخذ برأي سكانه المسلمين الرافضين لكيان مسيحي يحصل على دعم دولة استعمارية.

وبعد شهور قليلة من تصريح حلّاق، صدرت الطبعة الخامسة لكتاب الدكتور لويس صليبا بعنوان: "لبنان الكبير... أم لبنان خطأ تاريخي" ! ، الذي حدّدَ المؤلف فيه هذا الخطأ بتوسيع حدود متصرّفية جبل لبنان إلى ما وراء المناطق المسيحية، وادخالِ مسلمين ومناطق إسلامية (بيروت ومدن ساحلية أخرى: صيدا وطرابلس،

والبقاع، والأقضية الأربعة) ضمن الدولةِ الجديدة. فخسر المسيحيون الموارنة، بذلك، سيادتهم الديموغرافية السابقة في الجبل التي كانت قد بلغت 58% من مجموع السكان؛ لكن معظمهم اعتبر أنّ الدولة الجديدة تحقّق أمانيهم القومية، بينما رأى المسلمون الملحقون بلبنان الكبير أنّها تنتزعهم من فضائهم العربي – الإسلامي الأوسع، وتحوّلهم إلى أقلية كباقي الأقليات. فنشأ منذ ذلك الحين صراع بين مشروعين وهويتين (سنو: جريدة اللواء،2019).

وهنا لا بد من التوقف عند بعض المحطات التاريخية المسببة لبداية كوارث لبنان والمستمرة حتى الان.

في الحرب العالمية الأولى في 28 أكتوبر 1914 انضمت الدولة العثمانية إلى القوى المركزية بقيادة المانيا. وقد خصصت الحكومة العثمانية جميع خدمات السكك الحديدية التابعة للإمبراطورية للاستخدام العسكري، مما أدى إلى تعطيل وصول المحاصيل إلى أجزاء من الإمبراطورية. كانت بيروت من أولى المدن التي تضررت من نقص الحبوب.

في 13 نوفمبر عام 1914، أي بعد أسبوعين فقط من انضمام الإمبراطورية العثمانية إلى الحرب العالمية الأولى، اقتحمت مجموعة من المواطنين بلدية بيروت لتحذير مجلس البلدية من النقص الحاد في القمح والدقيق في المدينة. ولم تعد عربات القطارات تنقل الحبوب بانتظام من حلب وكانت رفوف المخابز فارغة. قام الجمهور الثائر بنهب المخابز من المخزون الاحتياطي من الدقيق والحبوب التي تركوها. أرسل مجلس البلدية رسالة إلى والي بيروت، **بكير سامي كوندوه** الذي قام بدوره بطلب المؤن من حاكم حلب وحث السلطات العثمانية أيضًا على إعطاء أولوية شحن الحبوب إلى بيروت. كان الحصول على عربات القطارات لنقل أي شيء إلى ولاية بيروت أمرًا مستحيلاً، دون دفع رشاوى كبيرة للقادة العسكريين وسلطات السكك الحديدية. بدأت أسعار الحبوب في الارتفاع، مما دفع رئيس بلدية بيروت، **أحمد مختار** إلى حل مشكلة نقص الحبوب بنفسه.

في 14 نوفمبر عام 1914، أقلع أحمد مختار إلى حلب، حيث قام بالتفاوض مع السلطات وقام بتأمين عربات شحن الحبوب من الجيش الرابع العثماني. تم دفع ثمن القمح من خزينة البلدية. وصلت شحنات الحبوب إلى بيروت في 19 نوفمبر 1914 لإغاثة الجماهير. ومع ذلك، استمرت الأزمة في التفاقم وازدادت قسوتها مع اندلاع الحرب.

وهنا يُحدثنا جبران خليل جبران في كتابه (العواصف) عن مجاعة لبنان فيقول في قصيدته "مات أهلي": "لم يمت أهلي متمردين، ولا هلكوا محاربين، ولا زعزع الزلزال بلادهم فانقرضوا مستسلمين. مات أهلي على الصّليب. ماتوا صامتين لأن آذان البشريّة قد أغلقت دون صراخهم، ماتوا لأنهم لم يحبوا أعداءهم كالجبناء ولم يكرهوا محبّيهم، ماتوا لأنهم لم يكونوا مجرمين، ماتوا لأنهم لم يظلموا الظالمين، ماتوا لأنهم كانوا مسالمين، ماتوا جوعاً في الأرض التي تدرّ عسلاً. ماتوا لأن أبناء الأفاعي التهموا كل ما في حقولهم من المواشي وما في أحراجهم من الأقوات"(جبران، 1997، ص:84).

ولكي نكون منصفين ، لا بد من الذكر بأن هذه الكارثة لم تلحق الأذى بالنسبة نفسها بمكوّنات المجتمع كافة في البلاد. لكن كيف يمكن للمجاعة في بلدٍ يعتمد بشكلٍ أساسي على الزراعة أن تكون انتقائيّة إلى هذا الحدّ وتصيب المسيحيين وتعفي عن الدروز الذين يشكّلون المكوّن السكاني الأساسي الآخر في جبل لبنان؟ قد تفسّر لنا مقالة لسمير صيقلي تستند إلى مقارنة بين جماعتين متجاورتين(Seïkali, 1981, pp. 399-406)، عرب فلسطين ويهودها بين عامي ١٩١٤ - ١٩١٨، هذه المشكلة باستعمال مصطلح «الحظوظ غير المتكافئة» لوصف المصير المختلف لكلٍ من هاتين الجماعتين المتجاورتين، فبالنسبة إلى الكاتب المذكور، لا شكّ في أنّ الجميع قد عانى من تداعيات الحرب في الأراضي المقدّسة، إلا أنّ وضع العرب كان مؤسفاً ومحزناً أكثر بكثير من وضع اليهود.

في مساحة جغرافيّة محدّدة وضيّقة حتى، قد تعاني مجموعاتٌ دينيّة و إثنيّة بشكلٍ مختلف، وبدرجاتٍ متفاوتة، تأثيرات الظاهرة نفسها. كذلك، قد يُفسَّر المصير المختلف للدروز والمسيحيين في جبل لبنان بفعل أنّ الدروز الذين كانوا يفتقرون إلى سبل العيش، لجأوا إلى إخوانهم ممن يعتنقون الديانة نفسها في منطقة حوران الخصبة، وهو سبيلٌ للخلاص ما كان المسيحيون يستطيعون الاستفادة منه(حتي: 1959، ص:484).

ولأن لا شيء يوحد الشعب اللبناني مثل هول المصائب ، تساهم مقارنة أجريت بين وضع جبل لبنان ووضع جبل عامل، ذي الأكثريّة الشيعيّة والذي لا تشمله منطقة الحصار الغذائي الذي فرضه جمال باشا، في توضيح الصورة إلى حدٍّ كبير: حيث يرثي كاتبٌ شيعي، هو الشيخ علي الزين، بعض الأشخاص الذين ماتوا نتيجة سوء التغذية في قريته جب شيت(الزين، 1981، ص: 22)، في حين يتحدّث سمعان خازن عن مقبرة جماعيّة في زغرتا، قرية مارونيّة، حيث دُفن ثلاثة آلاف وثمانمائة شخص ممن ماتوا جوعاً(خازن،1938، ص: 264).

وخلال الفترة نفسها، قيل إنّ التجمّع المسيحي في البترون قد تراجع من خمسة آلاف شخص إلى ألفي شخص(حتي،1959، ص: 486)، في حين أنّ عدد سكان حصرايل، وهي قرية مارونية، لم يكن يتجاوز في نهاية الحرب الستين شخصاً، إذ إنّها خسرت مئة وعشرين شخصاً نتيجة المجاعة(الحلو،1978، ص:1) . مرّة أخرى، عانت المناطق كلها من المجاعة ضمن حدود جبل لبنان، كما في المناطق الخارجة عن نطاقه أو المجاورة له(شديد،2001،ص: 28-30). لكن ثمة فرقاً بين عدم الأكل حتى الشبع كل يوم والمعاناة من سوء التغذية، وبين الموت جوعاً بالعشرات (شيلشر، ص: 229-230) وتكبّد خسارة مئتي ألف شخص في جبل لبنان الذي كان عدد سكانه يراوح في تلك الحقبة بين 414 ألفاً و496 ألف نسمة(Noujaim, 1919, p. 71).

فلبنان الذي تأسّس العام 1920، في سياق التسويات لولادة نظام إقليمي جديد كنتيجة للحرب العالمية الأولى وانهيار الدولة العثمانية، لم يعرف الاستقرار والسلم الأهلي ولا السيادة الكاملة، على مدى قرن كامل، بسبب نظامه الطائفي السياسي وطائفيته المجتمعية، وتبعيّة طوائفه الخارج، وبالتالي عدم تحوّله إلى وطن حقيقي؛ فينتظره مستقبل خطير قاتم. إشارة إلى أنَّ العرض سوف يتلازم مع المؤشّر البياني لتبيان التذبذب الشديد والخطير وعدم الاستقرار في مسار لبنان حتى الوقت الراهن(سنو، جريدة اللواء:2019) .

و" لبنان الصغير" لا يمكنه أنْ يعيش من دون ضمّ السهل والمنافذ البحرية الحيوية إليه، وهو حاجة اقتصادية حيوية تكرّرت المطالبة بها منذ إنشاء المتصرّفية، خصوصًا بسبب هِجرة اللبنانيين المتواصلة، ومعاناة المقيمين منهم المجاعة خلال الحرب العالمية الأولى؟ ألا يتحمّل النظام الطائفي السياسي الذي يتغذّى من الطائفية المجتمعية أو يغذّيها ويجري التعايش في ظلّه، مسؤولية الاختلاف و الاحتراب، وما آلت إليه الأوضاع وعدم تماسك "لبنان الكبير" لكي يكون، عن جدارةٍ وطنًا لجميع أبنائه، وفق نظام جديد غير طائفي؛ فيرتفع بذلك مؤشّر الاستقرار والسلم الأهلي إلى أعلى درجاته؟(سنو، جريدة اللواء، 2019) .

اما الأن في وقتنا الحاضر فلسان حال اللبنانيين يقول: "سنموت جوعاً قبل أن يقتلنا فيروس كورونا"... انها صرخة أطلقتها سيدة ثمانينيّة شاركت في تحرك معارض في طرابلس، حال هذه المرأة لا يختلف عن مئات المحتجين الذين ملأوا شوارع بيروت، وطرابلس، وصيدا، وسواها من المدن اللبنانية، مطالبين برغيف خبز يسدّ جوع أبنائهم.

المطلب الثاني: اسباب المجاعة الكبرى وكيفية مواجهتها

بعد الانفجار المفجع والدامي في مرفأ بيروت في 4 أغسطس/آب 2020، تردّدت عناوين في الصحف أو جمل على ألسنة الناس على غرار: "بيروت تشبه حلب في 2016"، وأنّ بيروت، مثل حلب، باتت أبنيتها ركامًا،

وشوارع فارغة مثل نفق مهجور. أصبحت المدينة مجرّد لمحة شبح لما كانت عليه. ومع قانون قيصر الذي فرضته أمريكا برئاسة ترامب على سوريا والمقاومة وتأثيراته على الكبيرة لبنان وشعبه يأتي السؤال حاضراً وبقوة هل سيعود لبنان الى المجاعة الكبرى التي مرت على تاريخه في بدايات القرن الماضي؟

لم أتناول هذا الموضوع لأقارن بين أين كنّا منذ قرن وما وصلنا إليه اليوم انما تناولته لأخذ العبر لان لعلم بالخطر يفيد في تجنبه.

وهذه السّطور لم تؤخذ من صحف اليوم التي تروي واقعنا الحالي، بل هي وصف لما مرّ به لبنان منذ مئة عام. المريب أنّنا لم نتعلم من تاريخنا، فالظُروف عينها عاودت لتطرق بابنا، الويلات نفسها، حتّى الوجوه هي نفسها. فالمجاعة الكبرى التي حصلت في لبنان بين 1915-1918 هي نفسها ما يتكرر اليوم على لبنان والاسباب مشابهة الى حد بعيد والخوف ان تتشابه النتائج.

ولفهم ما يحصل الأن، لا بد من ذكر اهم اسباب الكارثة الإنسانية التي حلت باللبنانيين اثناء الحرب العالمية الأولى والتي تعد وصمة عار على جبين الانسانية:

أولا الموقع الجغرافي للبنان والحرب العالمية الاولى:

مما لا شك فيه أن لبنان وبسبب موقعه الجغرافي (جبل لبنان) عانى ويلات الحرب الكونيّة وأهوالها الكثيرة، بين عامي 1914 و1918، إذ سُدّت طريق الاستيراد، فقلت البضائع وخلت الأسواق من ضروريات الحياة، وارتفعت الأسعار ارتفاعاً جنونياً وانهارت العملة، وبرز شبح المجاعة المخيف ليزيد الطّين بلّة، فكانت البأساء والضراء شاغل النّاس وعنوان أيامهم، وطالت معظم المدن والقرى اللبنانيّة.

وكانت منطقة جبل لبنان الأكثر تضررا بفعل المجاعة، حيث كانت كيانا مستقلا، "متصرفية جبل لبنان"، في ظل الحكم العثماني، وكان تعداد سكانها يبلغ 450 ألف نسمة، وقد شكلت نواة الجمهورية اللبنانية التي أبصرت النوربصيغتها الحالية عام 1920. وكانت هذه المجاعة احد الأسباب غير المباشرة لضم مناطق زراعية إليه، مثل سهل البقاع وسهل عكارحتى تتمكن جمهورية لبنان الناشئة من الاستمراروالبقاء.

فالدّولة العثمانيّة كانت تعيش الاحتضار، الحرب العالمية الأولى جاءت لتزيد ويلاتها، وكان سكّان لبنان على آخر رمق، الدّماء تملأ الشّوارع، الدّول تتطاحن، المدافع تقذف نار كراتها، النّفوس تتألم، الجوع ضرب أطنابه في ربوعنا، المطامع تفعل فعلها، الناس في جزع وخوف، اليأس يتسلل إلى القلوب، الموت البغيض يفتك بالسّكان واحد تلو الآخر؛ إذ ذاك مَلكَ مشاعر الناس همّ واحد هو تأمين الإعاشة، حتى تضاءلت لديهم سائر همومهم وهذا ما كان وما زال الان هو المطلوب.

كما هي الحال دائماً، لكل طائفة روايتها الخاصة للحدث نفسه. فلكل مجموعة وجهة نظرها الخاصة وخطابها الذي ينبغي أن تحافظ عليه. ألا تصبح بالتالي كل واحدة غير مبالية بخطاب الأخرى وتصمّ آذانها عنه؟ فالخطاب المسيحي في العشرينيات، كان يتميّز عن خطاب الطوائف الأخرى بإصراره على التطرق إلى مسألة المجاعة؛ وبذلك أصبحت موضوعاً لا يمكن تخطّيه. ومما لا شك فيه أنّ الأطراف كلها توافق على القول إنّ جبل لبنان عانى أشدّ معاناة من المجاعة بين عامي ١٩١٤ و١٩١٨، على الرغم من أنّ بعض الأصوات ارتفعت وما زالت ترتفع لتبرئة الأتراك من تهمة ارتكاب جريمة متعمّدة بحق المسيحيين في لبنان أو للتشكيك في حجم الكارثة(البعيني،2001،ص: 43، و49، و59، و81، و249-250) . غير أنّ التصوّرات الجماعيّة اعتبرت هذه المجاعة المدمِّرة مسألة مسيحيّة بحتة؛ فقد شكّلت موضوعاً رئيسياً في الخطاب الماروني بشكلٍ خاص في أعقاب الحرب العظمى، قبل أن نغرق في غياهب النسيان، في حين لم تمنح الطوائف الأخرى هذه المسألة «الأولويّة» نفسها كالطائفة المسيحيّة الشريكة.

وفي خضمّ هذا النزاع العالمي، تمثّل السؤال المطروح في معرفة ما إذا كان القرار بفرض حصارٍ غذائي يهدف إلى تصفية المسيحيين بدون الاضطرار إلى تحمّل المسؤولية عن المجازر وسفك الدماء.

فمنذ عام ١٩١٦، اتُهِمَت السلطات التركية بتجويع اللبنانيين من أجل إخضاعهم. كذلك، لم تتوانَ صحف الحلفاء، لاسيما الفرنسية(حرفوش،1934، ص: 555) منها، عن التشديد على مسؤولية جمال عن ذلك، مما دفع هذا الأخير إلى مطالبة السلطات الدينيّة المارونيّة برسائل إنكار رسميّة(حرفوش،1934، ص: 553-559) وقد استدعى جمال أحد الأساقفة وسأله إن كان يُعتبَر مسؤولاً عن غزوات الجراد عام ١٩١٥، أو عن الجفاف عام ١٩١٦ لتتهمه الصحافة الفرنسيّة بتجويع المسيحيين(خوري،1922،ص: 1-2) . وبذلك تبلور السؤال في مرحلة مبكرة جداً كالتالي: هل ينبع الحصار من رغبة جمال باشا المتعمّدة في تجويع المسيحيين؟

لم يستطع المستشارون وصحافة الحلفاء إلا استغلال كلامٍ غير موثوق نُسبَ إلى أنور باشا أثناء مروره بسورية في شباط/ فبراير عام ١٩١٦، ومفاده: «ينبغي تنظيف الإمبراطورية من الأرمن واللبنانيين. قضينا على الأرمن بحد السيف، وسندمّر اللبنانيين من خلال المجاعة(Briand, 1983, p. 205)» وقد ردّد جبران خليل جبران، الذي يقيم في الولايات المتحدة، صدى هذه الإشاعة إذ إنّه كتب إلى ماري هاسكل ما يلي:

"أبناء شعبي، أبناء جبل لبنان، يموتون من خلال مجاعة دبّرتها الحكومة التركيّة. قضى ٨٠ ألف شخص حتى الآن. ويموت الآلاف كل يوم. الأشياء نفسها التي حدثت في أرمينيا تحدث في سورية. وبما أنّ جبل لبنان منطقة مسيحيّة، فهي تعاني أشد معاناة "(جبران، 1997، ص: 189-196)، فضلاً عن ذلك، يؤكّد كلام البطريرك الحويّك في مؤتمر السلام في تشرين الأول/ أكتوبر عام 1919 أنّ المجاعة كانت «مدبّرة من قبل العدو « وهذا ما سيثبته إدمون ربّاط بقوله: «إنّ مجاعة منشودة، منفَّذة بشكلٍ منهجي، عزلَت بيروت ولبنان، المنطقتين اللتين تحوم الشبهات حولهما أكثر من غيرهما، عن باقي سورية، فأهلكت ثلث السكان وهجّرت قرى بأكملها. «ولا يتوانى جورج أنطونيوس عن توريط جمال باشا ذي النوايا الخبيثة بالقول: «هنا يكمن دافع متعمّد ألا وهو الثأر« ولا بد من الإشارة إلى أنّ الكتّاب المسيحيين وحدهم، حتى وإن لم يكونوا دائماً في الخندق السياسي نفسه، هم الذين اتهموا العثمانيين بالتخطيط لهذه المجاعة، في حين أنّه، بشكلٍ عام، الكتّاب من الطوائف الأخرى هم الذين سعوا منذ البداية إلى تبرئة الأتراك أو التخفيف من مسؤوليتهم.

ولعل ما يثير الدهشة أكثر أنّ البطريرك الماروني إلياس الحويّك لجأ بشكلٍ كبير في المذكّرة التي رفعها إلى مؤتمر السلام في تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩١٩، إلى حجّة المجاعة المدمّرة في دفاعه عن جبل لبنان موسّع؛ إذ إنّ ضم أراضي البقاع الخصبة من شأنه تأمين الحاجات الغذائية للبلاد وحمايتها من البؤس

كذلك من المثير للاهتمام التوقف عند تاريخ جبل عامل، فهي منطقة شيعيّة متاخمة لجبل لبنان كما ذُكِر آنفاً. فمعظم الكتّاب في هذه المنطقة الذين تطرقوا إلى الويلات التي سببتها المجاعة العامة، عالجوا هذه المشكلة باعتبارها من مخلّفات المجاعة أو ضرراً جانبياً ناجماً عنها(الصفا، 1981، ص: 202) ويُعتبَر كلام الشيخ علي الزين مميزاً: فهو يسهب في الحديث عن جو التآمر، والوشاية، والرعب في عهد جمال، ولا يأتي أبداً على ذكر المجاعة في كتابه البارز عن هذه الحقبة، ولم يعترف إلا في حديثٍ لاحق بأنّ بعض الأشخاص في قريته جب شيت ماتوا جوعاً(الزين، ص: 27) لكن رواية الشيخ سليمان ضاهر للأحداث هي الأقرب نوعاً ما إلى الخطاب المسيحي؛ فالكاتب يعطي الأحداث حجمها، و يأسف على ضحايا المجاعة، ويحمّل السلطات التركية مسؤولية هذا البؤس لأنّها منعت التداول الحر للمواد الغذائيّة.

ثانياً الحصار البري وسوء الادارة العثمانية:

في واقع الأمر، أنّ السّلطات العثمانيّة، دأبت طِوال قرون حُكمِها للبلاد على بثّ الفتنة والنّعرات الطّائفيّة بين أبناء الشّعب الواحد – كما تفعل الان في سوريا-حتّى ترسّخ وجودها وهيمنتها انطلاقاً من مبدأ "فرّق تسد"، قد أغضبها قرار اللبنانيين التوحّد والتّعالي عن مشاكلهم وانقساماتهم بُغية مواجهتها، وصنّفتهم على أنّهم خونة وأعداء الأناضول يومها، توحّد اللبنانيون حول راية واحدة، تناسوا خلافاتهم الدّاخليّة في المتصرفيّة، وطالبوا بتحييد لبنان وإعتاقه من حرب المحاور التّي ما أتت عليه إلّا بالويلات والمصائب. وهذا طرح يتكرر الان بسبب الدعم الغربي لبعض اللبنانيين لسلخه عن محيطه وعن قضاياه ليسهل السيطرة من خلاله على المنطقة.

من هنا فرض جمال باشا (قائد الجيش الرابع للإمبراطورية العثمانية في منطقة سوريا)، حصارا على لبنان، حيث تم منع دخول المحاصيل إلى جبل لبنان من المناطق السورية المجاورة. بهذا العمل أراد العثمانيون استنفاد الإنتاج المحلي بالكامل، وقد حصل ذلك في وقت قطعت فيه جميع خطوط الإمداد في المنطقة، إلا إذا كانت تُستخدم للأغراض العسكرية العثمانية.

ثالثاً: الحصار البحري:

أدى التحالف العثماني مع القوى المركزية خلال الحرب العالمية الأولى إلى غلق طرق التجارة الدولية من قبل هذه القوى الغربية المستعمرة، في محاولة لوقف الإمدادات إلى العثمانيين. لقد أضر الحصار بتجارة الحرير في جبل لبنان، والتي كانت العمود الفقري للاقتصاد حينذاك. كانت زراعة المحاصيل تشكل تحديًا في المناطق الجبلية، وكان السكان يعتمدون بشكل كبير على الواردات الغذائية من سهل البقاع وسوريا. تبنى العثمانيون سياسة صارمة لمواجهة حصار الحلفاء المستعمرين أعطت الأولوية لجميع المواد الغذائية للجنود العثمانيين المشاركين في الحرب. تفاقمت آثار حصار الحلفاء على السكان المحليين. ممّا فاقم الأزمة المعيشيّة والصّحيّة والاقتصاديّة سوءاً، هو اعتبار حكومات الحلفاء، لبنان شريكاً في الحرب إلى جانب دول المحور باعتباره جزءاً من الدّولة العثمانيّة، فعمد الفرنسيون، وهم المسيطرون على السّاحل اللبناني وموانئه، إلى فرض حصار بحريّ شامل خَنَق الجبل وسكّانه، الذين مُنعوا من الوصول إلى البحر للصّيد أو استخراج الملح أو حتّى استيراد المواد الأوليّة الضّروريّة للحياة البشريّة من حبوب ومؤن. وللأمانة التّاريخيّة، فقد غسل الجميع أيديهم من هذا الحصار ومن مفاعيله المأسويّة على اللبنانيين، إذ تحجّجت معظم الحكومات الغربية حينها أنّ الحصار فُرِضَ لقطع الإمدادات عن القوات العسكريّة الموجودة في البلاد لا عن الشّعب الجائع. أما واقع الحال، فقد كان كارثياً على اللبنانيين دون سواهم.

وهكذا، سقط ما يزيد عن مئتي ألف لبناني ضحيّة الفقر والجوع والمرض والحصار، في صراع الدّول الكبرى التّي أُرغم لبنان مُكرهاً على دخوله علاوة على كل ويلاته، وسُلبَ أبناؤه كل الحقوق، حتّى الحق بالحياة وتقرير المصير..

كانت أرقام الضحايا تؤخذ على سبيل المبالغة إلى أن ظهرت دراسة حديثة لليندا شاتكوفسكي شيلشر. ففي إطار بحثها الذي توسّع ليشمل مصادر ألمانية ونمساويّة، توصّلت إلى خلاصة مفادها أنّه من أصل خمسمئة ألف شخص قضوا بسبب الجوع وسوء التغذية في سورية الطبيعية، نعُد مئتي ألف ضحية في المناطق الشمالية من جبل لبنان(شيلشر، ص: 229).

وتعتبر ليندا شاتكوفسكي شيلشر أنّ ثمة عوامل عدّة أدّت إلى هذا الوضع المأساوي، من بينها الحصار البحري الذي فرضته أساطيل الحلفاء على البحر الأبيض المتوسط والحصار الغذائي في جبل لبنان الذي فرضه جمال باشا(شيلشر، ص: 234).

وبحسب دراسة حديثة ومسهبة عن العلاقات العربيّة التركيّة، وما إذا كانت سورية قد عانت أكثر بكثير من مناطق الإمبراطورية الأخرى من سوء التغذية، فذلك نتيجة الحصار البحري الذي فرضه الحلفاء ,Kayyali (1997, p.199) والمستغرب أنّه ما من ذكرٍ أبداً للحصار الذي فرضه جمال(Zeine 1973, p. 111) , بالتالي يبقى الجدال مفتوحاً. ولسوء الحظ، طُرِح السؤال بشكل أنّه، منذ البداية، تبلور من خلال العبارات التالية: مَن المسؤول عن المجاعة: الحلفاء الذين، من خلال حصارهم البحري، منعوا وصول سفينتي أغذية تم استئجارهما في الأميركيتين، أو جمال باشا الذي فرض «عزلة» على جبل لبنان؟ وكأنّ تحديد المسؤوليّة الجزئيّة لأحد الأطراف من شأنه عدم التخفيف من مسؤولية الطرف الآخر وحسب، إنما والأكثر من ذلك، عدم تحميله أي مسؤولية. في إطار هذا الجدال، غاب عن بالنا في نهاية المطاف أنّ فرض حصارٍ غذائي على منطقة معيّنة، لا تؤمّن لها تضاريسها الجبلية في الأحوال العاديّة سوى مؤنة بضعة أشهر في السنة، كان حكماً بالموت البطيء على شعبٍ كنا نتحمّل مسؤوليته؛ وكان ذلك أيضاً دليلاً على لامبالاة وإهمال جنائيين، في حين أنّ عوامل أخرى قد استجدّت من أجل تردّي وضعٍ كان يتفاقم يوماً بعد يوم بيد أنّ هدفنا في هذه الحال ليس تحديد المسؤوليات بقدر ما هو متابعة وتسجيل تداعيات هذه الكارثة البشريّة وصداها على مستوى الخطابات والعقليّات في فترة ما بعد الحرب.

رابعاً: الجراد:

لم تفارق الويلات اللبنانيين، فغزت في تلك الأيام أسراب الجراد "التي حجبت نور الشّمس"، والتهمت الأخضر واليابس وقضت على كل ما يمكن للمرء أن يتناوله، فاستوطن الجوع ومعه مسببات المرض في كل مكان، حتّى قيل أنّه "إن لم نمت من المرض والأوبئة، فسنموت جوعاً".

وفي عام 1915، الذي عرف بـ"عام الجراد"، التهمت جحافل الجراد كل شيء، ويقول المؤرخون لهذه المرحلة، أن العثمانيين صادروا خلال الحرب الحيوانات التي كانت تستخدم في النقل والمحاصيل، ولكنه يعتقد أنه تم طمس هذه الحقبة المؤلمة في أذهان الناس بسبب شعور بالخجل والذنب، ذلك إن الموت جوعا لا يعتبر عملا بطوليا على غرار الموت في المعارك الحربية.

ومع اجتياح سرب من الجراد للمنطقة، تم التهام المحاصيل الباقية لمدة ثلاثة أشهر متواصلة. وقد أدت الأزمة إلى انتشار السوق السوداء التي يديرها المرابون، الى النقص الكبير في الحبوب.

خامساً: انهيار العملة

فلنعد للعام 1915: مع انطلاق شرارة الحرب العالميّة الأولى، كانت البلاد رازحةً تحت نير احتلالٍ ظالمٍ يعاونه شلّة من المحليين، يسعون بؤساً وفساداً في البلاد، وإقطاعٌ متسلّطٌ متوارث، ظلمٌ في فرض الضرائب وغبنٌ في جمعها، سرقة لأرزاق الشّعب وحرمانه من أبسط مقومات الحياة... أدخل هذا الاحتلال، بجناحيه، لبنان في صراعات كونيّة لا قدرة له على احتمالها، فما لبث أن تناتشته أمم مشرقية مريضة وغربية طامعة. هكذا كانت حال لبنان: فبعد أن أجهز عليه الفساد والظلم والطّمع (حتى أصبح تأمين قوت اليوم هدفاً بحد ذاته)، انهارت الليرة العثمانيّة المتداولة في البلاد، فشحّ الذهب من السّوق بعد أن صادره البنك المركزي العثماني لتمويل حربه، واستعاضت عنه السّلطات الماليّة بتوزيع أوراق نقديّة على النّاس من دون أي غطاء فعلي لهذه العُملة. وإذ تكاثرت كميّات "الورق" التّي أنزلتها إلى السّوق، هبطت قيمة هذه العملة بالنّسبة للنّقد الذّهبي هبوطًا كبيرًا، مع إصرار حكومة الأناضول على الحفاظ على سعر ثابت لها، واعتبار الليرة الورقيّة مساوية لليرة الذهبيّة، فأجبرت النّاس على قبضها والتّعامل بها.

وكانت نكبة البلاد من هذه "العملة" مزدوجة، فقد أضاعت الجزء الأكبر من ثروة اللبنانيين، وأحدثت ركودًا في حركة البيع والشّراء، إذ إنّ الناس تجنّبوا التّداول بها وفضّلوا أن يحتفظوا بما عندهم من منتجات

وغلال عوض التّفريط بها مقابل أوراق صادرة عن دولةٍ مرهقةٍ بنفقات الحرب الباهظة. وهكذا، انهار الواقعان الاقتصادي والنّقدي في لبنان، ودخلت البلاد في المجهول، كما يحدث اليوم.

المطلب الثالث: التأثير الثقافي للمجاعة

هذه المجاعة طبعت الأدب اللبناني مع رواية الرغيف (1939) لتوفيق يوسف عواد وقصيدة "مات أهلي" لجبران خليل جبران، أكثر الأدباء اللبنانيين شهرة، حيث قال في قصيدته هذه "مات أهلي جائعين ماتوا صامتين لأن آذان البشرية قد أغلقت دون صراخهم" (جبران 1997،ص: 86).

« من خلال الرجوع إلى بعض الانتاجات الأدبية المتمثّل في تواريخ التجمعات (صقر،1986، ص: 346-354.) ، أو القرى أو البلدات ضمن المناطق المسيحيّة في جبل لبنان، أو الإحصاء السكاني لمنطقة البترون عام ١٩٢١، نكوّن فكرة عن هول هذه الكارثة التي خلت بلبنان في 1915-1918. فضلاً عن ذلك، قد تشكّل التقارير التي نُشِرَت في نشرات البعثات الكاثوليكيّة مصدر معلوماتٍ بهذا الصدد، إذا أخذنا المبالغة في الحسبان. ويخبرنا شاهد عيان كيف اجتاح المساكين من قرى الجبل مدينته طرابلس، والمقصود بذلك ضمنياً المسيحيون، الذين كانوا يموتون جوعاً فيُنقلون جثثاً هامدة من على حافة الطرقات(ميقاتي، ص: 152).

في مذكراته، يخبرنا سليم علي سلام، وهو وجيهٌ سني من بيروت، عن جو الرعب الذي كان سائداً في عهد جمال باشا(حلاق، 1982، ص: 203-227) ، إلا أنّه يتكتّم بشكلٍ مدهش عن ذكر ضحايا المجاعة في حين أنّ مئات المعدمين الذين يتضورون جوعاً اجتاحوا شوارع هذه المدينة وهم يصرخون "جوعان"(المقدسي، 1927، ص: 68-70) كذلك، لم تتوقف شخصيّة بيروتيّة أخرى، وهي شاهد عيان على الأحداث، في مشاركتها المتأخرة عند معاناة الجائعين، وإن كانت تعتقد أنّ هذه المجاعة مدبّرة، كما أنّها تنقل إلينا الذكريات المثيرة للشفقة عن مرورها في الجبل اللبناني بالمقابل، أسهبت في حديثٍ مطوّل عن عمليات الإعدام التي حصلت علانية(بيهم، 1968، ص: 186-7).

وكان لاحتكار التجار الدور الكبير في مآسي اللبنانيين في تلك الحقبة ، ولا بد من الذكر ان هناك بعض العائلات اللبنانية قد أصبحت ثرية بفضل بيع منتجات كانت مخزنة لديها بأسعار باهظة، ويروي المؤرخون أن نساء بعن أجسادهن مقابل كسرة خبز، وتخلى رجال عن أراضيهم مقابل برتقالة. ولم يقتصر الأمر على الجوع إذ خلت قرى بأكملها من سكانها بعد وقوعهم فريسة أمراض التيفوئيد والكوليرا التي انتشرت بسرعة كبيرة.

اما الان فإننا نجد في كتب التّاريخ فصل واحد من أربع صفحات يحدّثنا عن المجاعة ومسبباتها في لبنان، أربع صفحات يحفظها التّلاميذ في الصّفوف الإبتدائية وتطوى معها الصّفحة إلى ما لا نهاية، فلا تبقى في الذّاكرة إلا صور أسراب الجراد التي غطّت سماء لبنان، وجثث الأطفال المترامية على الطّرقات.. لا عجب لِما لا يتعلّم اللبنانيون من ماضيهم، فإنّهم لو قرأوا كُتُب الأمس بأَعيُن اليوم، لعلموا أنّ التّاريخ يعيد نفسه بأدقّ التّفاصيل وأشدّها إيلاماً.

ولكن بقي لنا من الفن الشعبي بعض الروايات التي تخبرنا عما كان يجري من احداث في ذلك الوقت وكان اهمها روايات عن اغنية الروزانا التي كانت تُعتبر من أشهر الأغاني الشعبية في بلاد الشام. على غرار هدية متوارثة، انتقلت الأغنية من مغنٍّ إلى آخر، فتعدّد المغنّون والروزانا واحدة.

تقول الرواية أن ولايات بلاد الشام تعرضت لمجاعة كبرى خلال فترة الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ وذلك بسبب الحصار الاقتصادي الكبير الذي فرضه الحلفاء على شواطئ الولايات العثمانية في سوريا.

وبسبب ندرة القمح في متصرفية جبل لبنان (لبنان الصغير) فقد عانى أهله بسبب اعتمادهم على زراعة التوت لإنتاج الحرير وتصديره الى فرنسا واغرائهم بالسعر العالي له. وذلك على حساب الزراعات التي تؤمن الامن الغذائي للشعب مما ادى الى مجاعة حقيقية لعدم توفر الخبز كما عانوا من كساد لبضائعهم من العنب والتفاح ... ويذكر أن سفينة ايطالية تدعى (الروزانا) حاولت كسر هذا الحصار وحملت مادة القمح لأخذه إلى متصرفية جبل لبنان إلا أن الباخرة لم تصل إلى الشواطئ اللبنانية بسبب تحولها إلى سفينة للحلفاء الغربيين الرابضين على الشواطئ الشامية... وقيل انها وصلت ولكن تبيّن أنها محملة بالعنب والتفاح، الأمر الذي أهلع اللبنانيين والسوريين وأصابهم بالخيبة. ونتيجة لذلك ورغم القحط الذي كانت تعانيه حلب في تلك الفترة إلا أن التجار الحلبيين رفضوا إلا نصرة إخوانهم في لبنان وقاموا بتهريب مادة القمح بشكل كبير إليهم وشراء سلعهم من التفاح والعنب قبل كسادها ... ما انقذ اللبنانيون من مجاعة كبيرة كانت لتودي بحياة المئات...

وفي رواية اخرى عن سفينة "الروزانا" قيل بدايةً إنها كانت سفينة "عثمانية" محملة بالعنب والتفاح، وجيء بها إلى بيروت لتبيع كل منتوجاتها، بدلًا من الإنتاج المحلي للمزارعين اللبنانيين، ممّا أدى إلى كساد في الإنتاج اللبناني، حتّى جاءهم المسيح المنتظر، حينما عزم تجّار حلب على شراء المحصول، مشهرين تضامنهم مع اللبنانيين لينقذوهم من العوز وقلة الحيلة.

وفي سبيل ذلك درجت أغنية (الروزانا) الشعبية التي غنتها السيدة فيروز والأستاذ صباح فخري والتي تقول في جزء من كلماتها:

عالروزانا على الروزانا كل الهنا فيها...

شو عملت الروزانا الله يجازيها...

يا رايحين عحلب حبي معاكم راح...

يا محملين العنب تحت العنب تفاح...

وانبثقت عن هذه الحكاية الأغنية الشعبية الفولكلورية "عالروزانا والتي لامست واستحوذت قلوب أهل الشام، وهي الّتي تذكّرنا دومًا بأواصر العهد الوطيد الّذي يربط البلدين ببعضهما كالجسد الواحد الموحّد، الذي إِذَا اشتكى منه عضو تَدَاعَى لَهُ سائر الأعضاء .

وهنا لا بد من المقارنة بسفن الوقود الإيرانية الكاسرة لحصار قانون الغرب بقانون قيصر المستكبر والتي سيتذكرها التاريخ القادم بأنها كانت بقعة امل ونصرة منقذة لجميع اللبنانيين وبجميع طوائفهم دون تمييز.

الخاتمة:

إنّ ما يمّر به لبنان اليوم ما هي إلّا أزمة ثقة متبادلة بين طبقة سياسيّة تَعِدُ بالإصلاحات وبمكافحة الفساد ولا تَفِي، وبين شعب يَعِدُ بعدم التّجديد لهذه الطّبقة الحاكمة ويتوعّد بالثّورة عليها ولا يفي ويبقى خانعاً، ذليلاً، راضخاً لظلمها.

هي أزمة ثقة متبادلة بين سلطة نقديّة أمعنت في إذلال اللبنانيين ومصّ دمائهم وسرقة مدّخراتهم، وبين شعب ينتقد سياساتها الماليّة وخططها الاقتصاديّة التّي أوصلتنا لما نحن عليه اليوم، ثم يُسارع لسحب فوائد أموال راكمها طوال سنين، يوم كان يهلّل لهندسات كهذه.

هي أزمة ثقة متبادلة بين أيادي خارجيّة بحلّة محليّة طامعة بثروات لبنان وارضه ليجعل منها ضحية لصفقات متأمركة لتطويعه من اجل مصلحة اسرائيل. هي ازمة حقنا بالحرية والسيادة والمقاومة.

بالحقيقة، التاريخ لا يُعيد نفسه كما يُشاع، بل الإنسان هو من يكرّر حماقاته ولا يتعلم من زلّاته وأخطائه!

ان خطاب المجاعة خطابٌ تقسيمي في حين نحن نبحث عن موضوعٍ توحيدي، لذا لا بدّ من رمي مسألة المجاعة في غياهب النسيان ولن يُسمح لأي شخصٍ يريد افتعال الأحداث بلعب هذه الورقة "التي تسبب الانشقاق".

المصادروالمراجع:

- البعيني نجيب (2001) ذكريات الأمير شكيب أرسلان، دار نوفل- بيروت.
- بيهم محمد جمال،(1968) العهد المخضرم في سوريا ولبنان، 1918-1923، دار الطليعة- بيروت.
- جبران خليل جبران،(1997) العواصف «مات أهلي»، دار الجميل- بيروت،
- حتي فيليب ، (1959)، لبنان في التاريخ : منذ اقدم العصور الى عصرنا الحاضر، ترجمة انيس فريحة، مراجعة نقولا زيادة، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع-بيروت.
- حرفوش إبراهيم،(1934) دلائل العناية الصمدانيّة، مطبعة الكريم-جونيه.
- حلاق حسان (1982) مذكرات سليم علي سلام (1869-1938)، دار النهضة العربية-بيروت.
- الحلو يوسف خطار، (1978) من نافذتي، دار الفارابي، بيروت.
- خازن سمعان ، (1938) تاريخ إهدن القديم والحديث، المجلد الأول، تاريخ إهدن المدني، دار عون-جونيه.
- خوري عبدالله (المطران)، (1922) صفحة تاريخيّة من أيام الحرب، دار البشير، أول آذار/ مارس .
- الزين الشيخ علي ،(1981) من دفتر الذكريات الجنوبيّة، المجلس الثقافي الجنوبي، دار الكتاب اللبناني-بيروت.
- سنو عبد الرؤوف (2019) : مقال نشر على ثلاثة أيام في جريدة اللواء بتاريخ: 23-24-25 كانون الثاني، تحت عنوان : "لبنان الكبير" على مشارف مئويته الأولى... إلى أين؟
- شديد يوسف (2001) بين السياسة والدبلوماسية، ذكريات ومذكرات، دار النهار-بيروت.
- الصفا محمد جابر ، (1981) تاريخ جبل عامل، دار النهار للنشر-بيروت.
- صقر يوسف صقر، (1986) تاريخ بجه وأسرها في لبنان وبلدان الاغتراب، دار عشتار- بيروت.
- عواد توفيق يوسف ،(1984) **كتاب الرغيف**، مكتبة لبنان -بيروت، طبعة 17.
- القسيس أنطوان ،(2011) **لبنان في الحرب العالمية الأولى**، دائرة منشورات الجامعة اللبنانية-بيروت وهو من جزئين.
- مجموعة مؤلفين (1999) دولة لبنان الكبير (1920-1996)، منشورات الجمعيّة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخيّة، رقم 44، بيروت.
- المقدسي جرجس الخوري ، (1927) أعظم حرب في التاريخ، النسخة الثانية، المطبعة الأدبية-بيروت.
- ميقاتي محمد نور الدين عارف ،(د.ت) طرابلس في النصف الأول من القرن العشرين ميلادي، دار الإنشاء للطباعة والنشر، طرابلس.
- يمين أنطوان ،(1919) **كتاب لبنان في الحرب العالمية الأولى 1914-1919**، المكتبة الأدبية- بيروت
- غبريال أندريا(2020) ، **قرن على مجاعة لبنان الكبرى: هل تعلّم اللبنانيون أي درس؟** جريدة النهار الثلاثاء 12 أيار . **الموقع:** www.aliwaa.com
- مقالة بعنوان **تاريخ المجاعات الكبرى في لبنان** نشرت في 2015/5/5 على موقع مونت كارلو الدولية / أ ف ب www.mc-doualiya.com/articles

- De France à Aristide Briand (1983), Le Caire, 19 mai 1916, A.M.A.E., Guerre 1914-1918, Turquie, Tome 872, ff. 216-216v, cité in Arthur Beylerian, Les Grandes Puissances, l'Empire Ottoman et les Arméniens dans les Archives Françaises, 1914-1918, Publications de la Sorbonne, Pari Hasan Kayyali, (1997) Arabs and Young Turks, University of California Press.
- Linda Schatkowski Schilcher, (1992)The famine of 1915-1918 in Greater Syria, in Problems of the Modern Middle East in Historical Perspective, Essays in honor of Albert Hourani, John Spagnolo (ed), Ithaca Press, Reading,
- Paul Noujaim (1919), «La Question du Liban, Étude Politique, Économique et Statistique», La Revue Phénicienne, août.
- Samir M. Seïkali, (1981) «Unequal Fortunes: The Arabs of Palestine and the Jews during World War I», Studia Arabica and Islamica, Festschrift for Ihsan Abbas, AUB, Beyrouth ,
- Zeine N. Zeine, (1973) The Emergence of Arab Nationalism, Caravan Books, New York, 3ème édition.

ملحق:

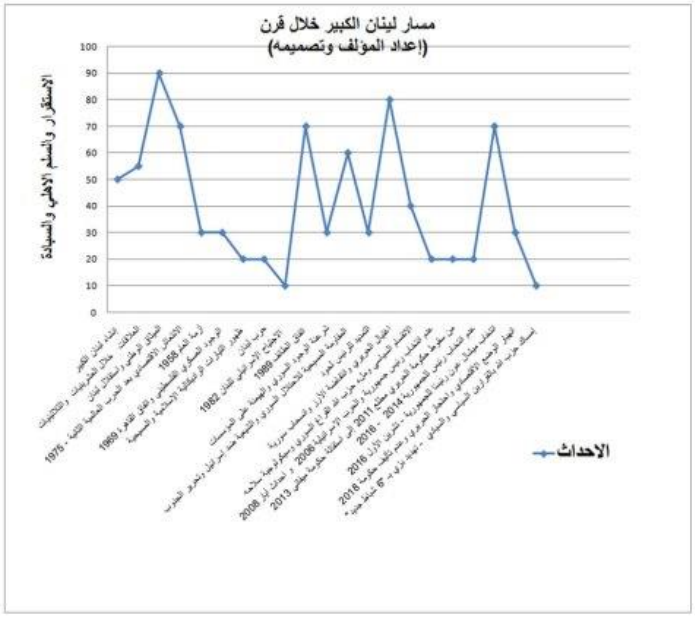

المصدر: عبد الرؤوف سنو : مقال نشر على ثلاثة أيام في جريدة اللواء في 23-24-25 كانون الأول 2019 ، تحت عنوان : **"لبنان الكبير" على مشارف مئويته الأولى... إلى أين؟**

أرشيف خاص، إبراهيم نعوم كنعان (صورة لعائلة تتضوّر جوعاً في جبل لبنان عام1915))الصورة من France24)

معهد باستوربالجزائر ودوره في ترقية الوضع الصحي بها(1909-1962)

Pasteur Institute in Algeria and itsrole in promoting the health situation in it (1909-1962)

حورية جيلالي
Houria Djilali
المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الإجتماعية والثقافية، وهران
Crasc, Algeria
ليلى بلقاسم
جامعة أحمد زبانة، غليزان، الجزائر
Ahmed Zabana, Relizane, Algeria

الملخص:

عانى الشعب الجزائري من السياسة الاستعمارية ولاسيما في الجانب الصحي، الذي يتعلق بحياة الفردو المجتمع، وسرعان ما انتشرت العديد من الأمراض والأوبئة منها ما كانت وليدة البيئة الجزائرية نتيجة لعوامل طبيعية ومناخية وكوارث طبيعية كالجفاف والفيضانات والزلازل وزحف الجراد ، ومنها ما كانت منقولة إليها نتيجة للتوافد الأوربي في إطارالاستعمار الفرنسي. وبقيت نسبة استفادة الجزائريين من العلاج الطبي ضئيلة جدا، مع عدم حصولهم على الخدمة الطبية. ولمواجهة هذه الأمراض والأوبئة عمدت السلطات الاستعماريةإضافةإلى تأسيس المستشفيات والمراكز الصحية، إلىتأسيس مراكز التكوين والبحث الطبي، على غرار مركز البحث الطبي "معهد باستور" بالجزائر العاصمة.

يعد معهد باستور بالجزائر(1894) من أهم المعاهد الطبية في شمال إفريقيا في العهد الاستعماري لما لعبه من دور في توفير الرعاية الصحية للسكان من خلال اكتشافاته، وإمداده للمراكز الصحية بالآلاف من اللقاحات ضد الأوبئة والأمراض المتعددة، وهو يمثل مهد وأصل علم الجراثيم و يشارك في وضع أسس علم الأحياء الجزئية، وبدأت بحوثه تعرف اتساعا تدريجيا نحو البحث في الجهاز العصبي، وعلم الأحياء لتطوير الخلايا القاعدية.

وتتمثل وظيفة معهد باستور الأساسية بالجزائر المستعمرة في البحث العلمي، وضمان بعض الخدمات العمومية، كما كلف من طرف الحكومة العامة الفرنسية بالجزائر بإجراء كل التحاليل الميكروبيولوجية والكيميائية أين يمكن للنتائج أن تساهم في تسهيل الخدمات الصحية على سبيل المثال الميكروبيولوجية المتعلقة بالأمراض الخبيثة كالطاعون والكوليرا وغيرها إلى جانب التحاليل الميكروبيولوجية المتعلقة بالماء.

سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية الإجابة على إشكالية رئيسية وهي الدور الذي لعبه هذا المعهد، ومساهمته في ترقية الوضع الصحي بالجزائرخلال المرحلة الاستعمارية، ومكافحة الأمراض والأوبئة التي فتكت بالعديد من الجزائريين بسبب السياسة الاستعمارية والظروف المتدهورة التي كان يعاني منها الشعب الجزائري، وماهية الهدف الرئيسي الذي جعل الإدارة الاستعمارية تسعى لتأسيس هذا المعهد وتمويله، وهل حققت هدفها من ذلك، وسنعتمد خلال هذا العمل على المنهج التاريخي بحكم حاجتنا الى تتبع أحداث تاريخية أثرت في الموضوع وتطوراته، مع التحليل والمقارنة للمعلومات التي بين أيدينا.

الكلمات المفتاحية: معهد باستور، الجزائر، اللقاحات، الأخوين سيرجون، الأوبئة، الاستعمار الفرنسي.

Abstract:

Pasteur institute of Algéria (1894) is one of the most important medical institutes in NorthAfricaduring the colonial erabecause of itsrôle of health care to the population throughitsdiscoveries, and supply of healthcenters

in thousands of vaccines againstepidemics and multiple diseases, thusitrepresents the origin of bacteriology and laid the foundations of molecularbiology. Hisresearchbegan to graduallyexpandintoresearch on the nervous system, and biology for the development of basal cells.

The main function of Pasteur Institute in Algeriaisscientificresearch and the guarantee of certain public services. It has also been commissioned by the généralgovernment to carry out all microbiological and chemicalanalyzes the results of whichcan help facilitatehealth services, for example, microbiologicalanalyzes for malignantdiseasessuch as plague, cholera and others, in addition microbiologicalanalyzesrelated to water.

Throughthispaper, wetry to study the rôle of thisinstitute in improving the health situation in Algeria, as well as the fightagainstdiseases and epidemicsthat have been the cause of greatmortality in Algeria and made of colonial policy and the deterioration of conditions fromwhich the Algerian people suffered

Key words: Pasteur Institute, Algeria, vaccines, Sergentbrothers, epidemics, French colonialism.

مقدمة:

يعد معهد باستور بالجزائر(1894) من أهم المعاهد الطبية في شمال افريقيا في العهد الاستعماري لما لعبه من دور في توفير الرعاية الصحية للسكان من خلال اكتشافاته، وامداده للمراكز الصحية بالألاف من اللقاحات ضد الأوبئة والأمراض المتعددة، وهو يمثل مهد وأصل علم الجراثيم و يشارك في وضع أسس علم الأحياء الجزئية، وبدأت بحوثه تعرف اتساعا تدريجيا نحو البحث في الجهاز العصبي، وعلم الأحياء لتطوير الخلايا القاعدية.

1/ مركز البحث الطبي "باستور" Institut Pasteurبالجزائر:

بعد تأسيس معهد باستور بباريس كمؤسسة علمية لا تهدف الى تحقيق الربح لمكافحة داء الكلب في 4جوان 1887، وافتتاحه في 14 نوفمبر 1888[1]، بدأ تأسيس معاهد أخرى على غراره في شمال افريقيا، فتأسس أول معهد لباستور في تونس سنة 1893، بينما تأسس معهد باستور بالجزائر سنة 1894 بمبادرة من الدكتور

[1]- l'institut Pasteur de Paris, établissementscientifique et charitable, a étéreconnud'utilitépublique par décretpresidentiel du 4 juin 1887, institut Pasteur, sur Wikimedia.

ترولارJean Baptiste Paulin TROLARDمن كلية الطب والصيدلة، **وسولي H. SOULIE، بعد استشارة الأستاذ لويس باستور**عالم الكيمياء والجراثيم الفرنسي [1]**في ذلك.**[2]

وفي سنة 1909 اقتنع الحاكم العام بالجزائر Jonnart بالأهمية التي يجب أن تمنح للتطوير الصحي والاقتصادي بالجزائر، ونظرا للوسائل المتطورة، والموظفين المتخصصين في معهد باستور قرر وطلب من الدكتور روRoux أن يضم معهد باستور بباريس في آن واحد الإدارة العلمية والتقنية والإدارية للمؤسسة الجديدة التي تحمل اسم معهد باستور الجزائري.[3]كما كلف الدكتور روRoux سنة 1909 ألبرت كالمات Albert Calmette مدير معهد باستور بمدينة ليلLille بفرنسا، بالتفاوض مع الحكومة العامة في الجزائر في 31 ديسمبر 1909 وترأس المنظمة الإدارية للمعهد الباستوري بالجزائر حيث أنشئ معهد باستور بالجزائر سنة 1910. ومن جهة أخرى فقد عين ادموند سرجون Edmond Sergent[4]مديرا عاما لمعهد باستور بالجزائر سنة 1912، حيث أقام هو وعائلته في الطابق العلوي لنفس المبنى ولعدة سنوات، بينما خصص الطابق الأول والثاني لمخابر مجهزة للدراسات والتجارب في علوم الأحياء الدقيقة وعلم الطفيليات، ومخابر أخرى للفيزياء والكيمياء.[5]

تقع المؤسسة الرئيسية لمعهد باستورالتي تم انشاؤها سنة 1910 بمدينة الجزائر في الجنوب الشرقي لها في حي الحامة بالقرب من حديقة التجارب[6]، تقدر مساحته بهكتارين ، وكان مكّون من ثلاثة طوابق، يضم المرافق الضرورية : مخابر مجهزة لدراسات علم الأحياء الدقيقة microbiologie وعلم الطفيليات parasitologie، ومخابر الكيمياء والفيزياء، وغرف البخار والتبريد ، والغرف السوداء في الطابق السفلي[7]، اضافة إلى خمس مبان ملحقة تحتوي على إسطبلات وأماكن مخصصة لتربية الأغنام و الخنازير، والأرانب والقرود ، وفضاء للحيوانات الصغيرة . كما توجد به حديقة لتربية البعوض و الأسماك، وهناك تعزل الحيوانات في فترة خضوعها للتجربة ،

---

[1]ولد لويس باستور في 27 ديسمبر 1822 في بلدة "دول" الصغيرة شرق فرنسا، من والد كان جنديا من جنود الثورة والإمبراطورية الفرنسية، عمل أستاذا مساعدا بكلية العلوم بستراسبورغ، وكان يدرس الرياضيات في الوقت ذاته وحصل بعد عامين على بكالوريوس في العلوم، فاتجه الى دراسة العلوم الطبية فكان عالم أحياء وكيميائي من الطراز العالي، دعا الى استخدام المضادات لوقاية الإنسان من الأمراض، وبسبب تأثير المرض توفي يوم 28 سبتمبر 1895، ودفن بالمعهد الذي دشنه وافتتحه بتاريخ 14 نوفمبر 1888 برفقة زوجته التي لحقت به بعد 18 سنة من وفاته، يمكن العودة الى Encyclopédieparl'imagepasteur, librairie Hachette, P 9-10.

[2]مصطفى خياطي(2014): الطب والأطباء في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية، منشورات ANEP، طبع المؤسسة الوطنية للاتصال، النشر والإشهار، وحدة الطباعة الرويبة.، ص288

[3] Edmond Sergentet Etienne Sergent, Histoire d'un Marais algérien. (Publiéparl'institut Pasteur d'Algérie(compterendu), Faisson Jean, Publications de la sociétéLinnéenne de Lyon, Année 1949, 18-5, p96.

[4]ادموند سيرجو(1876-1969) وايتيان سيرجو(1878-1948) أخوين طبيبين، ولدا بالجزائر وسخرا حياتهما للقضاء على حمى المستنقعات بها، كما شاركا في اكتشافات علمية عديدة على مستوى معهد باستور

[5] Jean Pierre Dedet, l'Algéried'EdmondSergent(directeur de l'institut Pasteur d'Algérie1912-1962, Edition Kallimages, Médiathèque MMSH, Université Aix, Marseille, p31.

[6] GGA, Boite DZ/AN/ 17E 1/0723, Rapports médicaux (1946-1958), Rapports mensuels, Assistance médicalegratuite, Alger, juin 1957 Op, cit, P 13

[7] C.D.H.A, L'institut Pasteur d'Algérie, in http://babelouedstory.com

إضافة إلى مصلحة خصصت للتلقيح المجانً للسكان ، و مصلحة لتوزيع و تصريف المصل واللقاح والمنتجات الجرثومية. إلى جانب ملحق حضري وسط مدينة الجزائر وملحق ريفي في منطقة القبة[1]. تبلغ مساحته خمسة هكتارات على بعد 2.5 كلم من المقر الرئيسي،وبينما تكفل الملحق الحضري بعلاج داء الكلب ، وتوزيع المصل واللقاح ، واستقبال الوسائل الخاضعة للتحاليل. كانت مهمة الملحق الريفي بمنطقة القبة الذي جمعت فيه قطعان الحُيوانات الكبيرة اجراء التجارب على هذه الأخيرة ، كالبقر والأغنام والكلاب والخنازير والأحصنة والجمال، وايجاد اللقاحات الخاصة بها، ناهيك عنمحلات للتجارب تستعمل لدراسة النباتات المختلفة، أما المخبر الصحراوي فتم انشاؤه سنة 1907 ببني ونيف ببشار، وبهذا المخبر تم اكتشاف دور القمل في الحمى الراجعة في نوفمبر 1922. كل هذا إضافة الى مكتبة ومخازن كتب، وكانت المكتبة قد أقيمت في مبنى منفصل كإجراء وقائي ضد الحرائق، والتي كانت تحتوي عام 1962 على أكثر من 50000 كتاب علمي، وما يقارب 600.000 من الكتيبات(brochures)[2].

2/مهام معهد باستور:

يمكن تحديد مهام من خلال وصف الحاكم العام للجزائر TH. Steeg سنة 1926، معهد باستور بالجزائر قائلا "انه ملجأ للتفكير والتجربة، أين يخلق العلم ، وأين يدرس العلم وأين يطبق العلم"[3]، وكانت أول مهام معهد باستور بالجزائر هي البحث الطبي، وتطوير العلوم، هكذا فبعد فتح المعهد أبوابه بالجزائر يوم 1 نوفمبر 1894 ، و بداية من عام 1909 تطّور تحت إدارة الإخوة سيرجو إذ عين ادموند سيرجو Sergent Edmond ،مديرا للمعهد من 1909إلى غاية 1962 .وكلف المعهد في البداية بمكافحة داء الكلب، ثم بعد ذلك بتحضُّر اللقاح ضد الجدري البشري والحيواني، حيث ضم المصلحة المضادة لداء الكلب ، ومصالح لتوزيع المصل sérumواللقاحوالخمائر لتخمُّر الجراثيم. و في 1900 كلف الأخوين ادموند و اتيان سيرجو بمهمة دائمة تمثلت في إجراء بحوث حول حمى المستنقعات في الجزائر[4]، الأمر الذي تبناه معهد باستور بعد تأسيسه.

يعتبر معهد باستور مؤسسة أبحاث تدرس الأمراض المعدية للإنسان والحيوان والنبات في الجزائر وافريقيا الشمالية، وتعمل على تقديم دروس في الميكروبيولوجيا حيث تستقبل مخابره الأطباء والبياطرة والكيميائيين وعلماء الطبيعة، والذين يرغبون في التعليم في نفس الميدان وفق المناهج الباستورية.[5]

وحددت مهامه أولا في معالجة داء الكلب، ثم توسعت الى تصنيع مصل الدم واللقاح، والى مكافحة الملاريا سنة 1902، ودراسة الأمراض المتعلقة بالجزائر والبحث عن أسبابها وطرق مكافحتها.

أما مصالح معهد باستور بالجزائر، فكانت موزعة سنة 1943 بصفة عامة كالتالي:

---

[1] G.G.A, L'assistance p13

[2] C.D.H.A, L'institut Pasteur d'Algérie, in http://babelouedstory.com

[3] Edmond. SERGENT," L'oeuvre de l'Institut Pasteur en Algérie", Documents algériens, n°44 , sériesociale , 30decembre1953, in www.alger-roi.fr

[4] C.D.H.A, L'institut Pasteur d'Algérie, in http://babelouedstory.com

[5] Notice surl'institutpasteurd'algerie, Op, cit, P 6

مصلحة البحوث العلمية والخاصة بدراسة علم الأحياء المجهرية (علم الجراثيم) الخاصة بالإنسان والحيوان والنبات

مصلحة التعليم العالي وتضم قاعات المحاضرات، والمنشورات ومخابر التربصات ومحطات التجارب وتضم المكتبة

ومصالح تقنية تمثلت في مصلحة داء الكلب، مصلحة حمى المستنقعات، مصلحة مرض السل، مصلحة وباء التيفوس ،مصلحة خاصة بالحيوانات، الى جانب مصالح اللقاحات والمصل والخمائر والفيروسات، ومصالح التحاليل الكيميائية والميكروبيولوجية[1]، كما تم وضع مخبر تحت تصرف السلطات البريطانية لاحتضان مصلحتها لمكافحة الملاريا[2]

3/ دور معهد باستور في ترقية الوضع الصحي بالجزائر:

وكانت سلسلة الاكتشافات التي يقوم بها معهد باستور تدخل ضمن استراتيجية عامة لتأطير الأبحاث العلمية في منطقة شمال افريقيا، لفك العزلة والتخفيف على معهد باستور بباريس في التكفل بالحالات المرضية المتوقعة في الجزائر والمنطقة، ورغم أن ذلك كله كان خدمة للمشروع الاستعماري الاستيطاني، الا أن هذا المعهد ساهم في ترقية الوضع الصحي بالجزائر ، من خلال توفير العديد من الأدوية واللقاءات للأوبئة التي كانت منتشرة خلال تلك المرحلة الحساسة من تاريخ الجزائر.

بدأت الأبحاث باكتشاف لافارنLaveran من قسنطينة سنة 1880 لميكروب حمى المستنقعات الإماتوزير Hématozoaire، الذي أدى الى سلسلة جديدة من الاكتشافات فيما يخص مرض حمى المستنقعات Paludisme وبفضل هذا الإكتشاف تحصل هذا الطبيب سنة 1907 على جائزة نوبل وفي سنة 1922 زود بمخبر من طرف معهد باستور.[3]وفيما يخص داء الكلب فقد استقبل المعهد من يوم افتتاحه الى غاية 31 ديسمبر 1903، حوالي 4765 حالة داء كلب، اذ كان يقصده المرضى من مختلف العمالات وحتى من خارج الوطن، ففي سنة 1908 استقبل 678 شخص، منهم 285 من عمالة الجزائر، والباقي من عمالتي وهران وقسنطينة، ومن المغرب الأقصى[4]، قبل انشاء معهد باستور سنة 1911 في طنجة وسنة 1928 بالدار البيضاء.

أما ممارسة التعليم العالي والبحث العلمي، فقد كان المعهد يقدم دروسا في علم الأحياء الدقيقة أو المجهرية عن طريق المحاضرات والدروس والتربصات في علم الأحياء الدقيقة المجهرية في مخابره، لطلبة الطب والصيدلة الفرنسيين والأجانب، حيث قام بالتكوين التطبيقي لطلاب الطب والصيدلة لجامعة الجزائر، وطلبة

---

[1] Edmond SERGENT , "L'institutpasteurd'Algérie en 1943" , in Arch.I.P.A., T. XXII, n° 1, mars 1944, p. 99

[2] C.D.H.A, L'institut Pasteur d'Algérie, in http://babelouedstory.com

[3] Laberge Marie-France: Les instituts du Maghreb: la recherchemédicaledans le cadre de la politiquecoloniale. In: revue françaised'histoired'outre-mer, tome 74, n°274, 1er trimestre, 1987.

[4] M.C. JONNART, op.cit, p 31 علامة

المدرسة الاستعمارية بالحراش، كما اهتم التعليم الخاص بالأمراض المتواجدة بالجزائر بالبحث عن أسبابها ووسائل مكافحتها، اضافة الى اشرافه العلمي على الأطباء المعينين للعمل في الصحراء[1].

إلى جانب ذلك كان معهد باستور يقوم بتوزيع عشرات الملايين من المنشورات لتوعية وابلاغ الراي العام، بالتدابير الجديدة الواجب اتخاذها في مواجهة الامراض المعدية والوقاية منها، ففي عام 1922 ، تم نشر كتيب حول التدابير الوقائية باللغة العربية والفرنسية، بعنوان" كتاب الصحة خصص لمسلمي شمال افريقيا"[2]، وقد سمح معهد باستور بالجزائر للحكومة الإيطالية بوضع نسخة من هذا الكتاب للشعب الليبي.[3]كما وضع المعهد ضمن برنامجه تنظيم المؤتمرات واستقبال العمال في المخابر وخصوصا الأطباء العسكريين والمعينين بمنطقة الجنوب، .[4]، ناهيك عن التعريف بالأمراض والأوبئة المتواجدة لغرض علمي بحث من خلال التعرف على أسباب تلك الأمراض، والوسائل المتبعة لمكافحتها.[5]

وتواصلت الأبحاث العلمية في علم الأحياء المجهرية والطفيليات البشرية والحيوانية، وعلم بكتيريا النبات والأرض، والسموم وعلم الأحياء وعلم الأمراض بصفة عامة، ناهيك عن دراسات وأعمال عديدة حول الصحراء تم انجازها في أكثر من 40 سنة تحت اشراف الطبيب هنري فولي، والتي مست الجوانب الطبية والديمغرافية للمنطقة.، وفي نفس الوقت تم اجراء تحريات حول الأوبئة بدراسة الأمراض الخاصة بالجزائر، والبحث عن أسبابها ووسائل مكافحتها، حيث كلف اميل روكس(Emile Roux) مدير معهد باستوربباريس ، سنة 1900 الإخوة ادمون واتيان سيرجو بمهمة دائمة لإجراء بحوث علمية حول حمى المستنقعات في الجزائر، فنظمت عدة حملات لمكافحة هذا المرض تحت اشراف معهد باستور

وفي سنة 1901 بدأت التجارب الميدانية للأساليب الوقائية والوبائية، التي تم تنفيذها سنة 1902، في منطقة بودواو(العلمة) على بعد 37 كلم من الجزائر العاصمة، فكانت أول حملة لمكافحة الملاريا أو ما يعرف بحمى المستنقعات في الجزائر، ثم تلتها حملات أخرى، بتوزيع دواء الكنينا على أطفال المدارس وعلى الكبار في الأحياء، أهمها الحملة التي كانت في مدارس بودواووقورصو ورغاية وبني مسوس وواد العلايق وعطاطبة، وبومدفع، والتي امتدت من شهر ماي الى غاية شهر نوفمبر من سنة 1909.[6]كما تبنى المعهد عملية تجفيف

[1] Edmond. SERGENT," L'oeuvre de l'Institut Pasteur en Algérie", Documents algériens, n°44 ,sériesociale , 30decembre1953, in www.alger-roi.fr, op.cit.

[2] Edmond. SERGENT," L'œuvre...",op.cit.

[3] C.D.H.A.,op.cit.

[4] Edmond Sergent, l'œuvre de l'institut Pasteur en Algérie, Documents Algériens, n 44, sériesociale, 30 décembre1953, in www.alger-roi.fr.

[5] Jean Pierre Dedet, l'Algéried'EdmondSergent(directeur de l'institut Pasteur d'Algérie1912-1962, Edition Kallimages, Médiathèque MMSH, Université Aix, Marseille, p143.

[6] Ed.SERGENT ,Campagneantipaludique de 1909 , Alger, imp. Algérienne,1910, p.p.32-41

المستنقعات لمحاربة الملاريا، كتجفيف مستنقع أولاد منديل سنة 1928.[1] والقيام بالتحاليل الطبية كتحاليل مكروب الطاعون والدفتيريا والسل وتحاليل مياه الشرب، حيث بلغ مجموع التحاليل الطبية خلال سنة 1958 42.369 تحليل طبي وبيطري، و13.038 تحليل ميكروبيولوجي، و3.059 تحليل بيولوجي، و6.610 تحليل كيميائي، و19.662 عملية تأكيد في التاريخ الطبيعي.[2]

اهتم المعهد أيضا بالإستلقاح أو العلاج باللقاح Vaccinothérapie حيث قام بالتلقيح الحيواني ضد الجمرة الخبيثة Anticharbonneux وضد جذري الأغنام Clavelisation واعداد التلقيحات البشرية ضد وباء الجدري والدفتيريا، وتوزيعها على المستشفيات ومصالح أطباء الإستعمار والبلديات، ففي سنة 1904 مثلا، وزع المعهد 44.969 قارورة تلقيح ضد الجدري للجزائر والمغرب الأقصى، وفي 1905 تم توزيع أكثر من 65.000 قارورة.[3]وخلال سنة 1914 أعدت مصالح معهد باستور لقاح لمكافحة مرض التيفوئيد لفائدة الجيش الفرنسي، كما تم تسليم 380.000 جرعة لقاح ضد الكوليرا، خاصة لجنود صربيا والجبل الأسود الذين قدموا الى الجزائر.[4]وخلال الحرب العالمية الثانية كلفت مخابر المعهد بتسليم لقاحات الجدري وداء الكلب ووباء الطاعون والتيفوئيد لمصالح الصحة العسكرية الفرنسية والبريطانية.

وفي عام 1907 تم افتتاح أول مخبر لمعهد باستور في بني ونيف جنوب عمالة وهران، ومخبر آخر بمنطقة بسكرة سنة 1922، ولإجراء البحوث العلمية حول حمى المستنقعات في الجزائر، تم انشاء محطة تجريبية بأولاد منديل في بلدية بئر توتة على بعد20 كيلومتر من الجزائر العاصمة، استخدمت أول مرة لدراسة وباء حمى المستنقعات، ثم ميدان للتجارب في دراسة علم الأحياء الدقيقة وبطلب من الحاكم العام جونار، تم انشاء قسم خاص لدراسة حمى المستنقعات في معهد باستور بالجزائر.

كانت من بين أولويات المعهد أيضا الإستمصال او المعالجة بالمصلSérotherapie، حيث قام معهد باستور بالجزائر بتحضير خمائر ممتازة لتخمير الفيروسات، إلى جانب تحضير المصل، حيث تم اختراع مصل لمكافحة لدغات العقرب وضع في منتاول الأطباء سنة 1936.[5]كما اهتم المعهد بدراسة النباتات، ومكافحة دودة النبات والجراد بطريقة الفطريات إلى جانب صناعة بعض المواد بالنباتات منها الكحول بواسطة صبارة، ونبيذ بالبرتقال على طريقة الشامبانيا، إلى جانب تعقيم التين الجاف.[6]

كما وضع معهد باستور بالجزائر برنامجا خاصا لمكافحة مرض الرمد الذي أصاب 80% من المواطنين خصوصا في المناطق الصحراوية، وعرف هذا البرنامج منذ سنة 1921 من قبل لويس باروLouis Parro المدير الفرعي لمعهد باستور بالجزائر، حيث خصص مستوصفات لمعالجة أمراض العيون، وتأسس مستوصف القنطرة

---

[1] Edmond SERGENT, "Rapport sur le fonctionnement de Institut Pasteur d'Algérie en 1945", in Arch.I.P.A.,T.XXIV n°2 juin 1946, p.161

[2] Edmond SERGENT, "Fonctionnement de Institut Pasteur en Algérie en 1958", in, A.W.O, Boite AP.62

[3] علامة H. ABADIE FEYGUINE, op .cit, p. 55.

[4] C.D.H.A.,op.cit.

[5] Alain RENAUD, "L'institutpasteurd'Algérie 1900-1962", in l'algérianiste ,n° 77 , mars 1997, p.80

[6] Ed.BRUCH , L'assistance... , p.p. 60-61

سنة 1925، وقام المعهد بدراسة أسباب وأصل وباء الملاريا بشمال افريقيا، لتطبيق الاكتشافات الحديثة للعلاج والوقاية، إضافةإلى تحليل الأسباب الحقيقية لتكاثر الملاريا للوصول إلى تحديد وتعريف العوامل الوبائية.

ومن أجل الحد من انتشار الملاريا اتخذت إجراءات وقائية استعجالية وعلى رأسها القضاء على الحشرات المتسببة في انتشار الفيروس، وفي ظل انعدام وقلة الوسائل، اقتصرت الإجراءات على اعطاء المواطنين وخصوصا الأطفال جرعات قليلة يومية من دواء الكنين Quinine طيلة موسم انتشار العدوى وحددت بسبعة أشهر في السنة، كما وضعت برامج خاصة لهذا الغرض.

أما فيما يتعلق بتوزيع الدواء، فقد كانت الأدوية تقدم من طرف موظفين مختصين يسمون عمال الدواء Agents quininisateurs، يجولون في المنازل لتقديم دواءLes dragées roses وبعض الشكولاطة للأطفال، ولقي ذلك تجاوبا كبيرا من قبل السكان[1]، كما كان المعهد يوفر كل سنة من ثلاثة إلى أربعة ملايين جرعة من اللقاح والمصل والخمائر، وكذا المنتوجات الميكروبية المختلفة الموجهة سواء للاستعمال الطبي أو الاستعمال الحيواني أو الزراعي. وقد قام معهد باستور بالجزائر بتلقيح ما بين 2500 الى 4000 شخص سنويا ضد داء الكلب، وحضر لقاح ضد الكلب للاستعمال الحيواني من أجل تلقيح الكلاب، كما شرع هذا المعهد سنة 1935 في تحضير مصل ضد سم العقارب، ويحضر حوالي مليون جرعة من اللقاح المضاد للجدري.

3/معهد باستوروالسياسة الاستعمارية:

كان تنظيم المعهد خلال الفترة الاستعمارية قائما على اختيار مدير المعهد من بين الأشخاص المفوضين لمعهد باستور بباريس، والذي يتعهد بأن لا يكون له أي انشغال مأجور أو غير مأجور خارج معهد باستور، بالإضافة إلى وجود مجلس مراقبة وتحسين أنشأ من أجل إقامة تعاون مستمر بين المعهد والمؤسسة الأم، هذا المجلس يترأسه الحاكم العام و يتكون من ثلاثة أعضاء معينين من قبل الحاكم العام، و عضوين منتخبين من قبل المجلس الأعلى، و عضوين مختارين من قبل المفوضية المالية، و أربعة مفوضين

ويتمثل الهدف الأول من تأسيس هذا المعهد توسيع السيطرة على الشمال الإفريقي من خلال استعمال الرعاية الصحية والعلاج في مقدمة مشروع الاحتلال، فقد قال الحاكم العام السابق للهند الصينية م.ق فارني إن معهد باستور هو أحد وسائلنا لتكريس الإستعمار، أما الهدف الثاني فيتمثل في توفير الأدوية واللقاحات بالجزائر في ظل بعدها عن باريس، مما يصعب الحصول على مصل لمعالجة داء الكلب باعتبار معهد باستور مؤسسة موجهة لدراسة الأمراض المعدية للإنسان والحيوان والنبات الخاصة بالجزائر وافريقيا الشمالية.[2]

بالرغم من الصعوبات التي واجهها، وعلى رأسها ضيق المقرات وقلة الوسائل المادية، إلا أنه أعطى نتائج مرضية ومشجعة، حيث أنتج معهد باستور بالجزائر اللقاح المضاد للجدري إلى جانب تحاليل جرثومية وتحاليل للمياه.

---

[1] Jean Pierre Dedet, l'Algéried'EdmondSergent(directeur de l'institut Pasteur d'Algérie1912-1962, Edition Kallimages, Médiathèque MMSH, Université Aix, Marseille

[2] Notice surl'institutpasteurd'Algérie, Tome I, P 06-07

هذا ويعتبر البحث الذي قام به الفرنسيون في معهد باستور من أهم البحوث وأنجعها في تاريخ البشرية، فباستحداث معهد باستور، أوجدت السياسة الاستعمارية منارات للاحتلال ما فتئت أن أصبحت جد ضرورية ومهمة لتطور الاستعمار والمحافظة خاصة على الثروة الإنسانية الموجودة في المستعمرات من كولون وسكان أصليين، ورغم تاريخ معهد باستور وانجازاته فانه عانى كثيرا من سياسات الإدارة الاستعمارية التي تأخرت في الاعتراف بأعماله.[1]وبعد أن استفحلت الأمراض والأوبئة وحصدت الكثير من الأرواح كان لزاما على مجموعة من الأطباء الاهتمام بالبحث عن مسببات هذه الأمراض، والابتعاد عن التفسير الخاطئ لانتقال وحصول الأمراض عن طريق الهواء المتعفن، وأن هذه الأوبئة سببها البيئة الموجودة في الجزائر المغايرة تماما لما يحصل في أوربا، هذا المنطق الذي بين بعده عن الحقيقة العلمية واستبدل مع ظهور الباستورية التي أصبحت تبحث عن مسببات ميكروبيولوجية للأمراض.

4/الاكتشافات والاختراعات التي قام بها معهد باستور بالجزائر:

كان أساس معهد باستور هو تطوير العلوم لإظهار الميكروب في الطبيعة، ودور الميكروبات التي تعيش متطفلة على حساب الكائنات الحية، ومعرفة أسباب الأمراض المعدية، إلى جانب مكافحة الأمراض والأوبئة عند الإنسان والحيوان، وقد اكتشفت بفضل أبحاث تلاميذ باستور جراثيم الخناقDiphtérie، والطاعونLa peste ، ووضع Roux عام 1894 خطة لمداواة الخناق بطريق المعالجة المصليةSérothérapie، وفي نفس السنة أي 1894 اكتشف د.فينسنH.Vincent بالجزائر العاصمة الجرثومة المسببة لخلل جسم بالأجزاء الرخوة بالرجل وأحيانا باليد، المعروفة باسم رجل مادورا Le pied de Madora تبين أنه فطر من نوع ستريبتوتريكسStreptothrix.[2]وفي سنة 1894 اكتشف روجيRouget بقسنطينة حيوانات طفيلية بدم حصان، وكانت تتسبب في مرض الخيول.

وفي شهر نوفمبر 1894 أنشأ الأستاذين ج.ب.ترولارJ.B.Trolard وسوليSoulié بمدرسة الطب بمعهد باستور بالجزائر العاصمة مصلحة لعلاج الكلب للأشخاص الذين تعرضوا لعضة كلب، والذين لم يسعفهم الحظ للسفر الى باريس، كما يعمل هذا المعهد على تجهيز التلقيح ضد الجدري.واكتشفد.فينسنH.Vincent سنة 1896 بالجزائر العاصمة الجرثومة العصوية مغزلية الشكل التي أثبتت سنة 1897 دور البحث سبب التهاب اللوزتين الذي سمي بالتهاب اللوزتين فينسينL'angine de Vincent.[3]

أما سنة 1900 فقد أرسل الطبيب روكس مدير معهد باستور بباريس الى الجزائر ، بعثة للتدقيق باكتشاف رونالد روسRonald Ross المستوحى من نظرية أ. لفيرانA.Laveran حول دور البعوض في تحول الملاريا

---

[1] Laberge Marie-France: Les instituts du Maghreb: la recherchemédicaledans le cadre de la politiquecoloniale. In: revue françaised'histoired'outre-mer, tome 74, n°274, 1er trimestre, 1987.

[2] مصطفى خياطي(2003-2004): المآزر البيضاء خلال الثورة الجزائرية، منشوراتANEP، ترجمة نسيبة غربي، 195

[3] Edmond Sergent et Louis Parrot, Contribution de l'institut Pasteur d'Algérie à la connaissancehumaine du Sahara(1900-1960)(compterendu) Faisson Jean, Publications de la sociétéLinnéenne de Lyon, Année 1964, 33-2 ; pp67-68.

وكذلك لمتابعة اكتشاف علم الأمراض في الجزائر بالطرق الباستوريةLes méthodes Pasteuriennes[1]. وفي سنة 1903 تم اكتشاف طفيلي بشري، كان يسبب الغثيان والتعرق لذى الإنسان، على يد ادموند وسرجو.[2]كما اكتشف هنري فوليHenri Foley وادموند سيرجو، سنة 1907 دور القمل في نقل الحمى الراجعة العالمية، وكانت أول مرة يثبت فيها أن القمل يسبب أمراض بشرية(1907-1908).[3]وتواصلت انجازات المركز العلمية، ففي سنة 1911 تم تأكيد فعالية دواء 606 في علاج حمى الراجعة، وفي 1909 أكد الطبيب شارل نيكول وأعوانه دور القمل في نقل وباء التيفوس، كما وضع ادموند سيرجو سنة 1908، تدابير وقائية للقضاء على الحمى المتموجةOndulante أو المالطية Brucellose والتي قضي عليها بصفة نهائية تقريبا في عمالتي الجزائر وقسنطينة.[4]

وفي سنة 1920، قام ادمون واتيان سيرجو بعدة زيارات الى الصحراء وتحديدا منطقة بسكرة لدراسة داء الليشمانيوزالجلدي Leishmaniose cutanée أو ما يعرف بحبة الشرق أو مسمار بسكرة.[5]، وكان الهدف الأساسي للبعثة المرسلة كل سنة إلى الجزائر ابتداء من 1921، من طرف الدكتور روRoux يتمثل في التدقيق ومتابعة البحوث، وفعلا تمكن روس Ronald Ross من اكتشاف دور البعوض في تكاثر الملاريا، ودراستها الى جانب الأمراض المعدية للإنسان والحشرات، وتم توجيه بحوث البعثة نحو أمراض أخرى معدية .وفي سنة 1921 أنشئ مخبر الأبحاث للصحراء في منطقة بسكرة، وكانت الانطلاقة الرسمية لهذا المخبر سنة 1928 من طرف فيليكسمسنيلFélix Mesnil من معهد باستور بباريس أثناء زيارته للجزائر.[6]وفي سنة 1933 كشف ادموند سيرجو أن الحمى الراجعة الإسبانية الشمال افريقية موجودة بالجزائر وسببها قرادة كلب. ولأول مرة يحقق معهد باستور بنجاح التجارب الأولى حول فعالية بودرة د.د.ت على القمل في حوض البحر المتوسط، في جانفي 1943.

أما في الجانب البيطري فقد تم اكتشاف سبب مرض"الدباب"، الأكثر خطورة والأكثر انتشارا وسط الجمال، وهو لسعة ذبابة نعرة(Taons) من طرف الإخوة سرجو سنة 1902، وفي سنة 1907 أعلنا عن مرض الأغنام المعروف باسم ثيمني في بلاد القبائل، والذي يستطيع أن يصيب الإنسان بالتهاب الجيوب الأنفية وبالرمد الحبيبي.وفي أكتوبر 1914 قدم معهد باستور وللمرة الأولى اللقاح الثلاثي ضد التيفوئيد ونظيرة التيفوئيد B و a، الذي أصبح فيما بعد يسمى بلقاحت.ا.ب(T.A.B)، إلى جانب اكتشاف أسباب الحمى الصفراوية التي تصيب البقر، ومرض الناموسية الذي يصيب الأغنام الصغيرة سنة 1919، واكتشافات أخرى في عالم النباتات كإيقاف تطور ما يعرف بالبيوض وهو نوع من الفطريات يصيب النخيل، وكان ايتيانسيرجوفي ربيع 1914 قد بدأ دراسة

---

[1] Edmond Sergent et Louis Parrot, Contribution de l'institut Pasteur d'Algérie à la connaissancehumaine du Sahara(1900-1960)(compterendu) Faisson Jean, Publications de la sociétéLinnéenne de Lyon, Année 1964, 33-2 ; pp67-68

[2] Edmond. SERGENT," L'œuvre...",op.cit

[3] Alain RENAUD, "L'institutpasteurd'Algérie 1900-1962", in l'algérianiste ,n° 77 , mars 1997, p.79

[4] Edmond SERGENT, "L'œuvre...",op.cit.

[5] Alain RENAUD, "L'institutpasteurd'Algérie 1900-1962", in l'algérianiste ,n° 77 , mars 1997, p80.

[6] Jean Pierre Dedet, l'Algéried'EdmondSergent(directeur de l'institut Pasteur d'Algérie1912-1962, Edition Kallimages, Médiathèque MMSH, Université Aix, Marseille, p147.

حول عقارب شمال افريقيا ، إلا أن اندلاع الحرب العالمية الأولى أوقفت البحث ولم يستأنف إلا في عام 1932، حيث تمكن من اختراع مصل لمكافحة لدغات العقرب، والذي وضع في متناول الأطباء سنة 1936، وبذلك كان بإمكانه إنقاذ ما بين 89 و93 % من المصابين.[1]

اضافة الى اختراع طريقة للتطعيم ضد مرض السلB.C.G في البيئة الصحراوية، كما ظهرت اختراعات أخرى مست الوسطين الحيواني والنباتي، كاختراع أ. بوكي، وج. بريدري للقاح ضد جدري الأغنام، لتحصين الأغنام المصدرة من الجزائر إلى فرنسا، وقد أصبح هذا التلقيح مطلوبا من طرف عدة دول أجنبية[2]، واختراع مستخلص الميليا Mélia سنة 1937 وشرع في تطبيقه منذ 1944، لحماية المزروعات والبساتين من الجراد.[3]

عانى معهد باستور بالجزائر من بعض الصعوبات خاصة مع ظروف الحرب العالمية الثانية، وما خلفته من أوبئة ، حيث لوحظ خلالها نقص الوسائل والإطارات، وانقطاع التواصل بينها وبين المعهد الأم بباريس، وقطع التموين من الوسائل، إلا أن دخول الصليب الأحمر الأمريكي إلى الجزائر العاصمةفي نوفمبر 1942، خفف من بعض هذه الصعوبات بإدخاله لكمية من المواد الكيميائية والبيولوجية.[4]

ما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن الأعمال العلمية الرائعة لمعهد باستور بالجزائر، والتي ذاع صيتها في العالم، سمحت بتعيين مديره ادمون سيرجو سنة 1919 للتفاوض مع الحكومة اليونانية لوضع قواعد لمعهد باستور بأثينا. كما استدعي ادمون سيرجو من قبل لجنة الصحة التابعة لعصبة الأمم ليكون عضوا في لجنة حمى المستنقعات، ورئاستها منذ عام 1935[5]، وقد كلفه الدكتور ريكو من 1928 إلى 1932 بتأسيس معهد باستور في الدار البيضاء بالمغرب الأقصى.

وأمام هذه المجهودات الكبيرة التي قدمها مدير معهد باستور السيد ادموند سيرجو في مجال البحث الطبي على أرض الجزائر، نجده في مطلع سنة 1959 يلقي خطابا بهذه المناسبة، أمام الطاقم الطبي للمعهد، يتأسف فيه على معاناة الطاقم الطبي ويشيد بالمجهودات التي قدمها هؤلاء خدمة للعلم بالجزائر[6]، وهو يشعر بقرب نهاية الاستعمار الفرنسي بالجزائر.

---

[1] Edmond. SERGENT, "L'œuvre...",op.cit.

[2] Edmond SERGENT, "Rapport sur le fonctionnement de Institut Pasteur d'Algérie en 1945", in Arch.I.P.A.,T.XXIV, n°2 juin 1946, p.161

[3] Edmond SERGENT, "Rapport sur le fonctionnement de Institut Pasteur d'Algérie en 1945", in Arch.I.P.A.,T.XXIV, n°2 juin 1946, p.161Edmond SERGENT, "Rapport sur le fonctionnement de Institut Pasteur d'Algérie en 1945", in Arch.I.P.A.,T.XXIV, n°2 juin 1946, p.161

[4] Edmond SERGENT, " Les institutspasteurd'outre-mer pendant la guerre" ,Arch.I.P.A, T. XXII , n°2 juin 1944, p.146

[5] Edmond. SERGENT," L'œuvre...",op.cit.

[6] A.W.O, Boite AP.62 , "Fonctionnement de Institut Pasteur en Algérie en 1958"

الخاتمة:

كانت أولى مهام معهد باستور بالجزائر هي البحث الطبي، وتطوير العلوم، وممارسة التعليم العالي والبحث العلمي، وكان يقدم دروسا في علم الأحياء الدقيقة أو المجهرية عن طريق المحاضرات والدروس والتربصات في مخابره، كما وفر التعليم التطبيقي لطلبة الطب والصيدلة لجامعة الجزائر، وطلبة المدرسة الاستعمارية بالحراش، كما كان يضمن خدمات ذات منفعة عامة، كالتحقيقات والبعثات المطلوبة من طرف الحاكم العام، والتحليلات الميكروبيولوجية الدقيقة الضرورية لمصالح الإسعاف، والنظافة والمصالح الصحية في الجزائر، وكانت كل أعمال المعهد والتقارير تنشر في دورية فصلية تصدر كل ثلاثة أشهر تحت اسم "أرشيف معهد باستور"، والتي تلخص من طرف المدير في تقرير سنوي، كما تقدم تقارير الدراسات والتجارب الميدانية سنويا إلى الأكاديميات والجمعيات العلمية، وفي الكثير من الأحيان تنشر في المجلات العلمية، حيث بلغ عددها إلى غاية 1962 حوالي 2276 عمل مطبوع.[1]

هذا وقد أنتج معهد باستور على امتداد أكثر من قرن من العمل والبحث مجموعة من الأمصال واللقاحات ضد عدد من الأوبئة، كالطاعون والجدري والكوليرا والجمرة الخبيثة، وداء السل، التي مكنت الطب الحديث من مواجهة هذه الأمراض، وبالإضافة إلى العديد من الاكتشافات العلمية التي قام بها، يعد أول معهد بحثي قام بعزل فيروس نقص المناعة المكتسبة المسبب لمرض الإيدز، وكانت الاكتشافات التي توصل إليها تهدف إلى فك العزلة والتخفيف على معهد باستور بباريس، والتكفل بالحالات المرضية في الجزائر وشمال إفريقيا، وكل ذلك خدمة للسياسة الاستعمارية الفرنسية.

ببليوغرافية:

المراجع باللغة العربية:

مصطفى خياطي(2014): الطب والأطباء في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية، منشورات ANEP، طبع المؤسسة الوطنية للاتصال، النشر والإشهار، وحدة الطباعة الرويبة.

مصطفى خياطي(2003-2004): المآزر البيضاء خلال الثورة الجزائرية، منشوراتANEP، ترجمة نسيبة غربي.

القشاعي موساوي فلة(2004): الصحة والسكان في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي(1518-1871)، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر.

المراجع باللغة الفرنسية

ABADIE FEYGUINE (Helène) (1905) : De l'assistance médicale des femmes indigènes en Algérie, Montpellier.

BRUCH (Edmond)(1879) : Compte rendu de la clinique chirurgical, rapport à Mr le directeur de l'école préparatoire de médecine et de pharmacie d'Alger, Alger, typographie Adolphe, Jourdon, imprimeur librairie .

[1] C.D.H.A.,op.cit.

BRUCH (Ed)(1906) : L'assistance aux européens en Algérie, Alger, imprimerie algérienne .

BRUCH (Ed.)(1903) : Clinique ophtalmique de l'école de médecine d'Alger, discours d'ouverture de Mr le professeur Bruch, Alger Mustapha, Vve Giralt, imprimeur photograveur.

BRUCH(Ed)(1899) : Notice sur l'ophtalmie granuleuse, Mustapha, Gualt, imprimeur du gouvernement général.

Dr. ROUX(1949) : Notice sur l'institut Pasteur d'ALGERIE, tome 2, (recherches scientifiques – enseignement et mission – services techniques), 1935-1949, page 11-20

Encyclopédie par l'image pasteur, librairie Hachette, P 9-10.

Jean Pierre Dedet(1962), l'Algérie d'Edmond Sergent(directeur de l'institut Pasteur d'Algérie1912-1962, Edition Kallimages, Médiathèque MMSH, Université Aix, Marseille

JONNART (M.C)(1909) : Exposé de la situation générale de l'Algérie en 1908, Alger, imprimerie administrative Victor Heintz.

RENAUDAlain(1977) :"L'institut pasteur d'Algérie 1900-1962", in L'Algérianiste, nº 77 , mars 1997, pp. 75-80RENAUD(Alain), "L'institut pasteur d'Algérie 1900-1962", in L'Algérianiste, nº 77 , mars 1997, pp. 75-8

SERGENT (Edmond),(2005) :" L'oeuvre de l'institut Pasteur en Algérie", Documents algériens, nº44 , série sociale , 30 décembre 1953, www.alger-roi.fr ,publié 03/07/2005SERGENT (Edmond)," L'oeuvre de l'institut Pasteur en Algérie", Documents algériens, nº44 , série sociale , 30 décembre 1953, www.alger-roi.fr ,publié 03/07/2005.

SERGENT (Edmond), SEGENT (Etienne), TROUESSAIT (E), FOLEY, GILLOT, LEMAIRE, BORIES, Et LEDOUX (1910) : Recherches expérimentales sur la pathologie algérienne 1902 - 1909, Alger, imprimerie typographique J. Torrent, 1910. - SERGENT (Ed), Compagne antipaludique de 1909, Alger, imprimerie algérienne.

Sergent Edmond (1953) :l'œuvre de l'institut Pasteur en Algérie, Documents Algériens, n 44, sériesociale, 30 décembre1953, in www.alger-roi.fr.
Sergent Edmond et Louis Parrot(1964) : Contribution de l'institut Pasteur d'Algérie à la connaissance humaine du Sahara (1900-1960)(compte rendu) Faisson Jean, Publications de la société Linnéenne de Lyon, Année 1964, 33-2 .

SERGENT (Ed) (1910) : Compagne antipaludique de 1909, Alger, imprimerie algérienne, 1910.SERGENT (Ed), Compagne antipaludique de 1909, Alger, imprimerie algérienne, 1910.

SERGENT Edmond(1946) : "Rapport sur le fonctionnement de Institut Pasteur d'Algérie en 1945", in Arch.I.P.A., T.XXIV n°2 juin .

Sergent Edmond(1949) : Travaux scientifiques de l'institut Pasteur d'Algérie 1900 à 1962, paris 29.Sergent.E. L. Parrot. Typhus exanthématique et conditions économiques. Arch. Instit. Pasteur d'Algérie, t XIX n° 3, septembre 1941

Sergent(Ed) et Sergent(E) (1949), Histoire d'un Marais algérien. (Publié par l'institut Pasteur d'Algérie (compte rendu), Faisson Jean, Publications de la société Linnéenne de Lyon.

محفوظات مركز الأرشيف الوطني الجزائري ببئر خادم:

Boite DZ/AN/ 17E1/0673: Lutte et prévention contre les maladies (1939- 1960). Lutte contre les moustiques, Constantine 1933. - Service central de lٰhygiène publique et de la médecine préventive, situation sanitaire hebdomadaire. - G.G.A service antipaludique, la lutte contre les moustiques. Boite DZ/AN/ 17E1/ 0674: Lutte et prévention contre les maladies (1939- 1960). Lutte antipaludique :envoi dٰhuile minérale larvicide, Constantine 1936- 1942 - Service antipaludique 1936, utilisation d'huile minérale larvicide

Boite DZ/AN/ 17E 1/0721

Rapports médicaux (1946-1958), Rapport général du directeur départementale de la santé, Rapports des médecins, Algérie, avril 1957. - Rapport médical sur les maladies contagieuses, avril 1957. - Rapports des circonscriptions médicales, avril 1957(ville d'Alger et subdivisions

Boite DZ/AN/ 17E 1/0722, Rapports médicaux (1946-1958), Rapport général, mai 1957, Alger.

Boite DZ/AN/ 17E 1/0723, Rapports médicaux (1946-1958), Rapports mensuels, Assistance médicale gratuite, Alger, juin 1957Boite DZ/AN/ 17E 1/0721, Rapports médicaux (1946-1958), Rapport général du directeur départementale de la santé, Rapports des médecins, Algérie, avril 1957. - Rapport médical sur les maladies contagieuses, avril 1957. - Rapports des circonscriptions médicales, avril 1957(ville d'Alger et subdivisions).

Boite DZ/AN/ 17E 1/0722, Rapports médicaux (1946-1958), Rapport général, mai 1957, Alger.

Boite DZ/AN/ 17E 1/0723, Rapports médicaux (1946-1958), Rapports mensuels, Assistance médicale gratuite, Alger, juin 1957

Boite A1477/32 - La médecine française en Algérie. Boite AP.62 -Fonctionnement de l'institut pasteur d'Algérie en 1958.

وباء الطاعون و أثره على المجتمع الزياني ما بين القرنيين (8-9هـ/14-15م)

The Plague Epidemic and its Impact on the Zaian Society between the (8-9 AH / 14-15 AD) Centuries

د رزيوي زينب

Rezzioui zineb

أستاذة محاضرة "ب"، جامعة د مولاي الطاهر، سعيدة/ الجزائر

Assistant Lecturer B , University of Moulay El Tahir, Saida/Algeria

البريد الالكتروني المهني:zineb.rezzioui@univ-saida.dz

الملخص:

يعتبر الطاعون من أشد الجوائح الطبيعية فتكا وفناء للبشرية، هز مجتمع المغرب الاوسط خلال العهد الزياني ما بين القرنين (8-9هـ/14-15م) العديد من المرات المتفاوتة من حيث القوة والانتشار، محدثا الرعب والدمار، مخلفا نتائج كارثية على مختلف الاصعدة خاصة الاجتماعية حاصدا لآلاف الارواح غير مفرق بين الفئات الاجتماعية، ومعطلا للحركة العلمية بموت كوكبة من خيرة العلماء، ومشلا للحياة الاقتصادية ومزعزعا للاستقرار السياسي للدولة الزيانية، فكان كارثة الاهية حقيقية بلا منازع، طوى البساط بما فيه، ومحى محاسن العمران، واخلى الديار وارعب الامم واذهل النفوس، وكأنه اليوم شبيه بفيروس كورونا، فالتاريخ يعيد نفسه، حيث استحضرت الام الجزائريين وتجددت مآسيهم مع الاوبئة والامراض الخطيرة.

ما المقصود بالوباء وماهي اسبابه؟، وما هي اهم الطواعين التي هزت المجتمع الزياني على مدار البحث، وماهي انعكاساتها وسلبياتها على المجتمع؟...

الكلمات المفتاحية: الوباء، الطاعون، المرض الهائل، المجتمع الزياني، الاسباب، النتائج، الانعكاسات...

Abstract:

The plague is one of the deadliest and most fatal natural pandemics for humanity that shook Central Moroccan society during the Zaian period between the (8.9E/14-15 AD) centuries. It hit it many times with varying power and proliferation, causing terror and destruction, with catastrophic consequences. Particularly in society, resulting in thousands of undisturbed lives among social groups, disrupting the scientific movement by the death of a constellation of scientists, crippling economic life and destabilizing the political stability of the Zaian State. As a matter of fact, it was a genuine and undisputed disaster that distorted architectural beauty, evacuated homes, terrified nations and stunned souls. Alike Coronavirus, history is repeating itself where the Algerians' suffering and tragedies with epidemics and serious diseases are rekindled. What do we mean by the epidemic and what are its causes? What are the most important plagues that have shaken Zaian society in the course of research, and what are their implications and disadvantages on society?

Key words: Epidemic, plague, massive disease, Zaian society, causes, consequences, Implications...

مقدمة:

عرف مجتمع المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط وبالضبط ما بين القرنيين (8-9هـ/14-15م) أيام حكم الزيانيين العديد من الامراض والاوبئة التي توالت عليه، ولعل كان أخطرها وباء الطاعون الذي يعد من اشد الجوائح الطبيعية فتكا وفناء للبشرية حيث تعددت أسبابه واختلفت أعراضه، وكان المجتمع الزياني الأكثر تضررا منه لموقعه الاستراتيجي المتوسطي، فإلى أي مدى تجسد ذلك وما هي انعكاساته على المجتمع خلال فترة البحث؟.

وللإجابة على هذا الاشكال نطرح التساؤلات التالية: ما المقصود بالطاعون؟ وماهي اسباب؟ وأعراضه؟ وانواعه؟ وما هي اهم الطواعين التي هزت المجتمع الزياني ما بين القرنين (8-9هـ/14-15م)؟ وما هي النتائج المتمخضة عنه؟.

وللموضوع أهمية كبيرة حيث يسلط الضور على موضوع حساس وهو الامراض والاوبئة بوبالخصوص مرض الطاعون بالمغرب الاوسط خلال العصر الوسيط، ويعد من المواضيع الجديرة بالدراسة لعلاقته بصحة الانسان ونمو السكان واهميتهما وتأثيرهما على نواحي الحياة سواء بالسلب او الايجاب، خاصة وان هذا المرض -الطاعون- كان ولا يزال يحصد الاف الارواح، وبالتالي فهو موضوع قديم حديث ومستجد حير العلماء ورجال الدين واحدث الرعب والخراب والدمار وفاقم من مشكلات المجتمع واحدث الثغرات على مختلف الاصعدة.

ولمعالجة هذا الموضوع تم تقسيمه الى ثلاثة محاور تضمن المحور الاول: ماهية الطاعون من خلال الاشارة الى مفهومه لغة واصطلاحا مع تبيان الانواع والاعراض، اما المحور الثاني فعالج اهم الطواعين التي هزت المجتمع الزياني خلال مدار البحث ولعل اهمها على الاطلاق الطاعون الأسود الذي نال حصة الاسد لوفرة المادة العلمية المعالجة له، واخيرا المحور الثالث التذي خصص لنتائج الطاعون وانعكاساته على المجتمع الزياني سواء من الناحية الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والسياسية.

أولا: ماهيــة الطاعون:

1- مفهوم الطاعون:

يعرفه الجوهري (ت393هـ/1002م) بأنه الموت الوجي من الوباء وجمعه طواعين: (الجوهري: 1979، ص2158)، ويعرفه ابن منظور (ت711هـ/1311م) بالوباء، وجمعه طواعين: (ابن منظور: (دت)، ص2678)، أما اصــطلاحا فقد تعددت التعاريف حوله وكثرت، ولعل أبرزها تعريف ابن الخطيب (ت776هـ/1374م) حيث قال عنه بأنه «مرض حاد حار السبب، سمّي المادة، يتصل بالروح بدءا بواسطة الهواء ، ويسري في العروق فيفسد الدم، ... وتتبعه الحمى ونفث الدم، أو يظهر عنه خراج»: (ابن الخطيب: 2015، ص65)، ويعتبره العســقلاني «مرض يعم الكثير من النـاس في جهة من الجهات، بخلاف المعتاد من امراض الناس، ويكون مرضــهم واحد بخلاف بقية الأوقات»: (ســمية مزدور: 2008-2009، ص21)، وبالتالي وضح صفة الاشتراك في المرض وانتشاره، أما الطبيب ابن خاتمة الاندلسي (ت770هـ/1369م) فيعرفه بأنه «حمى خبيثة دائمة عن سوء عن سوء مزاج قلبي، بسبب تغير الهواء عن حاله الطبيعية الى الحرارة والرطوبة مهلكة في الغالب»: (ابن خاتمة: 2013، صــص130-131)، وفي تعريف علمي هو نوع من الامراض التي تحدث زمن الوباء، وهو مرض بكتيري حاد مشترك بين الانسـان والحيوان، وبمعنى آخر هو مادة سـمية تحدث ورما قاتلا: (سـمية مزدور: 2008-2009، ص21).

2- أنواعـــه وأعراضـه:

يصنف الطاعون الى ثلاثة أصناف: يسمى الصنف الاول **بالطاعون العقدي او الدملي او الدبلي**، والثاني هو **الطاعون الانتاني اي الطاعون الدموي**، أما الصنف الثالث يسمى **الطاعون الرئوي** وهو اخطر الطواعين واشدها فتكا بالبشرية واكثرها انتشارا نتيجة فساد الهواء الذي يصيب الرئة: (سمية مزدور: 2008-2009، ص21-22)، اما الاعراض الخاصة بهذا الوباء فقد أشار اليها ابن خاتمة الاندلسي (ت707هـ/1369م) في كتابه المسمى: "**تحصيل الغرض القاصد في تفصيل المرض المرض الو افد**" عند حديثه عن طاعون (749هـ/1348م) الذي شملت أعراضه جميع أصناف الطواعين الثلاثة، حيث تبدأ بظهور كرب وعرق غير عام دون ارتفاع في درجة حرارة المريض، ثم يظهر عليه فتور واضطراب كلي مصحوب بتشنج وبرد في الاطراف وعطش مراري في اليوم الثاني، ثم يحس بثقل في صدره وضيق في التنفس مع نفث الدم، كما يظهر عليه العطش الشديد والسعال وسواد في اللسان او تورم الحلق مع صعوبة البلع، كما يشعر بالاختناق ووجع الرأس والدوار والغثيان...وهي تقريبا أعراض الطاعون الرئوي من الصنف الثالث (الطاعون الرئوي)، بالإضافة الى ظهور قروح سود تظهر جليا في مواضع من الجسد كالظهر والعنق وهي غالبا اعراض الطاعون الانتاني، وكذلك ظهور نتوء تحت الابط او خلف الاذنين وهي صفات النوع الطاعون العقدي: (ابن خاتمة: 2013، صص164-165) .

ثانيا: الطواعين التي هزت المجتمع الزياني مابين القرنيين (8-9هـ/14-15م):

لقد عرف المجتمع الزياني وباء الطاعون عدة مرات خلال العهد الزياني حيث كان يظهر على رأس كل عشر سنوات او خمس عشرة سنة او عشرين سنة تقريبا، حيث كان يحصد في كل مرة الاف الضحايا (عبد العزيز فيلالي: 2002، ج1، ص251)، ولعل أهمها على الاطلاق: طاعون (749هـ/1348م) الذي اسهمت المصادر التاريخية في ذكره والتأريخ له لهوله وشدة وقعه على المغرب الاوسط خاصة والعالم عامة حيث نال حصة الاسد، عكس الطواعين الاخرى التي اختلفت حدتها ووقعها على المجتمع الزياني على مدار البحث، لكن ما يلاحظ ان المعلومات حولها شحيحة فلا تعطينا المصادر ما يشفي غليلنا وانما اكتفت بإشارات خاطفة كسنة الوقوع والمكان أو ما ينجر عنها من خسائر...ولا نعلم لماذا هذا السكوت؟.

1- طاعـــون (749هـ/1348م) :

أ- نشأته و انتشاره:

يعد من اعظم الأوبئة التي بليت بها البشرية على الاطلاق في العصر الوسيط حيث عم سائر انحاء العالم، خاصة بلاد الغرب الاسلامي التي لم يكن وجوده بها وليد هذا التاريخ ولا المكان، وانما وفد عليها من "بلاد الخطا" بالصين التي تعتبر بؤرة ظهوره وانطلاقته الاولى سنة (734هـ/1334م) حسبما وضحه ابن الخطيب في كتابه: «هذا الوقاع ابتدأ بأرض الخطا والصين في حدود عام اربعة وثلاثين وسبع مائة، حدث بذلك غير واحد ممن يوثق به...كالشيخ القاضي الحاج أبي عبد الله بن بطوطة وغيره»: (ابن الخطيب: 2015، ص ص75-76) ، وهناك من يعتبر "**بحيرة بلكاش**" في الارضي المنغولية بآسيا الوسطى هي المهد الاول للطاعون باعتبار ان هذه المنطقة مركز للتجارة العالمية: (حسين بوجرة: 2011، ص139).

ومهما اختلفت الروايات في تحديد مكان انطلاقته الا ان المصادر اتفقت على شموليته وعالميته أمثال المقريزي (ت845هـ/1442م) في كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك: «ولم يكن هذا الوباء كما عهد في اقليم دون اقليم بل عم الاقاليم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وجميع اجناس بني آدم »: (المقريزي: 1997، ص21-22).

أما أسباب انتقاله وانتشاره كالنار في الهشيم راجع بالدرجة الاولى الى كون هذا المرض من الامراض سريعة الانتشار والعدوى، حيث انتقل من بلاد الصين وصولا الى الغرب الاسلامي مارا بعدة مناطق مخربا ومدمرا، فمن بؤرة نشأته عام (734هـ) الى البلاد التركية والعراق والشام وبلاد الحبشة، ومصر والبلاد الاوروبية والاندلس...ومن صقيلية وصولا الى افريقية سنة (749هـ/1348م)، ثم شمل بلاد المغرب الاسلامي الاوسط والاقصى: (ابن خاتمة: 2013، ص144)، ولعل

أسباب ذلك راجعة الى الاحتكاك التجاري العالمي البحري والبري والعلمي بالإضافة الى قوافل الحجاج، ويعد المغرب الاوسط من المناطق المتأثرة بهذا الوباء كونه منطقة عبور نحو المشرق للحج والتجارة وطلب العلم: (سمية مزدور: 2008-2009، ص137)، كما يعد الجيش المريني في عهد السلطان ابي الحسن الراجع من حملته من افريقية هو المسؤول عن نقل العدوى الى كل من المغربين الاوسط والاقصى، وقد هلك عدد كبير من جيشه وكوكبة من العلماء المرافقين له حسبما ذكره القيرواني: (القيرواني: 1286هـ، ص ص130-131).

ومن الاسباب الاخرى التي ساهمت في نشر الوباء على المستوى المحلي هو حضور الجنائز أيام الطاعون وعيادة المرضى المصابين بالمرض، وزيارة الاضرحة والاولياء حيث شاع بين العوام أن الطاعون عقاب الهي جماعي جراء انشغالاتهم بملذات الدنيا وارتكابهم للمعاصي: (احمد العدوي: 2018، ص45)، بالإضافة الى طبيعة هذا المرض سريع الانتشار والعدوى بسب فساد الهواء وقلة الامكانيات وسوء التغذية وتردي الاحوال وانعدام النظافة وعدم .

ب- تسمياته:

ان طاعون (749هـ/1348م) يعد حدثا عالميا، يعتبر من الاوبئة الوافدة أتى من مناطق بعيدة، تميز بسرعة انتشاره وانتقاله، اختلفت تسمياته وتعددت لكنها اتفقت كلها على هول وشدة المشهد المرعب لهذا الوباء الفتاك، حيث سماه الطبيب الأندلسي ابن خاتمة أبو جعفر احمد بن علي بن محمد بن علي (ت770هـ/1396م) "**بالمرض الو افد**" وألف فيه كتابا سماه "**تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الو افد**"، اما لسان الدين بن الخطيب (ت776هـ/1374م) فقد سماه "**المرض الهائل**" لهول هذا المرض وشدة فتكه، ودون فيه كتابا سماه "**مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل**"، في حين اصطلح عليه الرحالة المغربي ابن بطوطة (ت779هـ/1377م) اسم "**الطاعون الاعظم**" واعتبره الكبر الطواعين التي هزت العالم في اواخر ربيع الثاني سنة تسع واربعين منتصف القرن الثامن للهجرة: (ابن بطوطة: 1987، ص670).

أما ابن قنفذ القسنطيني (ت810هـ/1408م) الذي فقد فيه والده سنة (750هـ/ 1349م) فقد اصطلح عليه اسم "**الوباء العظيم العام**": (ابن قنفذ القسنطيني: (دت)، ص47)، وسمّي أيضا "**الوباء العظيم**" من قبل ابن ثغري البردي (ت874هـ/1470م) في قوله: «عم الوباء العظيم الدنيا حتى دخل مكة المشرفة ثم عم شرق الارض وغربها فمات في هذا الطاعون...خلائق لا تحصى»: (ابن ثغر البردي: (دت)، ص233) ، وسماه المقريزي (ت845هـ/1442م) "**الموتان**" في قوله: «وعم الموتان افريقية بأسرها جبالها وصحاريها ومدنها وجافت من الموتى وبقيت اموال العربان سائبة لا تجد من يرعاها»: (المقريزي: 1997، ص84) ، في حين سماه السيوطي جلال الدين (ت911هـ/1505م) "**الطاعون العام**" في وقوله: «ثم كان الطاعون العام في سنة تسع وأربعين وسبعمائة ولم يعهد له نظير في الدنيا فانه طبق الارض شرقا وغربا»: (جلال الدين السيوطي: (دت) ص50)، وهذا دليل على عالمية هذا الحدث.

أما عبد الرحمن بن خلدون (ت808هـ/1406م) فقد سماه "**الطاعون الجارف**" «جاء الطاعون الجارف فطوى البساط بما فيه» حسب تعبيره، واعتبره كارثة حقيقية صوره بصور مأساوية ومحزنة، كيف لها وهو الذي فقد فيه والديه وكوكبة من مشيخته: (عبد الرحمن بن خلدون، 1425هـ، ص64).

أما مصطلح "**الموت الأسود**" فهو مصطلح اطلقه الاوروبيون حيث يقول ريتشارد ووكر «بين عامي 1347-1351م انتشر وباء فتاك، عرف باسم الموت الأسود كالنار في الهشيم في اوروبا، أما اسمه فقد اشتق من التورمات السوداء التي ظهرت على العديد من ضحاياه، ومعظم هؤلاء هلكوا بعدما عانوا من آلام مبرحة»، ويضيف أيضا في وصفه لهذا الوباء الفتاك «كان الموت الأسود أسوأ وباء عرفه البشر حيث فتك بأكثر من 25 مليون من الاوروبيين، وغير حياة اولائك الذين نجو من براثينه»: (ريتشارد ووكر: دت، ص28) .

ج- وصفـه في المصـادر التاريخية:

تعددت الكتابات التي تناولت هذا الوباء واختلفت من مصـادر تاريخية وطبية وفقهية وكتب تراجم ومناقب ورحلات، حيث عبرت بأسـاليب مختلفة شـعرية او نثرية عن هول هذا المرض وشـدته وانعكاسـاته السـلبية في جميع الاصـعدة والنواحي، وصفه ابن الوردي (ت749هـ/1348م) في قصيدة هذه مقتطفات منها:

الله أكبر من وباء قد سبا	ويصول في العقلاء كالمجنون
سنت أسنته لكل مدينـة	فعجبت للمكروه في المسنون
قالوا فسـاد الهواء يردي	فقلت يردي هوى الفسـاد
كم سيئـات وكم خطايا	نادى عليـكم بها المنادي
هـذا يوصـي بأولاده	وهـذا يودع جيـرانه
وهذا يهئ اشغـاله	وهـذا يجـهز اكفـانه
وهذا يصـالح اعداءه	وهذا يلاطـف اخـوانه
وهذا يحبـس املاكـه	وهـذا يحـرر غلمـانه
وهذا يغـير اخلاقـه	وهـذا يعيـر ميـزانه
الا ان هذا الوبـاء قد سبا	وقد كان يرسـل طوفانه
فلا عاصم اليـوم من أمره	سوى رحمـة الله سبحانه.

(ابن الوردي: 2006، ص ص89-91).

أما عبد الرحمن بن خلدون فيصفه بأدق الأوصاف فهو الذي عاصره وتأثر به، حيث قال عنه: «هذا ما نزل بالعمران شـرقا وغربا في منتصـف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الامم وذهب باهل الجيل وطوى كثيرا من محاسـن العمران ومحاها، وجاء على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ظلالها وفل من حدها واوهن من سلطانها، وتداعت الى التلاشي واضمحلال اموالها، وانتفض عمران الارض بانتفاض البشـر، فخربت الامصـار ودرست السـبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضـعفت الدول والقبائل، وتبدل السـاكن وكأني بالمشـرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب، لكن على نسـبته ومقدار عمرانه، وكأنما نادى لسـكان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة والله وارث الارض ومن عليها...تحول العالم باسـره وكانه خلق جديد ونشـأة مسـتأنفة وعالم محدث»: (ابن خلدون: دت، ص302).

2- طاعون (764-765هـ/1363-1364م):

ظهر سـنة (760هـ/1359م) في اوروبا ومنها انتشـر حيث عم بلاد الشـام ومصـر وبلاد المغرب الاسـلامي عامة والمغرب الأوسـط خاصـة، وذلك في عهد السـلطان الزياني أبو حمو موسـى الثاني ابتداء من سـنة (764هـ/ 1363م)، واعتبر الوباء الثاني بعد الطاعون الأسود، لكن المعلومات حوله شحيحة حيث اغفلت المصادر التاريخية العديد من الحقائق حوله الا انها اتفقت أنه طاعون حقيقي من جملة أعراضه أنه « كان يتبع أهل الدار فمن بصق أحد منهم دما تحققوا كلهم عدما»، وتعد المجاعة التي اجتاحت تلمسـان خلال تلك الفترة وما صـاحبها من غلاء المعيشـة وتعطل النشـاط الزراعي نتيجة الصـراعات الداخلية حول كرسـي العرش بين ابي حمو وابنه ابو زيان بن سـعيد دور كبير في تفشـي هذا الوباء وانتشـاره: (خالد بلعربي: 2009، ص23).

3- طاعون (845هـ/1441م):

يعد واحد من الطواعين التي اهملتها المصادر التاريخية وغيبت حقائقها، حيث اشارت الى أنه ساد المغرب الاوسط وشمل بلاد المغرب جملة، وسمي "بتقصيص الظفرة" ، لكن لا نعلم سبب التسمية ولا معناها وهل مردها الى امر علمي ام مجرد لفظة شعبية تعتريها الكثير من الضبابية: (سمية مزدور: 2008-2009، ص141).

لكن ما هو معلوم حول هذا الطاعون أنه ترك أثرا كبيرا على تلمسان الزيانية والمجتمع ككل، وذلك في عهد حاكمها ابو العباس أحمد العاقل الذي حكم ما بين (834-866هـ/1431-1462م) الذي تميز حكمه بالرخاء الاقتصادي والاستقرار السياسي ورغم هذا كان لهذا الوباء وقع شديد على المجتمع الزياني، الذي لم يكن منشأه وانما دخيلا عليه وافدا عليه من أوروبا أو المشرق بواسطة السفن التي رصت في الموانئ الحاملة للبحارة المصابين او للقوارض المصابة بهذا الوباء حيث نشروا المرض بين الاصحاء: (خالد بلعربي: 2009، ص24).

ثالثا: نتائج الطاعون و انعكاساته على المجتمع الزياني:

كان لوباء الطاعون جملة من النتائج الوخيمة على مختلف الاصعدة التي أثرت سلبا على مجتمع المغرب الأوسط، وصفه ابن مرزوق مجسدا صورة صادقة لما آلت اليه عاصمة الزيانيين بالمغرب الاوسط في قوله: «ففيه انقرض وتغيرت الأحوال، ثم دهى تلمسان بعده وفي زمانه اتصل من الفتنة ما اتصل الى الآنا »: (ابن مرزوق: 1989، ص187)، ومن جملة النتائج المترتبة عن هذه الطواعين نذكر:

1- النتائج الاجتماعية:

وبالخصوص من الناحية الديموغرافية فقد حصد الكثير من الارواح، حيث لم تذكر المصادر التي ارخت للمغرب الاوسط خلال فترة البحث تفاصيل حول عدد الوفيات بالضبط التي خلفها هذا الطاعون، فلا يوجد احصائيات وبيانات رقمية، وانما اكتفت بذكر عبارات دالة على هول المشهد مثل: "وباء كبير هلك فيه الكثير من الخلق"، "ووباء حصد الكثير من الارواح"، لكن ما هو معروف انه اصاب العامة والأسياد والشيوخ وأصحاب القصور والجاه دون تمييز ودون استثناء، حيث أباد عائلات بأكملها كما حدث لأسرة التفريسي التلمساني التي انقرضت كلها من جراء هذا الوباء العظيم، الآ أن وطأه كان كبيرا على فئة العامة من الناس خاصة الفقراء منهم الذين اشتد عليهم الوباء، وتفشى بينهم كالنار في الهشيم لكثرة الاختلاط وقلة الامكانيات وتردي ظروف الحياة خاصة غلاء المعيشة وسوء التغذية وعدم توفر شروط الصحة، وعدم التقيد بشروط النظافة والوقاية والحجر: (عبد العزيز فيلالي: 2002، ج1، ص ص251-253).

ولقد صورت بعض المصادر ووصفت معاناة الناس وضررهم من جراء هذا الوباء حيث قال عنه لسان الدين بن الخطيب: «ووجدنا الطاعون في بيوتهم قد نزل، واحتجز منهم الكثير الى القبور، واعتزل وبقر وبزل، واحتجز فلا تبصر الا ميتا يخرج، وكم ميتا الى جنازة يسرج، وصراخا يرفع وعويلا بحيث لا ينفع، فعفنا الهجوم وألفنا الوجوم وتراوغنا عن العمران، وسألنا الله السلامة من معرة ذلك القران»: (ابن الخطيب: 1989، ص90)، كما وصفه العسقلاني في قوله: «عمّ البلاد، وغمّ النفوس، وأذاب الأكباد، وتقدم بعساكر المنايا، زدهم بكبرياء الرزايا، وألقى الرعب في قلوب البرايا، وأبقى في صدورهم البلايا، إن دخل بيتا كان آخره أهله خروجا، وإن عدل الى فناء اجج نار الفناء تأجيجا»: (العسقلاني: (دت)، ص22)،

أما عبد الرحمن بن خلدون فاعتبره كارثة انسانية هزت المجتمع الزياني عند حديثه عن الطاعون الاسود منتصف القرن الثامن هجري (14م) في قوله: «ذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها»: (ابن خلدون: 1425هـ، ص64)، ومن نتائجه أيضا استفحال ظاهرة زيارة الأولياء والتبرك بقبورهم، كما تفشت ظاهرة التسول والنهب والسلب وقطع الطرق. (نبيل شريخي: 2021، ص135).

2- النتائج العلمية:

لقد سبب الطاعون الذي هز المجتمع الزياني على مدار البحث الى تراجع كبير في الحياة الثقافية وتعطل للحياة الفكرية من خلال موت كوكبة من خيرة العلماء الزيانيين والنماذج عن ذلك كثيرة احتفظت بها كتب الوفيات وكتب التراجم، ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن قنفذ عن سنة 750هـ (1349م) وهي السنة التي صادفت وجود الطاعون الاسود حيث أشار الى موت الكثير من الفقهاء، ومنهم والده: **الخطيب الحسن بن علي** صاحب كتاب "**المسنون في احكام الطاعون** ": (ابن قنفذ: دت، ص ص354-356)، والعالم بالعقليات الفقيه **أبو عبد الله محمد بن يحى النجار**، ويضاف اليه **ابن الامام ابو موسى عيسى، و ابو العباس احمد بن عبد الرحمن المغراوي التلمساني الشهير بابن زاغو** (ت845هـ/1442م)...: (عبد العزيز فيلالي: 2002، ج1، ص253)، وعلماء آخرون «وكم هلكت فينا من امم (تلمسان)، وكم انجلى من أهلها اعلام، كم كابدوا من محن» (خالد بلعربي: 2009، ص24).

وبالتالي كان لهذا الطاعون دور كبير في تعطل الرحلة العلمية لموت الشيوخ وكثرة انتشار المرض واغلاق المراكز العلمية لأبوابها، ولم نجد احسن من قول عبد الرحمن بن خلدون المعروف عنه كثرة الرحلات العلمية والاتصال بالشيوخ للاستزادة في العلم، حيث استاء لفقد والديه وعدد من شيوخه في الوباء الأسود (749هم1349م) الذي سماه بالجارف، وعن ذلك يقول: «ولم ازل منذ نشأت وناهزت مكبا على تحصيل العلم حريصا على اقتناء الفضائل متنقلا بين دروس العلم وحلقاته الى ان جاء الطاعون الجارف وذهب بالأعيان والصدور وجميع المشيخة وهلك أبواي رحمهما الله»، ويضيف «وخرجت معهم أول سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة، وكنت منطويا على مفارقتهم لما أصابني من الاستيحاش لذهاب أشياخي وعطلتي عن طلب العلم»: (ابن خلدون: 1425هـ، ص ص64-65).

فكان لذلك انعكاس سلبي على منحى الحياة العلمية حيث كدست أسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه وانقطاع سند العلم والتعلم خاصة في المائة الثامنة للهجرة (14م) حسب عبد الرحمن بن خلدون الذي عاصر الاوضاع ووصف الاحوال كما وضحناه سابقا: (ابن خلدون: دت، ص463).

3- النتائج الاقتصادية:

لقد ساهمت الطواعين التي ابتلي بها المغرب الاوسط على مدار البحث في تدهور وتضرر المجتمع الزياني اقتصاديا من خلال موت الكثير من اليد العاملة وهجرتها لمواطنهم خوفا من الوباء وتحولهم الى مناطق اخرى لم يصلها الوباء حتى لو كانت على مشارف الصحراء أو بعيدة، هذا الهروب ساهم في تدهور الوضع الاقتصادي وذلك بتخلي الفلاحين عن اراضيهم الزراعية وبالتالي تأثر النشاط الفلاحي وتعطل فقلت المنتوجات وزاد الفقر، كما تقلص النشاط الحرفي والصناعي فكان سببا في انقراض الكثير من الحرف والمهن، مما أدى الى تدهور الانتاج وارتفاع الاسعار والاحتكار للعديد من المنتوجات الاساسية، وفي ظل هذا الارتفاع الرهيب للسلع عجز الكثير من الناس في ظل الفقر وضعف القدرة الشرائية على اقتناء هذه المواد الغذائية: (محمد الصديق بولغيث، بن عمر حمدادو: 2021، ص373)، وعلى سبيل المثال لا الحصر سجل القمح ارتفاعا رهيبا في اسعاره، بالإضافة الى الشعير واللحوم والعسل والسمن والزيت، والملح الذي بلغ رطله دينارين، والدجاج التي بيعت الواحدة منها ب8دنانير ذهبا، والثمن البقرة الواحدة 60مثقالا والضأن سبعة ونصف، والخس بعشرين درهما واللفت ب15 درهما والبطيخ ب30درهما... غلاء فاحش وفقر مدقع ومرض هالك كل ذلك زاد من معاناة سكان الدولة الزيانية في ظل تفشي وباء الطاعون، حيث اخليت بعض القرى بهروب الاسر نحو مناطق أخرى بعيدة عن هذا المرض. (خالد بلعربي: 2009، ص ص24-25).

4- النتائج السياسية:

لقد ساهمت الطواعين التي هزت المغرب الاوسط خلال العهد المدروس في تدهور كبير للوضع السياسي فتقلص النشاط الاقتصادي وتردي الاوضاع الاجتماعية كان له دور في زيادة عدم الاستقرار السياسي داخل الدولة الزيانية، وكثرة

النهب والسرقة واضطراب الاحوال الامنية، بالإضافة الى تفاقم الصراعات الداخلية على السلطة بين افرادها، مما اضعف الدولة وجعلها فريسة سهلة في يد الطامعين خاصة من قبل جيرانها الحفصيين والمرينيين: (خالد بلعربي: 2009، ص25)، كل ذلك كان له دور في انتقاص العمران وتسريع عجلة نهاية عمر الدولة حسبما اشار اليه عبد الرحمن بن خلدون حول نتائج طاعون منتصف القرن الثامن هجري (14م) وانعكاساته على المجتمع بصفة عامة والزياني بصفة خاصة حيث قال: «هذا ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الامم وذهب باهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، وجاء على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلص من ظلالها وفل من حدها واوهن من سلطانها، وتداعت الى التلاشي واضمحلال اموالها، وانتفض عمران الارض بانتفاض البشر، فخربت الامصار ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل،...تحول العالم باسره وكانه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث»: (ابن خلدون: دت، ص302).

خاتمـــــة:

وختاما توصلنا الى أن الطواعين تعد من اخطر الكوارث والجوائح الطبيعية التي تعرضت لها المجتمعات البشرية عامة، والمجتمع الزياني واحد من هذه المجتمعات المتأثر بها، حيث عرفها عدة مرات خاصة ما بين القرنين (8-9هـ/ 14-15م) مخلفة آثارا سلبية كبيرة ونتائج وخيمة على مختلف الاصعدة، ادت الى هلاك السكان بحصدها للآلاف دون تمييز، كما شلت النمو الاقتصادي والاجتماعي وعطلت الحياة السياسية، وبالتالي فاقمت من مشاكل المجتمع الزياني على مدار البحث تاركة ثغرات مظلمة في حياة سكانه.

وما تجدر الاشارة اليه أيضا وهو ما نحاول شد انظار الباحثين اليه، أن هذه المواضيع المتعلقة بالأمراض والاوبئة خلال العصر الوسيط تعتبر من المواضيع الجديرة بالدراسة، بحيث لا تزال مرتعا خصبا يحتاج الى التنقيب والبحث والتقصي في العديد من معطيات الامور، فمن جهة يلاحظ المتتبع للمصادر الزيانية والمتمعن فيها انها قليلة الاهتمام بالأمراض والاوبئة، رغم أهميتها وتأثيرها على صحة الانسان ونمو السكان والاقتصاد والعمران، ومن جهة أخرى ان التاريخ يعيد نفسه كما هو الحال المعاش اليوم فلا بد من دراسة الماضي لفهم الحاضر وبناء المستقبل.

قائمة المراجع:

- ابن ابي دينار القيرواني (1286هـ): **المؤنس في اخبار افريقية وتونس**، ط1، الطبعة الدولية التونسية، دون مكان نشر.
- ابن بطوطة (1987): **رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار**، ج1، تحقيق: محمد عبد المنعم العريان ومراد مصطفى القصاص، ط1، دار احياء العلوم، بيروت.
- ابن ثغر البردي (دت): **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ج10، دار الكتب المؤسسة المصرية العامة، مصر.
- ابن خاتمة الاندلسي (2013): **تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد**، تحقيق: محمد حسن، ط1، المجمع التونسي للعلوم والاداب والفنون، بيت الحكمة، قرطاج، تونس.
- ابن قنفذ القسنطيني (دت): **انس الفقير وعز الحقير**، تحقيق: محمد الفاسي واودلف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط.
- ابن مرزوق الخطيب (1989): **المناقب المرزوقية**، تقديم وتحقيق: السعدية فاغية، ج3، مطبعة النجاح، الدار البيضاء.
- ابو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري (1979): **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق: احمد عبد الغفور عطار، ط2، ج6، دار العلم للملايين، بيروت.

- أحمد العدوي (2018): **الطاعون في العصر الاموي صفحات مجهولة من تاريخ الخلافة الاموية** ، ط1، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، بيروت.
- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (دت): بذل الماعون في فضل الطاعون، تحقيق: أحمد عاصم عبد القادر الكاتب، دار العاصمة، الرياض.
- تقي الدين المقريزي (1997): **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق: محمد عبد القاهر عطا، ج4، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.
- جلال الدين السيوطي (دت): **رسالة في مرض الطاعون**، تحقيق: اياد عبد الحسين صهود الخفاجي وعمار محمد يونس الساعدي، كلية التربية، قسم التاريخ، جامعة كربلاء، (دت).
- حسين بوجرة (2011): **الطاعون وبدع الطاعون الحراك الاجتماعي في بلاد المغرب بين الفقيه والطبيب والامير (1350-1800م)**، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
- خالد بلعربي، (2009): المجاعات والأوبئة بتلمسان في العهد الزياني (698-845هـ/1299-1442م)، دورية كان التاريخية، ع4، مجلة الكترونية (دورية الكترونية محكمة ربع سنوية).
- ريتشارد ووكر (دت): **الاوبئة والطاعون**، الدار العربية للعلوم، ناشرون، دون مكان نشر.
- زين الدين ابو حفص بن مظفر بن عمر الوردي (2006هـ): **ديوان ابن الوردي**، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط1، دار الافاق العربية، القاهرة.
- سمية مزدور، (2008-2009): **المجاعات والاوبئة في المغرب الاوسط (588-927هـ/1192-1520م)**، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة منتوري، قسنطينة.
- عبد الرحمن بن خلدون (1425هـ): **رحلة ابن خلدون شرقا وغربا**، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.
- عبد الرحمن بن خلدون (دت): **مقدمة ابن خلدون**، مطبعة مصطفى محمد، مصر.
- عبد العزيز فيلالي (2002): **تلمسان في العهد الزياني**، ج1، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر.
- لسان الدين بن الخطيب (2015): **مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل**، تحقيق: حياة قارة، منشورات دار الايمان، الرباط .
- محمد الصديق بولغيث، بن عمر حمدادو، (مارس 2021): المجاعات والأوبئة وانعكاساتها على الوضع الديموغرافي ببايلك الغرب الجزائري في أواخر القرن الثامن عشر، المجلد 11، ع1، مجلة عصور الجديدة، وهران 1 أحمد بن بلة.
- محمد بن اكرم بن علي ابن منظور (دت): **لسان العرب**، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، مجلد4، دار المعارف، القاهرة.
- نبيل شريخي (ابريل 2021): موقف مجتمع المغرب الأوسط من المجاعات والأوبئة في القرنيين الثامن والتاسع الهجريين (14 و15م) من خلال النصوص النوازلية، المجلد 12، ع1، الحوار المتوسطي، جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس.

كتاب مجاعات قسنطينة لصالح العنتري

-دراسة وتقديم-

Constantine's famine book for Salih El-Antari

- study and presentation -

ط.د- مراد بن زفور.

S.Dr - Mourad benzeffour.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة - الجزائر.

Emir Abd El kader University of Islamic Sciences, Constantine- Algeria.

ط.د - خولة بوشامة.

S.Dr - Khaoula bouchama

جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2 - الجزائر.

Abd el hamid Mehri University, Constantine 2 - Algeria.

الملخص:

يعد كتاب مجاعات قسنطينة لصاحبه صالح العنتري من المصادر المهمة التي تم تأليفها خلال القرن التاسع عشر والتي تؤرخ لتلك المرحلة، لما يحتويه من معلومات بالغة الأهمية شملت نواحي مختلفة سواءً من الناحية الاجتماعية أو الصحية وحتى الاقتصادية، فهو بذلك يوثق لتلك الأزمات التي وقعت في قسنطينة ونواحيها في الفترة المذكورة سلفاً، الذي نقل لنا ذلك محاولا إعطاء صورة شاملة عن تلك الأوضاع بأسلوب سلس ونظرة علمية، محاولاً إيجاد العلل والبحث عن تفسير تلك الظواهر تفسيراً منطقيا، إيجاد الحلول واقتراحها للعمل بها لأجل التخلص أو تقليل المشاكل التي خلفتها تلك الأزمات، وانطلاقا من هنا حاولنا من خلال هذا الكتاب الوقوف عند أهم الأزمات التي نقلها الكاتب بهدف الاستقراء و التحليل.

الكلمات المفتاحية: المجاعات، الأزمات، صالح العنتري، قسنطينة، القرن التاسع عشر.

Abstract:

The Famines of Constantine's book by its owner Saleh al-Antari is one of the important sources thatwerewrittenduring the nineteenth century and that dated back to that stage, becauseitcontainsvery important information thatincludeddifferent aspects, whether in terms of social, health and even economic. So it documents those crises that occurred in Constantine and its environs during the aforementioned period. It conveyedthisto us in an attempt to give a comprehensive picture of these situations in a smooth and a scientific way, trying to find the causes and search for a logical explanation of these phenomena,

finding and proposing solutions to workwiththem in order to dispose of or reduce the problems left by those crises. Fromthisstarting point, wetriedthroughthis book to stand on the most important crises transmitted by the writer for the purpose of induction and analysis.

Key words: The Famines , the crises, Salih El-Antari, Constantine, Algeria, 19th century.

مقدمة:

ينفرد الصالح العنتري بسمة ميزته عن غيره من كتاب زمانه، والذي برز خلال القرن التاسع عشر نظراً للأسلوب الذي تميزت به كتاباته، فقد استطاع أن ينقل أهم الأحداث بأسلوب سلس ونظرة علمية، متناولا بعض الظواهر بشيء من التحليل و التفسير المنطقي، أما فيما يخص الكتاب، فيعتبر من المصادر المهمة التي تم تأليفها خلال الفترة المذكورة سابقا، نظراً لوفرة المعلومات التي احتواها وتنوعها إذا ما قورن مع مؤلفي زمانه، فاحتوى هذا الكتاب عن تاريخ الأزمات التي عرفتها قسنطينة ونتائجها، إذ نقل ذلك بدقة ونظرة محايدة – إلى حدٍ ما – فضلا عن احترامه لسياق العرض التاريخي للأحداث، وعليه سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية استعراض إحدى أعماله والتي وثقت تاريخ الأزمات ونتائجها في قسنطينة استقراءً و تحليلا

أولا: التعريف بالمؤلف :

1-المولد و النشأة: ولد بين "1780/1800 .1876م" :

هو صالح بن محمد بن العنتري، أبوه محمد وكان كاتبا لدى الحاج أحمد باي آخر بايات قسنطينة[1]، أما عن تاريخ ميلاده فلم يحدد بالضبط، فأُرجع إلى أواخر العهد التركي، و عاش ما يزيد عن أربعين سنة من الاحتلال الفرنسي[2]، إذ اعتبرنا تاريخ تأليف كتاب مجاعات قسنطينة سنة "1870"م.

ففي معجم أعلام الجزائر يرجع عادل نويهض عام "1172هـ ـ 1780م" كسنة لميلاد صالح بن محمد العنتري القسنطيني الذي يقول في حقه بأنه: "بحاث له اشتغال بالتاريخ من أهل قسنطينة، أدرك أواخر العهد التركي"[3].

أما الدكتور ناصر الدين سعيدوني فيقول بأنه ولد ما بين "1205 ـ 1215، 1790 ـ 1880م"[4]، من عائلة خوجات وموظفين، إذ ارتبطت أسرته بخدمة الأتراك في الأعمال الإدارية و الكتابة الديوانية، خاصة في العهد الأخير لبايات قسنطينة، فجده أحمد كان موظفا وكاتبا لدى صالح باي " 1771 ـ 1791 م "[5] ، و ممثلا له لدى الشركات الأوروبية في مدينة عنابة، و

1- صالح بن العنتري ،(1974)، مجاعات قسنطينة، تح و تق: رابح بونار، ش.و.ن.ت، الجزائر، ص6.

2 - نفسه، ص8.

3- عادل نويهض،(1980)، من أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، ط2، بيروت، لبنان، ص247.

4- ناصر الدين سعيدوني،(1998)، من التراث التاريخي والجغرافي للمغرب الإسلامي، تراجم مؤرخين ورحالة جغرافيين، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان، ص533.

5- للمزيد أنظر: أوجين فايست،(2010)، تاريخ بايات قسنطينة في العهد التركي 1792 ـ 1873، تر: صالح نور، تق الشيخ عبد الرحمن شيبان، منشورات قرطبة، ط1، الجزائر، ص23.

شاركه في معركة بالعاصمة إلى جانب الجيش العثماني الرئيسي لصد حملة أوريلي[1] سنة 1775م و بعهدها بثلاث سنوات دونها الجد " أحمد " لأنه كان شاهد عيان.

وتولى أبوه محمد وظيفة الكاتب الخاص لدى أحمد باي " 1826 ـ 1837 م "[2]، أما هو فقد أشتغل في منصب خوجة الدائرة أي كاتب بالمكتب العربي (Bureau Arab) الذي أنشئ بقسنطينة تحت إشراف الضابط بواسوني (Boissonnet) الذي عرف عند الأهالي باسم القبطان بوسنَة.

2- تعليمه:

تلقى صالح العنتري تعليمه بقسنطينة قبل الاحتلال الفرنسي على يد شيوخ أجلاء و أشهرهم عالم قسنطينة وقاضيها لمدة طويلة ذائع الصيت الشيخ أحمد بن السعيد العباسي " ت 1835 "[3]، كما أخذ أيضا على بن مسعود الونيسي، ومكن شيوخه أيضا " أبو راشد عمار الراشدي المعروف بالمغربي صاحب الباع الطويل في المعقول و المنقول، و مفتي المالكية، وخطيب جامع القصبة، كما درس على يد الشيخ محمد بن عبد الرحمان باش تارزي.

أظهر منذ صغره ولعا بالأخبار و التواريخ، و ميلا إلى العمل الإداري، فالتحق بالوظيف باكرا و تولى الكتابة وتحرير الكتابات باسم الضابط الفرنسي بوسواني و أثناء ذلك اكتسب إطلاعا على الثقافة الفرنسية، و اشتغل مدة بالتدريس ثم تولى القضاء بقسنطينة وعد واحدًا من علماء قسنطينة و أعيانها الذين شاركوا في رحلة باريس 1844م، و اطلعوا على المظاهر العمرانية بها[4]

3- وفاته و آثاره :

أشتهر العنتري بكتابين ألفهما أثناء قيامه بوظيفة بالمكتب العربي بقسنطينة و هما:

. " الأخبار المبينة المذكورة في تاريخ قسنطينة 1844م و تم طبعه بإعانة بوانسوني في سنة 1846م "[5].

. كتاب " مجاعات قسنطينة " الذي ألفه باقتراح من دولير سنة 1870م - مصدر هذه الدراسة-

كما ترك صالح العنتري العديد من المصنفات منها : " هدية الإخوان في موافقة التاريخين و توقعات الزمان وقواعد متفرقة لها شأن [6]" و له أيضا " إخوانيات " و هي عبارة عن رسائل شخصية للعنتري، كان قد كتبها لبعض أصدقائه و معارفه، و منها رسالة وجهها إلى المترجم فيرو و يعرض فيها حالته، و يشكو من معاملة الفرنسيين له و عدم " تقديرهم لخدماته، و تفسير نموذجا لهذا النوع من الرسائل الإخوانية التي تعكس جانبا من حياة صالح العنتري[7].

أما عن وفاة فلم يوجد أي تاريخ أو أي إشارة أو وثيقة تساعدنا على التحقق من تاريخ وفاته بالضبط، و إنما يرجح تاريخ وفاته إلى بعد انتهائه من تأليف كتابه " مجاعات قسنطينة" سنة 1870 بقليل[8].

---

1 - حملة اوريلي: للمزيد أنظر: جون . ب . وولف:،(2009)، الجزائر و أوروبا(1500-1830)، تر: أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، ص-ص403-407.

2- صالح بن العنتري،(2005)، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة، تح: يحي بوعزيز، دار هومة، الجزائر، ص138.

3- لمزيد حول هذه الشخصية، أنظر: أبي القاسم محمد الحفناوي،(2012)، تعريف الخلف برجال السلف، تح: نور الدين شترة، ج2، دار كردادة، ط1، الجزائر، ص59.

4- بلقاسم ميسوم،(2001.2002)، الكتابات التاريخية الجزائرية خلال الفترة الاستعمارية 1830-1962، دراسة تحليلية، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، ص48.

5- صالح بن العنتري: مجاعات قسنطينة، المصدر السابق، ص7.

6 . ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص536.

7 . أبو القاسم سعد الله،(1986)، رسالة العنتري إلى المترجم فيرو، مجلة الدراسات التاريخية، ع1، ص101.

8. صالح بن العنتري : مجاعات قسنطينة، المصدر السابق، ص7.

ثانيا: تحليل مضمون الكتاب :

كتاب مجاعات قسنطينة لصالح العنتري ألفه سنة 1870 باقتراح من الضابط الفرنسي " دولير" الذي تولى إدارة المكتب العربي بقسنطينة في تلك الفترة، وهنا تكلم العنتري في إفتتاح كتابه قائلا: " ....المحترم السيد ولير المتولي سائر العرب بقسنطينة وعمالتها، فإنه رام جمع ذلك، وكلفني بالسعي فيما هنالك ..."[1]، و واصل ذات المؤلف حديثه واصفاً رسالته هذه بأنها: "...وبعد فهذه نبذة لطيفة وفريدة رائعة طريفة كثيرة المعنى قليلة المبنى، فيها الكلام عن سنين القحط والمسغبة التي تركت أهل بلد قسنطينة ووطنها ذوي مترية"[2].

تطرق العنتري في مؤلفه هذا إلى الأوضاع الاجتماعية و الصحية و الاقتصادية، خاصة الأزمات التي ضربت قسنطينة وأعمالها أواخر العهد العثماني وبداية فترة الاحتلال، وهنا اهتم بإبراز الظروف المصاحبة لذلك والتي تسببت في حدوث المجاعة والغلاء في الفترة الممتدة بين 1803- 1870 .

أما عن مصادر العنتري في تأليفه كتاب مجاعات قسنطينة، نجده قد اعتمد على المعلومات التي رواها من الشيوخ المسنين والرواة الثقاة الذين أدركوها و أحاطوا بجزئياتها وتأثروا بأحداثها خاصة حين حديثه عن الأزمة التي حدثت أيام حكم صالح باي.

كما اعتمد على الوثائق و التسجيلات الإدارية المحلية ودفاتر بعض العائلات، وهذا ما جعله مطلعاً وملما بأحوال قسنطينة ومتتبعا للأحداث المتعلقة بتاريخها[3]. هذا دون نسيان كتاباته الخاصة، كما نعلم أنه من معاصري تقريبا كل الأزمات التي تناولها بالكتابة عدا الأزمة الأولى، وهنا نقل لنا تلك المشاهد معتمدا على نفسه باعتباره عاش في الفترة الممتدة بين 1780- 1876 كما سبق لنا وأن قلنا.

تطرق الكاتب في كتابه إلى موضوع المجاعات التي ضربت قسنطينة خلال القرن التاسع عشر، والتي هي عبارة عن ظاهرة اجتماعية واقتصادية وطبيعية تتعرض لها المنطقة ما متى توفرت مجموعة من الأسباب و العوامل، وتعتبر الجزائر عموماً وعمالة قسنطينة على وجه الخصوص من المناطق التي تعرضت لحدوث مجاعات متكررة، حسب ما ورد في المصادر الأجنبية و المحلية ولعل أبرز تلك المصادر، هذا الذي بين أيدينا والذي خصص موضوعه للحديث عن تلك الأزمات التي أصابت قسنطينة خلال القرن التاسع عشر.

1-أزمة 1804:

افتتح المؤلف مضمون كتابه بالحديث عن المجاعة التي وقعت سنتي 1804- 1805، والتي امتدت إلى غاية 1808، كان سبب حدوثها القحط والجفاف الذي أصاب المنطقة أنذلك، خلف على إثره أضرار جسيمة انعكست سلبا على أهل قسنطينة، سواءً من الناحية الاجتماعية بسبب الخسائر البشرية، أو من الناحية الاقتصادية والتي تجلب نتائجها في تراجع القيمة الشرائية للنقود بسبب غلاء الأسعار وندرة الحبوب.

2- أزمة 1808 (ثورة إبن الأحرش الدرقاوي) :

اختلف في نسب ابن الأحرش الدرقاوي، ذكر محمد بن يوسف الزياني أنه فتى من المغرب الأقصى، درعي النسب، مالكي المذهب، درقاوي الطريقة[4]، في المقابل قدمه إبن العطار في كتابه تاريخ قسنطينة على أنه رجل مغربي، يزعم أنه من

---

1 - صالح العنتري: مجاعات قسنطينة، المصدر السابق ، ص 26.

2 - نفسه، ص ص 25-26.

3 - أبو عمران الشيخ وأخرون،(2004)، معجم مشاهير المغاربة، منشورات دحلب، الجزائر، ص 351.

4 - محمد بن يوسف الزياني،(1978)، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تق: المهدي أبو عبيدي، منشورات الجزائر، ص 207.

شرفاء فاس دخل وسط القبائل وبث دعوته فيهم، مفادها الاستيلاء على قسنطينة واستغل درجة الاحتقان الشعبي ونقمته على السلطة بسبب الأوضاع المزرية التي كان يعيشها، من جهة أخرى ادعى المهداوية، وحتى يلقي كلامه رواجا أكثر بين الناس أظهر لهم بعض الكرامات مثل أن البارود لا يعمل على جسده [1](لا يقتل بالرصاص).

أما صالح العنتري فذكر أن اسمه الكامل هو سي محمد بن عبد الله الشريف، وكتأكيد لما تفضل به ابن العطار حين حديثه عن كرامات هذا الرجل الذي ادعى المهداوية، الأخير الذي زعم بأنه صاحب الوقت، وأن دعوته مستجابة والنصر حليفه حيثما ذهب، هذا بالإضافة إلى بارود عدوه لا يضره ولا يصيب أتباعه وغيرها من الخرافات[2] .

على كلٍ وبسبب تدني -إلى حدٍ ما- الوضع الثقافي عموماً والتعليمي على وجه الخصوص، لأسباب يعلمها دارسي تاريخ تلك الفترة استطاع ابن الأحرش التأثير عن القبائل و استمالهم وضمهم إلى أتباعه، أمثال قبيلة أولاد سعدون وبني مسلم وبني خطاب وغيرهم، مكنه هذا من حشد ما لا يقل عن 10 ألاف مقاتل زحف بهم نحو قسنطينة التي كانت تحت حكم عثمان باي، هذا الأخير في تلك الفترة كان ناحية سطيف منهمكا في جمع الضرائب[3].

وبذلك قاد ابن الأحرش الانتفاضة ضد السلطة التركية، واعتمد في ذلك على إثارة القبائل بدءًا بقبائل جيجل سنة 1803، محدثا إشكالاً عويصاً عهد الباي عثمان، حين هدّد عاصمة بايلك الشرق، وفي ذات الوقت ازداد نفوذ الرجل، خاصة بعد تحالفه مع الشيخ الزبوجي مقدم الطريقة الرحمانية في منطقة فرجيوة، الذي كان بدوره في صراع مع السلطة العثمانية، ممثلة في شخص عثمان باي الذي قلص من نفوذه، وبذلك حرمه من امتيازات كثيرة كان يحصل عليها شأنه شأن باقي المرابطين وشيوخ الطرق الصوفية، وهذا ما جعل مقدم تلك الطريقة يتحالف مع ابن الأحرش ليستفيد كل شخص مما يريد، وعليه أضاف ابن الأحرش مزيد من المجندين لجيشه من مريدي تلك الطريقة إلى أن أسس جيشا قوامه 60 ألف مقاتل، وبمساعدته قاد تمرداً داخل بايلك الشرق، و انتشر في كامل نواحيه، وقع على إثره مذابح رهيبة، كانت نتائجها وخيمة على السكان لخصها صالح العنتري في ما يلي:

-موت عدد كبير من السكان ورجال السلطة ومنهم الباي عثمان نفسه نواحي جيجل .

-كان من تداعيات هذه الثورة حدوث أزمة خانقة أسفرت على حدوث مجاعة عظيمة أضرت بأهل قسنطينة وسائر وطنها، و ما زاد الأمور أكثر تعقيداً، نزول الجوائح والقحوط والتي استمرت إلى سنين متوالية، هذا بالإضافة إلى كثر الفتن حسبه، واشتداد الأهوال التي حالت دون خدمة الفلاحين لأراضيهم، والتي بدورها نتج عنها أزمة أخرى تمثلت في ندرة الحبوب في السوق ما أدى إلى ارتفاع أسعارها بشكل فاحش، وهنا عالج صالح العنتري إحدى المواضيع الاقتصادية التي قلما نجدها في كتابات تلك الحقبة الزمنية.

3- نظرية القيمة:

لقد عالج صالح العنتري في الكتاب الذي بين أيدينا كذلك المسائل الاقتصادية والمتعلقة بالأسعار و الغلاء، وتأثير هذا الإشكال على حياة السكان بأسلوب سلس ولغة سليمة وروح علمية ونظرة مبتكرة، متلمسا العلل وعارضاً الأحكام و الظواهر الاقتصادية بين العهدين العثماني وفترة الاحتلال الفرنسي[4] .

وهنا تناول العنتري بعض الأحداث الاقتصادية بالدرس والتحليل، وحاول البحث عن العلل التي تتحكم فيها، وهو يقترب بذلك في تحليل هذه الأحداث من علماء الاقتصاد الذين درسوا هذه المواضيع وقد عالج هذه الأحداث الاقتصادية بروح علمية، جعلته يبحث عن الأسباب القريبة التي تفسر الظاهرة الاقتصادية تفسيرا منطقيا، والعمل على الحد أو

1 - أحمد بن المبارك بن العطار ،(1971)، تاريخ قسنطينة ، تع: رابح بونار، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 46.

2 - صالح العنتري: مجاعات قسنطينة، المصدر السابق ، ص 29.

3 - أحمد بن لمبارك بن العطار: المصدر السابق، ص46.

4- ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 535.

التقليل من المشاكل التي تخلفها هذه الأزمات، فهو يرى أن قيمة الحبوب قد ارتفعت أثناء هذه الأزمة ارتفاعا جنونيا لقلة العرض وكثرة الطلب على الحبوب .

4- التدابير المتبعة في عملية إسعاف المتضررين:

أشار صالح العنتري إلى نقطة مهمة جدا في كتابه، تمثلت في أهم الإجراءات المتبعة في عملية إسعاف الأشخاص الذين تضرروا أثناء وبعد هذه الأزمات المتتالية، والتي خلّفت مجاعات أصابت فئات واسعة من المجتمع المدني وبدرجة أكبر المجتمع الريفي، باعتبار أن غالبية سكان الجزائر أنذلك كانوا يسكنون الأرياف، فقد كان وقع هذه المجاعة شديداً خاصة على قاطني البادية كما أسلفنا الذكر، الذين غادروا قراهم ومنازلهم وزحفوا نحو المدينة" قسنطينة "، فقد وصف العنتري وضعهم بالمزري جدا، استنجادا برجال المخزن وببعض أعيان المدينة، الذين بدورهم استجابوا وهبّوا لتقديم يد العون، فقاموا بمساعدتهم وإسعافهم وفي سياق متصل قام الباي عبد الله بمراسلة كبار الأعراش يحثهم على ضرورة جلب الحبوب لبيعها بأسعار مناسبة في السوق، كما قام المحسنين بتقديم الحبوب وتوزيعها على المحتاجين وتلبية بعض متطلباتهم وكل هذا تحت إشراف السلطات.

واصل الكاتب حديثه عن الموضوع الذي ذكرناه سابقاً، لكن هذه المرة أثناء فترة الاحتلال الفرنسي، والذي نقل لنا أزمتين حديثا في الفترة الممتدة بين 1830- 1870، فخلال هذه المدة وقعت عدة مجاعات عل أبرزها تلك التي حدثت سنة 1838 وسنوات 1867 إلى 1870، خلفت آثار سيئة على سكان قسنطينة وسائر بلدها، من بينها انتشار الأمراض الفتاكة كالكوليرا و الطاعون و التيفيس وغيرها، هذا بالإضافة إلى الخسائر البشرية دون نسيان الخسائر المادية، من تلف للمحاصيل وضياع المدخرات وبيع العقارات و الأراضي تحت الضغوط لمختلفة التي أحاطت بهم، منها الديون المتراكمة جراء الضرائب العقارية الغير مدفوعة، وفوائد القروض الربوية التي كانوا يلجئون إلي أخذها من البنوك والمربين اليهود وغيرهم.

5-أزمة سنة 1838:

وهنا أشار الكاتب إلى وقوع قحط شديد وجفاف حل ببلد قسنطينة خلف نتائج كارثية، عادت أضرارها على سكان المنطقة، وسائر تخومها خاصة الجهة الجنوبية منها، المؤلف قام بتشخيص أهم الأسباب والعّلل التي عجلت بظهور وتفاقم هذه الأزمة تمثلت في:

- حدوث جائحة في سنة 1838 أثرت على الزرع كثيرا وأفسدته .
- عزوف الفلاحين على خدمة أراضيهم التي اعتادوا خدمتها، وذلك بسبب الأوضاع الغير مستقرة هناك ووضعية الآمن التي سادت المنطقة، خاصة وأنه لا يخفي علينا أنه خلال تلك الفترة عرفت تسارعا في الأحداث، أبرزها سقوط قسنطينة عاصمة بايلك الشرق سنة 1837، وسياسة القمع و النهب التي اتبعها الاحتلال الفرنسي (أرضا وشعبا)، هذا من جهة. ومن جهة أخرى أشار الكاتب إلى الاعتداءات المكرّرة الصادرة عن بعض الأعراش، نتيجة البلبلة التي أحدثها الاحتلال الفرنسي في تلك المناطق.
- كثرة الأمطار التي تساقطت خلال تلك السنة، صاحبها تساقطات كثيفة للثلوج في المنطقة طيلة فصل الشتاء، الأمر الذي أتلف ما تم زراعته، كما الحال دون قيام الفلاحين بأعمالهم الفلاحية وزراعة الأرض.

لقد كان لهذه الأزمة والتي ساهمت مجموعة من الأسباب و العوامل في تفاقمها نتائج وخيمة على سكان المنطقة، لخصها الكاتب في نتيجتين تمثلتا في:

1- الارتفاع الجنوبي في أسعار الحبوب خاصة المواد الواسعة الاستهلاك، كالقمح و الشعير وصاحبها غلاء في أسعار اللحوم و السمن و التمور، وباقي المواد الاستهلاكية الأخرى .
2- ضياع أملاك الناس وعقاراتهم تحت تأثير الجائحة، الأمر الذي جعلهم يلجئون إلى إبرام عقود ربوية مع اليهود، وهنا لاحظ العنتري أن " فئة اليهود" هي الفئة الوحيدة التي استفادت من هذه الأزمة، والذين استولوا خلال تلك

الفترة على أملاك المسلمين بفضل عقودهم الربوية، وأعطى مثال عن ذلك بقوله: " ... أن اليهودي كان يشتري الدار التي تساوي 10 ألاف فرنك ب 1000 فرنك لاغير... "[1].

6-أزمة سنوات 1866- 1870:

أشار الكاتب إلى هذه الأزمة ووصفها بالأخطر على الإطلاق، وذكر بأن المجاعات التي حدثت أنذلك كانت بمثابة نتيجة حتمية بسبب تجمع العديد من العوامل التي حدثت حينها والتي عجلت بظهورها، وأطلق عليها بأزمة الستينيات، والتي دامت الأربع سنوات عجاف وأرجع أسباب حدوثها إلى:

1- موجة الجفاف التي ضربت المنطقة خلال تلك السنوات .
2- حدوث الجوائح التي نزلت بالزرع والنباتات أدت إلى تلفها.
3- انتشار مرض" الرهمة" هكذا أطلق عليها الكاتب، والذي أصاب الماشية بسب سوء التغذية نتيجة قلة الكلأ وانعدام المراعي سنة 1867 ما أدى إلى هلاكها.
4- وصاحب كل هذه المشاكل، زحف الجراد سنة 1868، وما خلفه من خسائر مادية كبيرة جداً، الأمر الذي أدى إلى إتلاف المحاصيل والزرع و الأشجار والنباتات .

بعد أن تطرق الكاتب إلى ذكر الأسباب الرئيسية التي أدت إلى حدوث هذه المجاعة عدد نتائجها والتي أثرت وبدرجة كبيرة عن السير العادي للحياة الطبيعية، سواءً من الناحية الاجتماعية أو الصحية وحتى الاقتصادية ونتج عنها ما يلي:

1- ندرة الحبوب من الأسواق .
2- موت المواشي و الأنعام.
3- الارتفاع الفاحش وغلاء أسعار الحبوب بمخلف أنواعها طيلة سنوات الأزمة.
4- انتشار الأمراض الفتاكة و الأوبئة كالطاعون و الكوليرا والتيفيس وغيرها من الأمراض الأخرى.
5- وكنتيجة رئيسية حدث جرّاء ذلك ظهور المجاعة .

وهنا حاول العنتري نقل أحداث تلك المرحلة، وإعطاء صورة عامة على أوضاعها، خاصة وأن المجاعة التي حدث أنذلك أصابت مناطق واسعة من أرض الوطن شأنها شأن قسنطينة قائلا: "... إنها مجاعة شديدة أشرف الناس فيها عن الهلاك الأليم والبلاء العظيم ..." [2].

وفي ذات السياق، وكتأكيد لما تفضل به صالح العنتري على ما جرى خلال تلك السنوات، تحدث "الشقراني" عن تلك المجاعة، واصفا إياها بالكارثة التي ألمت بالوطن، وذلك لعدم توفر الأقوات بالنسبة للبشر والمراعي والعشب بالنسبة للماشية، حتى أنه لم يبالغ حين قال: " ... وأكلوا خشاش الأرض كاليبوش والسلاحف و الضفادع والسراطين، وحتى أنه لم يبقى خشاش على وجه الأرض، وأكلوا الكلاب وميتة الدواب، وبلغنا أنهم أكلوا حتى ميتة الآدميين ..."[3].

وبذالك مرّ على الجزائر أعسر فترات تاريخها، فقد عرفت طيلة سنوات ستينات القرن التاسع عشر أشد الأزمات وأخطرها على الإطلاق والتي امتدت لأربع سنوات منذ 1866 إلى سنة 1870[4]،فالكارثة لم تقتصر على حدوث المجاعة فقط،

---

1 - صالح العنتري: مجاعات قسنطينة، المصدر السابق، ص 49.

2 - نفسه: ص 54.

3 - أحمد بن عبد الرحمان الشقراني،(1991)، القول الأوسط في أخبار بعض من حلّ بالمغرب الأوسط، تح: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص49.

4- André nouché: (juin 2006-2007) colloque pour une Dimension et mecanismes en Algérie 1865-1870 crise de années, p85. lusttom critique et citoyene, lyon, France,

بل مهدت إلى ظهور أوبئة وأمراض أكثر فتكا، كوباء الطاعون والكوليرا اللذين انتشرا في المنطقة الشرقية للبلاد في الفترة الممتدة بين جويلية 1867 وجانفي 1868 مخلفا مالا يقل عن 34271 ضحية[1].

لقد خلفت هذه الأزمات خسائر فادحة في الأرواح البشرية، ففي دراسة قام بها " نوشي " على تعداد عمالة قسنطينة سنة 1870، ونقلها لنا الأستاذ "الجيلالي صاري " خلفت هذه الأزمة نتائج كارثية على التعداد السكاني والتي راح ضحيتها ما لا يقل عن 178074 ضحية[2]. وهنا وصف صالح العنتري ذلك الوضع المزري قائلا: "... واجتمعت على الخلائق حينئذ ثلاث مصائب عظام، الأول ضياع الزرع، والثاني موت المواشي، والثالثة كثرة الموت بسبب الوباء "[3].

هذا وقد أشار الكاتب إلى أن المجاعة لما اشتدّت بالأرياف بدأ الناس في الزحف نحو المدينة" قسنطينة" جماعات وفرادى رجالاً ونساءً، وتشرد بسببها الآلاف، وهنا قامت السلطات الفرنسية بتوفير ملاجئ لهم، حسبوا فيها إلزاماً وتحت حراسة مشدّدة من الشرطة.

وفي انتقاد شديد اللهجة- بالرغم من ميوله بعض الشيء للسلطات الفرنسية- ، لام الكاتب سياسة الاحتلال التي أفقرت الأهالي سوءًا في المدينة أو في الريف خلال تلك الفترة، وأفسحت المجال لتجارها المضاربين من استنزاف ثرواتهم، وتجريدهم من كل أملاكهم بكل الوسائل الجهنمية، ولاحظ أن جميع ملاّك العقارات والأراضي الفلاحية مدينين قلقين عن مصير أملاكهم.

ثالثا: النقد:

لعل ما يؤخذ عليه إعجابه بالحكم الفرنسي، و تفضيله على الحكم العثماني بالجزائر، في موقف المقارنة بينهما، و لعلَ ذلك يعود إلى موقفه من الأحداث و تأثره بالتطورات التي عرفتها قسنطينة أثناء و بعد حكم الحاج أحمد باي لها[4]. هذا من جهة، و من جهة أخرى أنَ العنتري كان في كل مرة يحاول إضفاء صورة غير صحيحة نسبيا عن الاستدمار الفرنسي، حيث نجده أشاد في أسوء الأحوال التي عرفها الجزائريون من مجاعة و موت جماعي جراء الإبادة و التعذيب و التقتيل بـ " الدور المزعوم " الذي لعبه المحتل في " التخفيف " من حدة الأزمات و هو أمر لم يسجله من المؤرخين الفرنسيين الموضوعيين في كتاباتهم عن تلك الأزمات التي حلت بالجزائريين في فترة الاحتلال[5].

رابعا: التقييم:

إن كتاب مجاعات لقسنطينة لصالح العنتري يعتبر أسمى إنتاج فكري في القرن التاسع عشر الميلادي، كما يعتبر مصدرًا أساسيا للفترة الأخيرة من العهد العثماني و السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي فأخذ عنه كل ما كتب عن تاريخ قسنطينة و لا سيما الفترة الأولى للاحتلال 1837 .1846.

كما تميّز صالح العنتري فيما كتبه عن تاريخ قسنطينة أو ما سجله من أزمات اقتصادية بالشرق الجزائري بوفرة المعلومات و تنوعها بالمقارنة إلى الشيخ أحمد المبارك وغيره، و كذلك بدقة ملاحظاته و نظرته المحايدة فضلا عن احترامه سياق العرض التاريخي للأحداث مع تجنبه للاستطراد إلا فيما يراه ضروريًا كضرب الأمثال الشعبية و إثبات أقوال الأولياء[6].

---

1 - عبد الحميد زوزو،(2008)، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصرة 1830- 1900، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص 27.

2 - الجيلالي صاري، (2008)، الكارثة الديمغرافية 1867-1868، تر: عمر المعراجي، منشورات أناب، الجزائر، ص 135.

3- صالح العنتري: مجاعات قسنطينة، المصدر السابق، ص 56.

4 . ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص536.

5 . صالح فركوس:،(2005)، تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال . المراحل الكبرى ، دار العلوم للنشر و التوزيع، الجزائر، ص373.

6 . ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص536.

كما يعتبر كتاب "مجاعات قسنطينة " من أهم المصادر التي تم تأليفها خلال القرن التاسع عشر الذي يعد الفترة الأخيرة لعصر الانحطاط الفكري بالجزائر، فقد استطاع العنتري أن يكتب في موضوع المباحث الاقتصادية التي كانت غريبة عن علماء عصره بأسلوب علمي بسيط، و أن يسجل فيها بعض الملاحظات الموفقة حول القيمة والأسعار، و أن يشير إلى جشع التجار و المضاربين من اليهود و غيرهم و أن يحلل الأزمات الاقتصادية الحادة التي كانت تنشأ عن القحط و الآفات العارضة تحليلا دقيقا مصيبا[1].

كما يستحق أن نسجل كتاب " مجاعات قسنطينة لصالح العنتري " أن يرفع إلى منزلة التي رفعت إليها رسالة " المقريزي " " ت.845 هـ " في رسالة " إغاثة الأمة بكشف الغمة "، و خاصة فيما يتصل بارتفاع الأسعار وقيمة النقود[2].

خاتمة:

يعتبر كتاب مجاعات قسطينة مصدراً من المصادر المهمة التي يلجأ إليها الباحثون عند إنجازهم لدراسات حول منطقة قسنطينة خلال القرن التاسع عشر، فبالرغم من صغر حجم الكتاب إلا أنه يحتوي على كم هائل من المعلومات، والتي لا يمكن الاستغناء عنها خاصة وأنه اعتمد على مصادر من الدرجة الأولى حين تأليفه هذا الكتاب، سوءاً كانت وثائق رسمية أو معتمدًا على نفسه، ناقلا لنا مشاهد تلك الفترة باعتباره عايش كل الأزمات التي دونها في هذا الكتاب، ولم يقتصر على هذا وحسب فالمتصفح لكتابه يلاحظ أسلوبه السلس ولغته السليمة، ونظرته المبتكرة خاصة عندما حاول تحليل بعض القضايا الاقتصادية تحليلا علمياً ومنطقي.

قائمة المراجع:

باللغة العربية:

1. أبو القاسم سعد الله: (1986)، رسالة العنتري إلى المترجم فيرو ، مجلة الدراسات التاريخية، ع1.
2. أبو عمران الشيخ وأخرون: (2004)، معجم مشاهير المغاربة، منشورات دحلب، الجزائر.
3. أحمد بن المبارك بن العطار : (1971)، تاريخ قسنطينة ، تع: رابح بونار، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
4. أحمد بن عبد الرحمان الشقراني: (1991)، القول الأوسط في أخبار بعض من حلّ بالمغرب الأوسط، تح: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان
5. أوجين فايست:(2010)، تاريخ بايات قسنطينة في العهد التركي 1792 ـ 1873، تر: صالح نور، تق الشيخ عبد الرحمن شيبان، منشورات قرطبة، ط1، الجزائر.
6. بلقاسم ميسوم: (2001-2002)، الكتابات التاريخية الجزائرية خلال الفترة الاستعمارية 1830-1962، دراسة تحليلية، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة الجزائر.
7. جون.ب.وولف: (2009)، الجزائر و أوروبا 1500-1830، تر: أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر.
8. الجيلالي صاري: (2008)، الكارثة الديمغرافية 1867-1868، تر: عمر المعراجي، منشورات أناب، الجزائر.
9. صالح العنتري: (1974)،مجاعات قسنطينة، تح و تق: رابح بونار، ش.و.ن.ت، الجزائر.
10. صالح بن العنتري: (2005)، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة، تح: يحي بوعزيز، دار هومة، الجزائر.
11. صالح فركوس: (2005)، تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الإستقلال.المراحل الكبرى.، دار العلوم للنشر و التوزيع، الجزائر.

1.صالح بن العنتري: مجاعات قسنطينة ، المصدر السابق، ص20.

2.ناصر الدين سعيدوني: المرجع نفسه، ص536.

12. عادل نويهض: (1980)، من أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، ط2، بيروت، لبنان.
13. عبد الحميد زوزو: (2008)، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصرة 1830- 1900، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
14. محمد الحفناوي: (2012)، تعريف الخلف برجال السلف، تح: نور الدين شترة، ج2، دار كردادة، ط1، الجزائر.
15. محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تق: المهدي أبو عبيدي، منشورات الجزائر، 1978.
16. ناصر الدين سعيدوني: (1998)، من التراث التاريخي والجغرافي للمغرب الإسلامي، تراجم مؤرخين ورحالة جغرافيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

باللغة الأجنبية:

1. André nouché:(juin 2006-2007), La crise de années 1865-1870 en Algérie Dimension et mecanismes colloque pour une lusttom critique et citoyene, lyon, France.

دور المستشفيات العربية الاسلامية في علاج الأمراض والأوبئة في الوطن العربي خلال العصور الوسطى

The role of Arab islamic hospitals in treating diseases and epidemics in The Arab world during The Middle Ages.

د. زواوي مراد

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

جامعة أبو القاسم سعد الله (جامعة الجزائر2).

الجزائـــــر

ملخص:

تسعى هذه الورقة البحثية إلى إبراز دور المستشفيات العربية الاسلامية في علاج الأمراض والأوبئة في الوطن العربي خلال العصور الوسطى، حيث كان العرب يسمون المشافي ب مارستانات ، وهي في الأصل كلمة فارسية معناها (مكان المرضى) ، وأول ما شيد منها كان في دمشق بزمن الأمويين ، ثم شاع استعمالها في زمن العباسيين ، وكانت هذه المستشفيات مدارس للتعليم وأماكن للاستشفاء ، وتمرين للطلاب ، فجمعت بذلك بين ممارسة تعليم الطب وتطبيب المرضى . وكانت المستشفيات العربية الاسلامية على أنواع ، فمنها الثابتة ومنها المتنقلة ، وعالج المسلمون الأمراض الفتاكة كالجذام المعدي ، حيث نجد أن أول مؤسسة عرفت في بلاد العرب عالجت الجذام ، هي مجذمة الوليد بن عبد الملك في دمشق سنة (88هـ – 707م) ، ثم تعددت المجاذم بعد ذلك ، وعالجوا كذلك الطاعون ، وعالجوا بالإيحاء ، وحتى الأمراض العقلية المستعصية . وظهر كذلك علم التشريح، ويعتبر ابن النفيس أول من أفرد التشريح بكتاب خاص مستقل، وجمع فيه ما كتبه ابن سينا في كتاب القانون . ونجد أيضا علم الجراحة، ويعتبر أبو بكر الرازي أول من ابتكر خيوط الجراحة، ولكن أعظم الانجازات في جراحة القرون الوسطى، تعزى للزهراوي (940 – 1013م).

يهدف البحث إلى تناول مختلف العلوم كالطب والتشريح والصيدلة والجراحة، حيث كان العرب والمسلمون السباقين إلى اكتشاف هذه العلوم وتطويرها، كما يهدف إلى التعريف بمختلف العلماء باختلاف مشاربهم ، حيث نجد أن أغلبهم ترك ملخص علومه واكتشافه في مؤلفات أو كتب ما زالت إلى يومنا هذا .

الكلمات المفتاحية: المستشفيات العربية، الأمراض والأوبئة، الوطن العربي، العصور الوسطى، الطاعون، الجذام .

Abstract :

This research paper seeks to highlight The role of Arab islamic hospitals in treating diseases and epidemics in The Arab world during The Middle Ages , where The Arabs used to call hospitals Marstanat , which is originally a Persian word meaning The place of The sick , The first of i twas built in Damascus during The Umayyad period , the nit was widely used during The Abbasid period , these hospitals were schools of education , places of recovery and training for students , thus combining The practice of teaching medicine and treating patients , Arab and Islamic hospitals were of various types , some of them fixed and some of them mobile , and Muslims treated deadly diseases such as infectious leprosy, where we find that The first institution Known in The Arab countries to treat leprosy was The leprosy of al- Walid ibn Abd al –Malik in Damascus in The year 707 AD , then there were many lepers after that , and they also treated The plague and they were treated with inspiration, and even incurable mental illnesses , and The science of anatomy also appeared . ibn al – Nafis is The first to single out anatomy in a special independent book and collect what Ibn Sina wrote in The Book of The Law . we also find The science of surgery .Abu Bakr al – Razi is The first to invent surgical threads , but The greatest achievements in medieval surgery are due Al – Zahrawi 940-1013 AD.

The research aims to address various sciences such as medicine , anatomy , pharmacology and surgery , as Arabs and Muslims were The first to discover and develop these sciences.it also aims to introduce The various scholars of different

backgrounds , as we find that most of them left a summary of their sciences and discover them in books or books that are still to this day .

Key Words :Arab hospitals, Diseases and epidemics , Arab world , Middle age , The Plague , The Leprosy.

مقدمــة:

فتح العرب تحت راية الاسلام نصف العالم في مدة قرن واحد، ثم كان أعظم همهم أن يظموا إلى عظمة الفتح العلم ، فلم يكتمل القرن التاسع الميلادي حتى كان المسلمون قد ملكوا جميع علم اليونانيين ، فصارت بغداد مركز الحركة العقلية في الدنيا ، وبعد ذلك بثلاثة قرون صارت طليطلة في اسبانيا مركزا لترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية .

إشكالية الدراسة: لمعالجة هذا الموضوع، تطرقنا إلى إشكالية عامة للموضوع وهي : ما هو الدور الذي لعبته المستشفيات العربية الاسلامية في علاج مختلف الأمراض والأوبئة في الوطن العربي خلال فترة العصور الوسطى ؟ أو بعبارة أخرى : هل استطاعت المستشفيات العربية تحقيق ما انجزت من أجله في القضاء على الأمراض والأوبئة بأنواعها في فترة العصور المظلمة أو الوسطى ؟

وقد انبثقت عن الاشكالية العامة عدة تساؤلات فرعية نوجزها فيما يلي :

ما هي أنواع الأمراض والأوبئة التي انتشرت في منطقة الوطن العربي ؟ وهل استطاعت المستشفيات القضاء عليها في ظل الوسائل البدائية ؟ من هم أبرز العلماء الذين ظهروا خلال هذه الفترة ؟ وما هي أبرز العلوم التي ظهرت خلال هذه المرحلة وكيف تطورت ؟ كل هذه التساؤلات سنحاول الاجابة عنها في بحثنا هذا .

أهمية الدراسة : وقد اكتسى البحث أهمية بالغة باعتباره يدرس مواضيع علمية تتمثل في تطور العلم وأهمية العلوم كالطب والتشريح والصيدلة والجراحة ، حيث كان العرب المسلمون السباقين إلى اكتشاف هذه العلوم وتطويرها ، حيث في مرحلة العصور الوسطى كانت أوربا تعيش في عصر الانحطاط والركود ، وأطلق عليها بالعصور المظلمة .

أهداف البحث : وللبحث عدة أهداف من بينها : أن البحث تناول مختلف أنواع العلوم التي لم تكن معروفة من قبل ، والحاجة إليها هي من أدى إلى اكتشافها ، كما يهدف أيضا إلى التعريف بمختلف العلماء باختلاف مشاربهم ، حيث نجد أن أغلبهم ترك ملخص علومه واكتشافه في مؤلفات أو كتب وأغلبها ترجمت إلى اللغات اللاتينية وذلك بحاجة أوربا إليها .

خطة الدراسة : وقد تناولت في كتابة هذا البحث على عدة عناصر رئيسية تفرعت عنها عناصر ثانوية وهي: دور العرب في تطور العلوم ، والمستشفيات الاسلامية بأنواعها العامة والمتنقلة ، مع ذكر أشهر المستشفيات الاسلامية في تلك الفترة ، دون أن ننسى دور هذه المستشفيات في علاج مختلف الأمراض الفتاكة ونجد منها : علاج الطاعون ، الجذام ، علاج المصابين بالأمراض العقلية ، والعلاج بالإيحاء ، كما تطرقنا إلى ذكر أهم العلوم والعلماء العرب في فترة العصــور الوسطى ، كالطب الباطني ، وأبرز من مثله أبو بكر الرازي ، وعلم التشريح وأبرز من برع في هذا العلم ابن رشد والزهراوي وابن سينا ، ونجد أيضا علم الجراحة ، دون أن ننسى علم التخدير ، باعتبار المسلمون هم الأوائل الذين توصلوا إلى هذا العلم ، وعلم الصيدلة ، وفي الأخير اختتمنا بحثنا باستنتاجات توصلنا إليها من خلال هذه الورقة البحثية ، ثم أدرجنا المصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها في هذه الورقة البحثية . ومن بين المراجع التي اعتمدنا عليها كثيرا هي : - أحمد شوكت الشطي. (1970). *العرب والطب*. دمشق: منشورات وزارة الثقافة.

- أحمد علي الملا. (1977). *أثر العلماء المسلمين في الحضارة الإسلامية في صقلية وأثرها في أوربا*. القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر. والمستشرقة الألمانية زيغريد هونكة. (1933). *شمس العرب تسطع على الغرب*. (سعيد بيضون، و كامل

دسوقي، المترجمون) بيروت: منشورات دار الجبل. ونجد أيضا : علي عبد الله الرفاع. (1983). *أعلام العرب والمسلمين في الطب*. بيروت: مؤسسة الرسالة.

أولا:دور العرب في تطور العلوم :

احتل العرب والمسلمون المكانة الأولى في الطب، وظلوا على رأس العلم الطبي في العالم أكثر من خمسمائة عام . (ريسلر، 1993، صفحة 195)

ويشهد بذلك الدكتور غريسيب مدير جامعة برلين ورئيس قسم الطب فيها، حيث قال في حفل أقامه الطلاب المسلمون في ألمانيا :<< أيها الطلاب المسلمون ، والآن قد انعكس الأمر ، فنحن الأوروبيون يجب أن نؤدي ما علينا تجاهكم ، فما هذه العلوم إلا امتداد لعلوم آبائكم وشرح لمعارفهم ونظرياتهم ... فارجعوا إلى الماضي لتؤسسوا للمستقبل ، ففي قرآنكم علم وثقافة ونور ومعرفة ، وسلام عليكم يا طلابنا أن كنا في الماضي طلابكم >> . (الملا، 1977، صفحة 143)

وللأستاذ المستشرق ليبري مقولة شهيرة يقول فيها : << لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا عدة قرون >> . ويؤكد المستشرقون أن المسلمين لم يعطوا العالم الطب فحسب، بل وسعوا المفاهيم الانسانية في العالم ، ويؤكد ذلك قول **فالدستون** في مقال له بعنوان : << مكتشف الطب في بلاد العرب >> ، أنه مما لا يقبل الجدل أن المعلومات التي وصلت إلينا من أطباء العرب ، هي في الحقيقة الحجر الأساسي للطب الحديث ، ولولا هذه الاسهامات العظيمة لما وصل الطب الحديث إلى المستوى الذي وصل إليه . (الرفاع، 1983، صفحة 36)

ويقول البروفيسور **مونتغمري وات** ، أستاذ الدراسات الاسلامية في كتابه **فضل الاسلام على الحضارة الغربية** : << ينبغي أن نتوقع أن نجد لدى العرب تلك العبقرية الخارقة ، وتلك الموهبة المتمثلة في المخيلة العلمية ، وذلك الابتكار في الفكر ... فالعرب قد حققوا بالفعل انجازات رائعة في ميدان العلوم ، فقد علمونا استخدام الأرقام العربية ، وبهذا باتوا من مؤسسي الحساب المستخدم في الحياة اليومية ، وجعلوا من الجبر علما دقيقا ، وفي مجال الفلك فكان لهم عدد من الملاحظات القيمة >>. (وات، 1983، الصفحات 46-47)

ثانيا:المستشفيات الاسلامية :

كان العرب يسمون المشافي ب **(بيمارستانات)**، ويخففونها فيقولون **ماريستانات** ، وهي في الأصل كلمة فارسية معناها **(مكان المرضى)**، وأل ما شيد منها كان في دمشق بزمن الأمويين ، ثم شاع استعمالها في زمن العباسيين ، وكانت المارستانات مدارس للتعليم وأماكن للاستشفاء وتمارين للطلاب ، فجمعت بذلك بين ممارسة تعليم الطب وتطبيب المرضى . وكانت المستشفيات العربية الاسلامية على أنواع ، فمنها الثابتة ومنها المتنقلة .

2-1: المشافي الثابتة :

وتنقسم بدورها إلى نوعين : المشافي العامة ومشافي الاختصاص .

أ: المشافي العامة : كان لكل مدينة كبرى في الامبراطورية العربية الاسلامية مستشفى عام واحد على الأقل ، وكان للمستشفيات أوقاف تعولها ، وكانوا يعتبرون مقام إدارة المستشفى من أعظم مقامات الدولة .

ب: مشافي الاختصاص : واشتهر منها مشافي الجذام ، ومشافي الأمراض العقلية .

2-2: المشافي المتنقلة :

وتنقسم بدورها إلى أنواع : مشافي للإسعاف الأولي ، ومشافي حربية ومشافي محمولة .

أ: مشافي الاسعاف الأولي : كان النبي صلى الله عليه وسلم ، أول من أمر بالمشفى الحربي المتنقل في الاسلام ، فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة يقال لها رفيدة كانت تداوي الجرحى فيها . (شميسي باشا، 1999، الصفحات 25-26)

ب: المشافي الحربية : كان للجيش مشاف حربية يشرف عليها جراح خاص ملحق بالخليفة ، وكلما ذهب الخليفة إلى الحرب أخذ معه أطباءه للعناية بت وبجيشه ، وكانوا يحولون الجرحى إلى النساء لإسعافهم .

ج: البيمارستان المحمول : كان العرب أول من أنشأ المستشفى الذي ينقل من مكان إلى مكان بحسب الأوبئة والحروب .

ومما يجدر الاشارة إليه ، أن الخلفاء والسلاطين كانوا يتنافسون في بناء المستشفيات ، ومن هذه المستشفيات نجد : **مستشفى عضد الدولة في بغداد** ، ونجد أيضا **مستشفى النوري في دمشق** ، الذي بناه السلطان **نورالدين زنكي (1146-1174م).** (نفسه، صفحة 28)

إذن ، كانت المستشفيات الاسلامية بمثابة مدارس عالية للطب ، تقول الدكتورة **زيغريد هونكة** :<< وبينما طلاب العلم في بلاد الغرب يسهرون الليالي درسا وخفضا على ضوء الشموع في الأديرة ، كانت التجربة العملية في المستشفيات الاسلامية تسير مع العلم جنبا إلى جنب ، على أسرة المرضى ... واتبع العرب في تدريس الطب طريقة علمية تقضي على طلاب الطب أن يدخلوا مع المرضى في احتكاك دائم مثمر ، فيقابلوا ما قد تلقوه نظريا بما يشاهدونه . وهكذا تخرجت طبقة من الأطباء الذين لم يشهد العالم لهم آنذاك مثيلا إلا في عصرنا الحديث >>. (هونكة، 1933، صفحة 235)

ثالثا: أشهر المستشفيات الاسلامية :

- **البيمارستان العضدي :** أنشأه عضد الدولة **بن بويه** ، وفرغ من تعميره سنة **386هـ** .
- **البيمارستان العتيق بمصر:** أنشأه **أحمد بن طولون** في سنة **259هـ – 872م** .
- **البيمارستان المنصوري بمصر:** أنشأه **قلاوون** سنة **680هـ – 1281م** .
- **البيمارستان النوري بدمشق :** أنشأه الملك العادل **نورالدين زنكي في دمشق 1160م** ، هذا المستشفى يعالج فيه المرضى ، وتصرف لهم الأدوية بالمجان ، واستمرت على هذه الحال مدة ثلاث قرون . (ديورانت، 1995، صفحة 330)

وفي هذا الصدد ، يقول **جومارفرانسوا** ، أحد العلماء الذين استقدمتهم حملة نابليون إلى مصر في كتابه **وصف مدينة القاهرة** :<< أنشئ في القاهرة منذ خمسة قرون أو ستة ، عدة مارستانات لم يبق منها سوى مارستان واحد هو مارستان قلاوون ، صرف عليه سلاطين مصر مالا وافرا ، وأفرد فيه لكل مريض قاعة خاصة مع طبيب خاص >>. (جومار، 1988، صفحة 121)

ويصف لنا الرحالة **ابن جبير** أثناء زيارته القاهرة سنة **1182 م** ، المستشفى الذي بناه صلاح الدين بأنه قصر رحب جميل ، وقد تفنن أطباء العرب في أساليب معالجة المرضى في المشافي . كما دعا العباسيون إلى عقد المؤتمرات الطبية التي يجمع فيها الأطباء من كافة البلاد في موسم الحج ، حيث كانوا يعرضون أبحاثهم وتعاون الأطباء فيما بينهم على استنباط الاجتهاد في خدمة الصحة العامة . (الشطي، 1970، صفحة 97). أنظر أيضا : (الخطيب، 1988، الصفحات 44-45)

رابعا: دور المستشفيات في علاج مختلف الأمراض الفتاكة :

4-1: علاج الطاعون : (La Peste):

الطاعون هو مرض معدي ، تسببه جرثومة اليارسين(**Barcille de Yersin**) ، وقد أعاد بعض الأطباء سبب تكون هذه الجرثومة إلى تلوث وتسمم الجو ، بفعل الرائحة الكريهة لجثث الجراد الميت المتعفنة المنبعثة بعد كل اجتياح للبلاد . وهو مرض معدي ساهم في وفاة الآلاف عند انتشاره ، وتنقل عدوى هذا المرض إلى الانسان عن طريق التنفس أو المكوث في أماكن إقامة المصابين ، وأكثر ما يصيب هذا الوباء القوارض خاصة الفئران ، كما أن وباء الطاعون الذي أصاب منطقة شمال إفريقيا عبر العصور ، كان أغلبه مصحوبا بجائحة حيوانية ومنه ينتقل إلى البشر . (Marchika, 1927, p. 183). Voir Aussi - (Nouveau Larousse Médical, 1990)

والجدير بالذكر ، أن أول وصف علمي دقيق للطاعون ، هو ما جـــاء في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم :<< الطعن عرفناه فما الطاعون ؟ قال : << غدة كغدة البعير يخرج

من المراق والإبط >> .أخرجه البخاري في صحيحه . وفي رواية أحمد : << غدة كغدة الابل ، المقيم فيه كالشهيد ، والفار منه كالفار من الزحف >>.

وفي الوقت الذي كان فيه العرب ينظرون إلى مثل هذه العوارض والأمور نظرة علمية بحتة تدعمها التجربة ويغذيها البحث والتدقيق ، كان النصارى في أوربا يقفون أمامها مكتوفي الأيدي ، وهذا دليل على ثقافة العرب آنذاك ، وتأخر النصارى الفكري في أوربا . (شاخت و بوزورث، 1985، الصفحات 340-341)

ظهرت النظرية العربية القائلة بانتشار الداء بسبب العدوى ، والحل الوحيد للقضاء عليه أو التقليل منه ، هو العزل ومنع الاجتماعات ، وظلت نصائح العرب للقيام بمكافحة الأوبئة بشكل نظامي نافذة المفعول ، وبقيت دون تغيير حتى ظهور قوانين مكافحة الأوبئة . (هونكة، نفسه، صفحة 311).أنظر أيضا : - (كامو، 1981، صفحة 40)

4-2: علاج الجذام : Hansons' disease:

الجذام هو مرض جلدي معدي يظهر على شكل تقرحات جلدية شديدة ، تتفاقم لتسبب تلف في الأعصاب ، الذراعين والساقين ومناطق الجلد حول الجسم ، بالإضافة إلى ضعف العضلات ، ويعد من الأمراض الجلدية القديمة جدا ، ويحدث المرض نتيجة الاصابة بالبكتيريا المتفطرة الجذامية .

وفي هذا السياق ، كتب **ابن مسكويه** في النصف الأول من القرن التاسع الميلادي وصفا شاملا لمرض الجذام ، كمرض معد دون أن يربطه بغضب السماء عكس الأوروبيون ، وعامل المسلمون المجذومين معاملة لائقة . وقد خصصت المجاذم لعلاج المجذومين ، وأول مؤسسة عرفت في بلاد العرب هي مجذمة الوليد بن عبد الملك في دمشق سنة 88هـ – 707م ، ثم تعددت المجاذم بعد ذلك . وتعد المجاذم العربية أول دور عولج فيها المصابون بالجذام معالجة فنية ، وكان الدخول إليها غير تابع لقيد أو شرط . (شميسي باشا، نفسه، صفحة 39) . أنظر أيضا : - (Nouveau Larousse Médical, 1990)

تقول زيغريد هونكة :<< الحق يقال ، إن العاطفة الانسانية التي كانت رائدة عند العرب في معالجتهم للمرضى ، أيا كان نوع المرض وأيا كان خطره ، لهي مشرفة كل التشريف ، ولم يعرف لها الأوروبيون مثيلا ، بل لجأوا إلى معاملة المرضى الذين لا رجاء في شفاءهم معاملة الحيوانات الضارية ، فكانوا يقصونهم عن المجتمع ويرمون بهم في أعماق السجون المظلمة ... في الوقت الذي كان الأوربيون يتصرفون هذا التصرف ؛ كان العرب يخصصون المستشفيات أو أجنحة المستشفيات لمرض الجذام وغير ذلك . (هونكة، نفسه، الصفحات 273-274)

4-3: علاج المصابين بالأمراض العقلية :

تأسست مارستانات الأمراض العقلية في زمن الأمويين للعناية بالذين أصابهم مس أو اعتراهم ضعف عقلي، فقد كان المسلمون يعتبرون المعتوهين معدمين وعالة على احسان الدولة ، لأن إصابتهم بقضاء من الله وقدره ، ولقبوا بالمجذوبين وكلمة مجذوب يقصدون بتا أن الله قد جذبه إليه ، وبالتالي يجب معاملته بالحسنى . (الشطي، نفسه، صفحة 95)

والجدير بالذكر، أنه امتدت الرعاية الطبية إلى جميع أنحاء الدولة الاسلامية، إذ كان الأطباء المسلمون يزورون السجون من حين لآخر لعلاج المسجونين ، كما قاموا بزيارات للقرى النائية ، واهتم الأطباء المسلمون أيضا بعلاج الأمراض النفسية ، فلم يتجنب الأطباء المرض ، وينظرون إليهم نظرة احتقار، كما يفعل الأوربيون معهم آنذاك . (شامة، 1980، صفحة 137)

أنشأ المسلمون أول مصح للأمراض العقلية في بغداد منذ القرن الثاني الهجري، أي قبل إنشاء مصح فالنسا في أوربا بسبعمائة سنة، وبينما كان المرضى العقليون يعتبرون مجرمين أو مسكونين بالشيطان في أوربا، كان المسلمون يعالجون

المرضى برحمة ورعاية يتولاها أطباء متخصصون في الأمراض العصبية، وصار هناك في وقت مبكر مصحات للمرضى العقليين والنفسيين في كل المدن الاسلامية الكبرى . (ريسلر، نفسه، صفحة 119)

4-4: العلاج بالإيحاء:

برع أطباء العرب المعالجة بالإيحاء ، ومن ذلك ما روي عن أبي البركان هبة الله بن ملكان ، وذلك أنه مريضا ببغداد أصيب بالسوداء (**المانخوليا**)، وكان يعتقد أن على رأسه برميلا ، وأنه لا يفارقه أبدا فعالجه جماعة من الأطباء دون جدوى ، وانتهى الأمر به إلى ابن ملكان ، ففكر الطبيب ابن ملكان واهتدى إلى فكرة وهي التداوي بالأمور الوهمية ، وأشار ابن ملكان إلى غلامه بإحضار برميل دون أن يشعر المريض بذلك ، فلما أقبل المريض على ابن ملكان قال له : لا بد أن أكسر هذا البرميل وأريحك منه ، ثم أدار خشبة وضرب فوق رأسه بنحو ذراع ، وعند ذلك رمى الغلام البرميل من أعلى السطح ، وتكسر قطعا كثيرة ، وأثر فيه الوهم حيث برئ من علته تلك ، وهذا باب عظيم في المداواة . (الشطي، نفسه، صفحة 108)

والجدير بالذكر ، أنه كان لا يسمح للطبيب بالممارسة الطبية إلا بعد أن يمتحنه كبار الأطباء ويصدرون له إجازة بالممارسة ، واستحدث منصب المحتسب ، الذي يراقب أعمال الأطباء والصيادلة والعشابين ، حتى لا يحدث خلل أو خطأ ، وله سلطات واسعة في معاقبة المعتدي عند ثبوت عدوانه . (البار، 1995، صفحة 36)

خامسا: أهم العلوم والعلماء العرب في فترة العصور الوسطى :

1-5 : الطب الباطني (الداخلي):

إن كل فروع فنون الشفاء تقريبا في الاسلام، كانت مدينة للجهود التي بذلها **حنين بن اسحاق العبادي (809-873م)**،

من خلال ترجمته لأهم الكتابات الطبية اليونانية ، وجعلها متوفرة باللغة العربية ، كما أرسى أساسا متينا لتطور الطب العربي ، وذلك بابتكاره علم المنهج المتميز الذي تم السير عليه وتعديله في القرون اللاحقة .

وفي نهاية القرن التاسع ، بدأ يتألق نجم جديد في الأوساط الصيدلانية الطبية العربية ، ألا وهو الطبيب **أبو بكر الرازي (865 – 925م)**، الذي أصبح أعظم طبيب سريري ، ومعلم طب وفيلسوف في عصره ، وأما كتابه (**الكتاب المنصوري**) ، حول الطب السريري والداخلي ، فأصبح مرجعا أساسيا ، ونجد أيضا خليفة الرازي المشهور **علي بن عباس المجوسي (المتوفي عام 994م)**، فقد عرض في كتابه **(الملكي)**، مفاهيم جديدة بخصوص تأثير البيئة على الصحة ، وأما **ابن بطلان (المتوفى عام 1068م)**، فقد كتب كتاب **تقويم الصحة** ، الذي يدور حول المحافظة على الصحة واستعادتها ، وقد أكسبه شرفا رفيعا في الأوساط الطبية خلال القرون الوسطى ، وكانت مسقط رأس فيلسوف وطبيب آخر هو **موسى بن ميمون (1134م – 1204م)**، الذي كتب بشكل مكثف عن الطب الداخلي . (شميسي باشا، نفسه، الصفحات 53-54)

وفي القرن الثاني عشر الميلادي ، أنجبت قرطبة **ابن رشد** الأندلسي العربي الفيلسوف والطبيب ، وبما أنه استنتج أن الشخص لا يصاب بالحصبة مرتين ؛ فمن الممكن أن نقول أن ابن رشد كان أول من كون فكرة أساسية عن علم المناعة ، كما أنجبت الأندلس **(ابن الهيثم)**، الذي ألف كتاب (**البصريات**)، وظهر الصيدلاني العربي المسلم **ابن البيطار(1190 – 1248م)** ، الذي زار المشرق واليونان بحثا عن نباتات طبية ، وأورد في كتابه **(الجامع)** ألف وأربعمائة عقار، منها أربعمائة عقار لم يسبق أن وصفه أحد من قبله . (البار، 1996، صفحة 47)

2-5: علم التشريح عند المسلمين :

يقول الطبيب الفيلسوف **ابن رشد** : << **من اشتغل بالتشريح ازداد يقينا بالله**>>. هذه المقولة تدحض مزاعم بعض الغربيين التي تقول ، أن الأطباء المسلمين ليس لهم فضل في علم التشريح ، وأنهم لم يقوموا بتشريح الحيوانات والإنسان . ويقول الدكتور أمين أسعد خير الله في كتابه **الطب العربي** ، أن علماء الغرب أنكروا اسهام أطباء العرب والمسلمين في التشريح قائلين إن الشريعة الاسلامية تحرم تشريح الموتى ، ولكن من يبحث في المخطوطات الطبية العربية نجد أنهم

أسهموا مساهمة عظيمة في تقديم المعرف في التشريح بطرق مختلفة . ويؤكد **الزهراوي** على أهمية التشريح ، وخاصة بالنسبة للجراح فيقول أنه من لم يدرس التشريح فلا يحق له أن يمارس الجراحة . (أمين أسعد، 1946، الصفحات 28-29)

ونجد أن **ابن سينا** في كتابه الموسوعي **القانون** ، قد تحدث عن تشريح العظام بتفصيل عجيب ، يدل على أنه درس الهيكل العظمي دراسة وافية ، ويعتبر **ابن النفيس** أول من أفرد التشريح بكتاب خاص مستقل ، بالإضافة إلى أنه يعتبر بحق مكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل أن يكتشفها وليم هارفي ، وقام ابن النفيس بتشريح القلب تشريحا دقيقا ، ورد على ابن سينا ومن سبقه : إن في القلب ثلاثة بطون ، والتشريح يكذب ما قالوه . (البار، 1989، الصفحات 18-19)

وقد شرح ابن النفيس بكل تفصيل ، تشريح العظام والرئة والشرايين والقلب وغيرها من أجزاء جسم الانسان بدرجة دقيقة لا يستطيع طبيب أن يعملها ، إلا إذا كانت لديه خبرة جيدة في التشريح ، وأجريت أول عملية تشريح في أوربا خلال عام 1487م ، بباريس ، أي نحو مائتي سنة بعد وفاة ابن النفيس . (غليونجي، د.ت، الصفحات 113-114)

5-3: علم الجراحة :

لقد برع العرب في فن الجراحة ، واستخدمت مؤلفاتهم في هذا الميدان متونا أساسية للتعليم في كليات أوربا الطبية حتى عهد قريب ، حيث عرفوا في القرن الحادي عشر علاج غشاء العين ، وعلاج النزيف بصب الماء البارد والكي بالنار ، كما أن استعمال المخدر ذلك الكشف الأساسي الذي ضن أنه من كشوف العصر المعاصر ، لم يكن خافيا عليهم ؛ فكانوا يوصون قبل العمليات المؤلمة باستعمال الزوان لتنويم المريض حتى يفقد الوعي والحواس . (لوبون، 1964، صفحة 733)

ومما يجدر الاشارة إليه ، أن العرب اهتموا بالجراحة فقاموا بعمليات جراحية كثيرة في البطن والمجاري البولية ، ونجحوا في شق القصبة الهوائية وإيقاف نزيف الدم بربط الشرايين الكبيرة ، وهو انجاز علمي ادعى تحقيقه لأول مرة الجراح الفرنسي أمبرواز باري **Ambroise Pare** عام 1552م ، في حين أن الطبيب العربي **أبا القاسم الزهراوي** قد حققه قبله بستمائة عام ، وقد ذكر ذلك في مؤلفه المعروف **التصريف لمن عجز عن التأليف** ، ويعتبر أبو بكر الرازي أول من ابتكر خيوط الجراحة ، ولكن أعظم الانجازات في جراحة القرون الوسطى تعزى **للزهراوي (940- 1013م)** المراكشي الاسباني ، الذي يعالج قسم هام من موسوعته الطبية طب الأطفال والتوليد ، بالإضافة إلى تشريح جسم الانسان بشكل عام ، وشرح فن الكي ومعالجة الحروق واستخراج السهام ، وصحة الفم وتجبير العظام واستعمل المطهرات في معالجة الجروح والخدوش ، وابتكر الخيوط الطبية ، وكان يستعمل في عملياته الجراحية حوالي مائتي أداة جراحية صممها بنفسه ، وأورد رسومها في كتاباته . (مؤلفين، 1982، صفحة 301)

5-4: علم التخدير:

كان المسلمون أول من توصل إلى علم التخدير ، واستعملوا المخدر في الجراحة ، ولم ينس المسلمون أن خلق الله تعالى كان آدم عليه السلام ، وعندما أراد الله تعالى أن يخلق منه حواء ، أخلده سبحانه إلى النوم ، فاستيقظ فإذا بجانبه حواء خلقت من ضلعه الأيسر ، فكان أول تفكير المسلمين في النوم كأداة للتخدير ، ومن ثم بدأ المسلمون يتفننون في استحداث أساليب مختلفة كي ينام المريض لعمل جراحة معينة ، فتعلموا أولا من الصينيين استعمال الإبر الذهبية أو الفضية على العقد العصبية ، ثم استعملوا نبات حبق الراعي بعد حرقه للتخدير ، وجربوا حبس الدم عن المناطق المختلفة من الجسم ، باستعمال الضغط الشرياني أو الوريدي لتخدير المكان . (خليل، 1995، صفحة 13)

والجدير بالذكر ، أن التخدير أصله عربي ، وإلا فكيف يمكن لعالم وجراح مسلم كالزهراوي مثلا أن يقوم بعمليات استخراج الحصى من الكلى مستخدما المشرط والخياطة دونما تخدير للمريض؟

استخدم العرب قطعة القماش بوضعها على أنف المريض قبل بدء الجراحة ، فكانوا بذلك أول من استخدم الاستنشاق لتخدير المريض ، فاستخدام الاسفنجة المخدرة فن عربي أصيل . بالإضافة إلى ذلك ، استخدم المسلمون العرب في عملية التخدير الحشيش والأفيون بنسب مختلفة . (خليل، نفسه، صفحة 14).

إن أشد المواد المخدرة عند العرب كان الأفيون ، ودونه تأثيرا البيروح والخشخاش والشوكران والبنج ، وست الحسن والثلج والملء البارد .(Elgood, 1951, p. 281) .

5-5: علم الصيدلة :

إن علم الصيدلة اختراع عربي أصيل ، ولقد بدأ العرب تطبيق الكيمياء على الطب نظريا وعلميا ، ومكنتهم المعرفة التي اكتسبوها من عالم النبات ، أن يضيفوا شروحا كثيرة إلى الألفي نبات الموجودة في كتاب النبات لديسقوريدوس ، وأن يضمنوا كتبهم في العقاقير كثيرا من النباتات الطبيعية التي كان يجهلها اليونان تماما .

والملفت للنظر ، أن المسلمون أنشأوا الصيدليات ، ويقال أنهم أول من أسس مدرسة للصيدلة ، كما كان لهم السبق في عدة تراكيب كيماوية كالكحول وماء الفضة ، واخترعوا التقطير وغير ذلك ، وقد جعل العرب مهنة الصيدلة منفصلة عن الطب في بغداد ومصر والأندلس . (لوبون، نفسه، صفحة 513) . أنظر أيضا : - (سيديو، 1969، صفحة 382).

وللمسلمين فضل كبير على فن الصيدلة ، ولعلهم أول من اعترف بالصيدلة كمهنة وعلم مستقل بذاته ، وكان الصيادلة لا يمارسون عملا في المستشفيات إلا إذا كان معروفا عنهم الأمانة والكفاءة ، وقد ترك لنا عدد من الأطباء المسلمين وصيادلتهم كتب رسموا فيها صورا لصيدلياتهم العربية الخاصة في عواصم حضارتهم ، وقد ارتدى الصيدلاني ثيابا بيضاء ، ووقف بباب صيدليته يصرف الدواء ، ومن وراءه الرفوف الممتلئة بالأدوية والقوارير . وقد خلف لنا المسلمون الكثير من كتب الصيدلة مثل **تذكرة ابن داود** ، **ومنهاج الدكان** ، **ودستور الأعيان** وغيرها .

وقد حددت الدولة أثمان العقاقير ، ووضعت رقابة شديدة فإذا خالف الصيدلي أو الرقيب الذي يقوم بالتفتيش عليه تلك القوانين ، وارتكب أي غش في أنواع العقاقير عوقب عقوبة قاسية . (شميسي باشا، نفسه، الصفحات 67-68).

خاتمة :

من خلال هذه الورقة البحثية نخلص إلى عدة استنتاجات :

- إن العرب المسلمين أول من أنشأوا المستشفيات بأنواعها ، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم أول من أمر بالمستشفى الحربي المتنقل .
- لم يكن تأسيس المستشفيات حكرا على الخلفاء والسلاطين ، بل دأب على تأسيسها الأطباء وغيرهم ، كما كانت تفتح أبوابها للفقراء وكل أبناء الشعب بدون تمييز .
- إن العاطفة الانسانية التي كانت رائدة عند العرب في معالجتهم للمرضى ، لم يعرف لها الأوربيون مثيلا ، وذلك لمعاملتهم السيئة لمرضاهم .
- إن الأوبئة التي كانت تعيث فسادا في أوربا خلال القرن الرابع عشر كالطاعون مثلا ، فإنها لم تخف العرب وهذا دليل على ثقافة العرب آنذاك وتأخر الفكر الأوربي .
- إن أهم ما يمكن أن يعزى للعرب تنظيمهم لصناعة الطب ، بما أرسوا من قواعد للتمييز بين فروع الاختصاصات مثلا بين الطب والصيدلة .
- برع العرب وتقدموا أشواطا في مختلف العلوم وكانوا السباقين في اكتشافها وتطويرها قبل الأوربيين بقرون .
- لم يوسع المسلمون في دراستهم وبحوثهم الطبية آفاق الطب فحسب ، بل وسعوا المفاهيم الانسانية على وجه العموم .

●لم يقتصر دور الاسلام على تعريف أوربا بالكثير من منتجاته المادية واكتشافاته التكنولوجية والعلوم الفلسفية ، بل دفع أوربا إلى تكوين صورة جديدة لذاتها .

قائمة المصادروالمراجع :

أ : العربية :

1.أحمد شوكت الشطي. (1970). *العرب والطب*. دمشق: منشورات وزارة الثقافة.

2.أحمد علي الملا. (1977). *أثر العلماء المسلمين في الحضارة الإسلامية في صقلية وأثرها في أوربا*. القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر.

3.آدم فرونسوا جومار. (1988). *وصف مدينة القاهرة*. (أيمن فؤاد سيد، المترجمون) القاهرة: مكتبة الخانجي.

4.ألبير كامو. (1981). *الطاعون* (الإصدار ط1). بيروت: دار الآداب.

5.بول غليونجي. (د.ت). *إبن النفيس*. القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة.

6.جاك ريسلر. (1993). *الحضارة العربية*. (خليل خليل أحمد، المترجمون) بيروت: منشورات عويدات.

7.جوزيف شاخت، و كليفورد بوزورث. (1985). *تراث الإسلام* (المجلد ج1). (حسين مؤنس، و إحسان صدقي، المترجمون) الكويت: عالم المعرفة.

8.جوستاف لوبون. (1964). *حضارة العرب*. (عادل زعيتر، المترجمون) القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي.

9.حسان شميسي باشا. (1999). *هكذا كانوا يوم كنا . الطب في أوربا وعند المسلمين* (الإصدار ط1). الرياض: دار المنارة للنشر والتوزيع.

10.حنيفة الخطيب. (1988). *الطب عند العرب*. بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع.

11.خير الله أمين أسعد. (1946). *الطب العربي*. (مصطفى أبو عز الدين، المترجمون) د.م: الجامعة الأمريكية.

12.زيغريد هونكة. (1933). *شمس العرب تسطع على الغرب*. (سعيد بيضون، و كامل دسوقي، المترجمون) بيروت: منشورات دار الجبل.

13.علي عبد الله الرفاع. (1983). *أعلام العرب والمسلمين في الطب*. بيروت: مؤسسة الرسالة.

14.لويس سيديو. (1969). *تاريخ العرب العام*. (عبد الرزاق محمد أحمد، المترجمون) القاهرة: عالم الأدب للنشر والتوزيع.

15.مجموعة مؤلفين. (1982). *عبقرية الحضارة العربية. منهج النهضة الأوروبية*. (عبد الكريم محفوظ، المترجمون) دمشق: منشورات وزارة الثقافة.

16.محمد شامة. (1980). *الإسلام في الفكر الأوربي*. القاهرة: مكتبة وهبة.

17.محمد علي البار. (1995). *المسؤولية الطبية وأخلاقيات الطبيب*. جدة: دار المنارة.

18.محمد علي البار. (1996). *دور المسلمين في تطوير العلاج بالأعشاب والصيدلة*. جدة: دار المنارة.

19محمد علي البار. (1989). *علم التشريح عند المسلمين*. جدة: الدار السعودية.

20.مونتغمري وات. (1983). *فضل الإسلام على الحضارة الغربية*. (أمين حسين أحمد، المترجمون) القاهرة: مكتبة مديولي.

21.ويل ديورانت. (1995). *قصة الحضارة* (المجلد ج4). (محمود زكي نجيب، المترجمون) بيروت: منشورات دار الجبل.

ب: الأجنبية :

1-Elgood, C. (1951). a Medical history of Persia and The Eastern caliphate from The Earliest times Until The Year A.D 1932. Cambridge: Cambridge University Press.

2-Marchika, J. (1927). La Peste en Afrique septentrionale.histoire de La Peste en Algerie de 1363a' 1830 . Alger: Carbonal.

ج: المجلات :

1-ماهر خليل. (جوان, 1995). علم التخدير في الإسلام. *مجلة الوعي الإسلامي* .

د: القواميس والموسوعات :

1-Nouveau Larousse Médical. (1990). Paris: Librairie Larousse .

المجاعات و انعكاساتها على المجتمعات الزراعية في المغرب الأوسط خلال القرنين (07-08هـ/13-14م)

-قراءة في الحالة الديمغرافية والسلوكات الغذائية-

Famines and their reflections on agricultural societies in the Central Maghreb during the tow centuries (07-08H/13-14Ad)

-A reading in the status demographic and food behaviors-

صبرينة بولامة

طالبة دكتوراه، جامعة قسنطينة02، قسنطينة، الجزائر

Constantine02 University, Constantine, Algeria

الملخص: تعتبر المجاعات من أخطر الأزمات التي عانى منها مزارع المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط عامة، والقرنين السابع والثامن الهجريين/13-14م خاصة، لما تخلفه من نتائج كارثية تمس خاصة البنية الديمغرافية والمنظومة الغذائية لهذه الفئة الاجتماعية، وقد سعى المزارعون كثيرا من أجل تجاوز هذه الأزمة، إلا أن مساعيهم باءت بالفشل، خاصة في غياب الدعم السلطوي لهم، باعتبارهم فئة مهمشة ظلت تعاني من إقصاء السلطة والمجتمع طيلة العصر الوسيط. وسأسعى من خلال هذه المداخلة إلى الإجابة على الإشكال التالي: ما هي مجمل الانعكاسات التي خلفتها مجاعات القرنين السابع والثامن للهجرة/13-14م على الواقع الديمغرافي والمنظومة الغذائية للمجتمعات الزراعية المغرب أوسطية؟ ، وذلك بالاعتماد على ما توفر لدينا من مادة خبرية حول الموضوع، طبعا بعد إخضاعها للنقد والتحليل، ثم إفراغها في قالب منهجي أساسه الاستقراء والتحليل والإحصاء والاستنتاج.

الكلمات المفتاحية: المغرب الأوسط، المجتمعات الزراعية، المجاعات، النزيف الديمغرافي، النظام الغذائي، الخطاب الفقهي .

Abstract :

This studyaims to show the famousfaminsthatwere spread in the middle Maghreb during (7-8 ah/13-14ad).Especially,the farmerswhoweresufferingfrom the mortaleffectssuch as naturaldisasterswhichwereemerged on the structure and the food of the societies.Because of lack of authority support (officially). Theyconsidered the farmers as lower class if the society (marginalizedcategory).

Throughthispaper, I wouldtry to getanswers to this main question : whatwere the main negative effects of thosefamains on people'slife and food in the agricultural societies ? Deponding on the available resources, i tried to deal with this important subject. Using the historical, analatical and statistical methods and approaches.

Key words:middle Maghreb, agricultural societies,famines,demographic bleeding, the food system, thespeech jurisprudence.

مقدمة:

عانت المجتمعات الزراعية المغرب أوسطية خلال القرنين السابع والثامن للهجرة/13-14م من أزمات عنيفة، كان لها وقعا سيئا على واقعها الاقتصادي والاجتماعي، وتعتبر المجاعة واحدة من أهم هذه الأزمات، إذ ظلت هاجسا يؤرق مزارع المغرب الأوسط ، ويجعله يقف عاجزا عن مواجهتها، وإيجاد حلول عملية توقف انعكاساتها الكارثي، خاصة منها ما يتعلق بالنزيف

الديمغرافي الذي تحدثه في أوساط المزارعين وما ينجم عنه من تراجع في النشاط الزراعي، فضلا عن إفرازها لسلوكات غذائية خارجة عن العادة والمألوف. وتكمن أهمية هذا الموضوع في كونه يسلط الضوء على جانب من معاناة مزارعي المغرب الأوسط، هذه الفئة الاجتماعية التي ظلت تعاني التهميش الاجتماعي طيلة المرحلة الوسيطة من تاريخ المنطقة. فما هي أبرز ملامح الواقع الديمغرافي للمجتمعات الزراعية المغرب أوسطية، في ظل مجاعات القرنين السابع والثامن للهجرة/13-14م؟ وما هي خصائص المنظومة الغذائية الزراعية السائدة في أوقات المجاعة زمن ومكان هذه الدراسة؟ وكيف تعاملت المؤسسة الفقهية مع أطعمة المجاعات التي اجتاحت المغرب الأوسط فترة الدراسة؟

أولا: المجاعات والإسطوغرافيا التاريخية في مغرب العصر الوسيط:

لم يكن التأريخ للمجاعات وما يترتب عنها من آثار اقتصادية واجتماعية ضمن أولويات مؤرخي مغرب العصر الوسيط، فعادة ما كانت الإشارات المتعلقة بهذا الموضوع ترد في المصادر التاريخية بطريقة رتيبة وسريعة، دونما أي اهتمام بما تخلفه على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي إلا بإشارات تعميمية وسريعة، على اعتبار أن هدفها الأساسي توثيقي محض ينتهي بمجرد إيراد الخبر المقتضب (المغراوي، 2006، صفحة 156).

وعموما نجد أخبار المجاعات إما في كتب الحوليات التاريخية، حيث يأتي ذكر المؤرخين لها عرضا في سياق الحديث عن المصاعب التي تواجه السلاطين والحكام، مركزين على المجاعات الكبرى التي يكون لها صدى قوي وانعكاسات وخيمة على الدولة والمجتمع، مغفلين مثيلاتها المحلية أو الإقليمية (بولقطيب، 2002، صفحة 43)، أو في سياق التأريخ لأحداث سياسية وعسكرية معينة، أو تثبت في نهاية الحديث عن دولة ما ضمن جملة من الأحداث والوقائع التي عرفتها هذه الدولة، مثل ولادات ووفيات مشاهير العلماء والزعماء، القحوط، الفيضانات، الزلازل، الكسوف، الحرائق، ظهور الجراد...الخ (المغراوي، 2006، صفحة 156).

وفي حال كانت هذه المصادر من النوع الذي يضفي هالة من القدسية على شخص سلطان معين، فإنها تثني على جهوده المبذولة لتجاوز هذه الأزمة(مزدور، 2009، صفحة 19)،ناهيك عن إشارتها إلى بعض الظواهر التي تفرزها المجاعات كظاهرة غلاء الأسعار خلال فترة المجاعة، وانخفاضها عند انتهائها(ابن خلدون ي.، 2011، جزء1، صفحة234؛ ابن خلدون ع.، 2000، العبر، جزء7، صفحة 128؛ التنسي، 2011، صفحة 134). ولا تعدو المجاعات في نظر أصحاب الحوليات التاريخية سوى أزمة اقتصادية كان لابد أن تحدث في وقت ما، فيكون موقعها في الغالب ضمن جملة الأحداث التي عاشتها الدولة، أو من بين الأزمات التي عرفتها فترة حكم سلطان معين(مزدور، 2009، صفحة 19).

ومن المصادر المعول عليها أيضا في دراسة هذا النوع من المواضيع كتب النوازل الفقهية، إذ تحتل المجاعات وما يترتب عنها من مشاكل الصدارة في اهتمامات الفقهاء، نتيجة للركام الهائل من الأسئلة الموجهة لهم من قبل العامة (بولقطيب، 2002، صفحة 42)، في محاولة لإيجاد شرعية دينية لبعض السلوكات التي فرضتها عليهم هذه الأزمة، كأكل الجيفة والميتة وبعض الحيوانات المحرمة شرعا (الونشريسي، 1981؛ مزدور، 2009، صفحة 19)، وإذا أضفنا إلى هذه المشاكل انتشار أحد الأمراض المعدية الفتاكة كالطاعون، سندرك دون شك أهمية حضور المفتي أو الفقيه لتقديم الحلول الشرعية المساعدة على تجاوز هذه الأزمات، وإن ظلت في غالب الأحيان حلولا نظرية أكثر منها واقعية (بولقطيب، 2002، صفحة 42)، وغالبا ما تسعى هذه المصادر إلى إبراز دور الفقهاء في التخفيف من حدة هذه الأزمة على الناس (بولقطيب،

2002، صفحة 18)، وما يلاحظ أيضا هو استعمال أصحاب هذه المؤلفات لفظ"مسغبة" بدلا من لفظ "مجاعة" (الونشريسي، 1981).

أما النوع الثالث الذي يمكن أن نستقي منه مادة خبرية حول موضوع المجاعات فهو كتب المناقب، التي تشير للموضوع من زاوية ما له علاقة بالمتصوفة المترجم لهم، كون الكثير منهم اشتهروا بكرامات ذات صلة بالصدقة وإطعام الطعام أو تكثيره زمن المجاعة (ابن مرزوق، 2000، صفحة 190،191)، ومن جهتها اهتمت كتب التراجم هي الأخرى بهذا الموضوع، وذلك في سياق ذكر وفاة أحد العلماء المترجم لهم في سنة مجاعة أو مساعدة عالم لغيره، أوما شابه ذلك (المغراوي، 2006، صفحة 157).

غير أن ما تقدمه لنا المصادر التاريخية الوسيطية بمختلف أنواعها، حول موضوع المجاعات يبقى مجرد إشارات سريعة ومتناثرة، لا تمكننا من الوقوف على الحدث بكل تداعياته وانعكاساته، لأن المجاعة لا تشكل في منطق مؤرخ مغرب العصر الوسيط سوى أزمة رتيبة ومتكررة، لا تستدعي الوقوف عندها والإلمام بحيثياتها، كما تجدر الإشارة إلى أن العديد من الإشارات الواردة في كتب النوازل والمناقب تأتي غفلا من التأريخ وذكر المكان والمؤشرات التي تساعد على توطين المجاعة المشار إليها زمنيا ومكانيا (المغراوي، 2006، صفحة 157).

ثانيا:مجاعات القرنين(07و08هـ/13و14م) وتداعياتها على المجتمعات الزراعية المغرب أوسطية:

1. الانهيار الديمغرافي، وتراجع العمل الزراعي:

كثيرة هي المجاعات التي اجتاحت المغرب الأوسط خلال القرنين السابع والثامن للهجرة/13-14م، مخلفة وراءها نتائج كارثية، كانت لها وقعا رهيبا على المجتمعات الزراعية المغرب أوسطية، ولست هنا بصدد إنجاز عرض كرونولوجي عن هذه المجاعات ولا البحث في مسبباتها وتطوراتها، بل رصد انعكاساتها على هذه المجتمعات، ولعل أبرزها النزيف الديمغرافي الذي مس فئة المزارعين على غرار بقية الفئات الاجتماعية، وما نجم عنه من تقلص العمل الزراعي بل وتوقفه في أحيان كثيرة.

وبالرغم من أن النصوص المصدرية التي بين أيدينا تبقى نصوصا انطباعية، لا تنطق بلغة الأرقام، فضلا عن اتسامها بالعمومية وعدم الدقة، ما يعيقنا عن إعطاء إحصائيات دقيقة عن عدد الموتى في أوساط المزارعين، إلا أنها تعطينا تقديرات لفظية تسمح لنا برسم صورة انطباعية عن حجم الضحايا (بوتشيش، 1999، صفحة 42،43)، من ذلك أنه في سنة 630هـ/1232م "خلت بلاد المغرب وكثر فيها الجوع والوباء" (ابن أبي زرع، صفحة 275،276)، وفي سنة 635هـ/1237م "اشتد الغلاء والوباء بالعدوة فأكل الناس بعضهم بعضا، وكان يدفن في الحفرة الواحدة المئة من الناس" (ابن أبي زرع، صفحة 277)، وفي سنة 693هـ/1293م "كانت المجاعة الشديدة والوباء العظيم بالمغرب وإفريقية ومصر، هلك فيها خلق كثير" (ابن أبي زرع، صفحة 409).

غير أن المجاعة التي ألمت بمدينة تلمسان ما بين سنتي 698-707هـ/1298-1307م جراء حصار السلطان أبو يعقوب يوسف المريني لها، تعتبر في اعتقادنا أخطر مجاعة وأشدها ضررا على ساكنة تلمسان عامة ومزارعيها خاصة، نظرا لطول المدة التي استغرقتها، إذ أنها دامت ما ينيف عن ثماني سنوات(ابن خلدون ي.، 2011، جزء1، صفحة 234؛ ابن خلدون ع.، 2000، العبر، جزء7، صفحة128؛ التنسي، 2011، صفحة 134)، نال فيها أهل تلمسان "من الجهد ما لم ينله أمة من الأمم" (ابن خلدون ع.، العبر، 2000، صفحة 128)، وبلغ فيها عدد موتى تلمسان ما يناهز 12000ألفا(ابن خلدون

ي.، 2011، جزء 1، صفحة 234)، "وفر أكثر أهلها، فلم يبق فيها من الرعية إلا نحو المائتين" (التنسي، 2011، صفحة 132)، وبما أن الزراعة كانت النشاط الغالب على ساكنة تلمسان، فمما لا يرقى إليه شك أن كثيرا من هؤلاء الموتى والفارين كانوا مزارعين.

هذا وقد سجلت لنا مصادر القرن الثامن الهجري/14م وقوع عدة مجاعات هزت المغرب الأوسط، ولعل أشدها ضررا مجاعة سنة 776هـ/1374م، لما أنها "مجاعة شديدة أكل فيها بعض الناس بعضا"(ابن خلدون ي.، 2011، جزء 2، صفحة 298)، وقد عاصرها يحيى ابن خلدون وأرجع سببها إلى هبوب "ريح ذات إعصار أهلكت زرع صائفتها وحيوانها"(ابن خلدون ي.، 2011، جزء 2، صفحة 298)، كما عايشها ابن قنفذ القسنطيني(ت810هـ/1407-1408م) ووصفها بقوله: "وفي هذه السنة كانت المجاعة العظيمة بالمغرب، وعم الخراب به" (1965، صفحة 105).

وفي محاولة منها للتخفيف من معاناة الناس بما فيهم المزارعين من هذه المجاعة، انتهجت السلطة الزيانية سياسة الرفق بالضعفاء والفقراء والمساكين، وكانت الصدقة والإيواء أبرز مظاهر هذه السياسة، حيث تصدق السلطان أبو حمو موسى الثاني بنصف جباية الدولة على الضعفاء والفقراء والمساكين، وأمر بإيوائهم في بيمارستانات مدينة تلمسان، أين كان يوزع الطعام عليهم صباحا ومساء طوال فصلي الشتاء والربيع، كما فتح للرعية أهراء الزرع ومخازنه وأباح للناس بيعه، وخفض لهم سعره بحسب ما اقتضته ظروف المجاعة "رفقا بالناس، وحفظا لنظام حياتهم"(ابن خلدون ي.، 2011، جزء 2، صفحة 298؛ بلعربي، 2009، صفحة 22)، ويغلب على اعتقادنا أن هذه المساعدات قد طالت فئة المزارعين باعتبارهم من الضعفاء لما أن "الفلاحة من معاش المستضعفين" على حد تعبير عبد الرحمن ابن خلدون(ت808هـ/1406م) (ابن خلدون ع.، مقدمة ابن خلدون، 2014، صفحة 849).

من خلال التقديرات الإحصائية لعدد ضحايا مجاعات المغرب الأوسط إبان فترة البحث، والتي أمدتنا بها النصوص المصدرية الوارد ذكرها أعلاه، في شكل تعابير لفظية من قبيل "خلت بلاد المغرب"، "هلك فيها خلق كثير"، "عم الخراب"، "كان يدفن في الحفرة الواحدة المئة من الناس"، لنا أن نقول أن مجاعات القرنين السابع والثامن للهجرة/13-14م شكلت ضربة قاسية وأزمة خطيرة هزت المجتمعات الزراعية في المغرب الأوسط، بحصدها لأرواح أعداد لا تحصى من المزارعين، ما يعني نقص اليد العاملة (السعداوي، 1995، صفحة 123)، فمن المعلوم أن الزراعة في المغرب الأوسط فترة الدراسة كانت تعتمد بالأساس على الجهد العضلي للإنسان، حيث أن جل الثروات الزراعية إنما هي من نتاج العمل البشري، وسبب ذلك راجع بالأساس لضعف وسائل وتقنيات العمل الزراعي. كما أن تهيئة الأرض، والبذر والحرث، واستعمال أساليب السقي، وجمع المحصول، والحصاد والدرس، وحراسة الزرع والماشية، أعمال شاقة تستلزم توفر عدد كبير من السواعد البشرية، لذلك كانت حياة الإنسان وتكاثره ذات أهمية قصوى داخل المجتمعات الزراعية (البزاز، 1992، صفحة 23)، فكان نقص اليد العاملة بفعل المجاعات سببا في تراجع النشاط الزراعي بل وتوقفه في مراحل معينة.

2.المنظومة الغذائية الزراعية في المغرب الأوسط إبان مجاعات القرنين(07و08هـ/13و14م):

أحدثت المجاعات التي اجتاحت المغرب الأوسط خلال القرنين السابع والثامن للهجرة/13-14م تحولا كبيرا في المنظومة الغذائية الزراعية، نتيجة للخلل الذي عادة ما يصيب وتيرة التوازن بين عدد السكان وموارد التغذية، فتظهر نتيجة لذلك سلوكات غذائية خارجة عن العادة والمألوف(بوتشيش والبياض، 2013، صفحة31؛ مزدور، 2009، صفحة 209)، إذ الجوع متى ما تمكن من الإنسان أفقده عقله(المازوني، 2009)، وغير نظرته لما حوله من القيم والمثل العليا، ما

يجعله مستعدا للقيام بأي عمل شاذ مقابل تحصيل قوته، إذ في فترات الضيق والمجاعة تنتفي الاعتبارات السلوكية الحضارية وتهتز قيمها وتستباح أعرافها (البياض، 2008، صفحة 187،188)، ومن هنا نتساءل: ما هي طبيعة النظام الغذائي الذي اعتمده مزارعي المغرب الأوسط إبان مجاعات القرنين السابع والثامن للهجرة/13-14م؟ وما هو موقف المؤسسة الفقهية من تلك الأطعمة التي أفرزتها ظرفية استثنائية كسرت كل القيم السائدة والعوائد الطبيعية؟

غالبا ما يتوجه المزارعون إبان ظهور المجاعات إلى استهلاك ما خزنوه من مزروعات في المطامير تحسبا لأوقات الشدة والأزمات، خاصة منها الحبوب كالقمح والشعير (الونشريسي، 1981؛ ابن مريم، 2009، صفحة 304)، وفي هذا السياق يشير ابن فضل الله العمري(ت749هـ/1349م) إلى أن "بلاد الغرب مخصوصة بطول مكث المخزونات بها، فإنه ربما بقي الشعير في بعض أماكنها ستين سنة لا يتغير ولا يتسوس، ثم يخرج بعد خزن هذه المدة الطويلة فيزرع وينبت، وخصوصا تلمسان في بر العدوة" (العمري، 2001، صفحة 126)، ورغم مبالغته في تقدير مدة تخزين المزروعات إذ جعلها ستين سنة مع بقاء المخزون على حالته، إلا أن في ذلك إشارة إلى أن المزارعين قد استفادوا من مزروعاتهم المخزنة لمدة طويلة، ما ساعدهم على التخفيف من حدة الجوع.

كما فرضت شدة الجوع على المزارعين أكل الزرع قبل أوان نضجه المعتاد (عباس، 2018، صفحة 81)، نستشف ذلك من خلال نازلة وردت على أحد الفقهاء سئل فيها "عمن وصلته الحاجة وله زرع أخضر فأكل منه شيئا قبل يبسه" (الونشريسي، 1981)، كما انتشرت بين المزارعين في فترات المجاعة عادة استدانة الطعام (عباس، 2018، صفحة 82)، وذلك ما أفصحت عنه إحدى النوازل التي سأل فيها السائل عن "الزرع الأخضر يحتاج الناس إلى سلفه" (الونشريسي، 1981)، كما كان المزارعون في سنوات الجدب يشترون الطعام بالدين إلى وقت الحصاد (الونشريسي، 1981)، بل إن الحاجة للغذاء اضطرت بعضهم إلى رهن داره كضمان من أجل الحصول على بعض القمح (الونشريسي، 1981)، لكن هذه العادة كثيرا ما كانت تثير النزاع بين الدائن والمستدين، ما يدفعهم إلى اللجوء للفقهاء من أجل الفصل فيما يقع بينهم من خلافات (الونشريسي، 1981).

وبما أن الخبز كان يعد حجر الزاوية في نظام التغذية بمغرب العصر الوسيط، كما كان عليه الحال في كل المجتمعات المتوسطية(بوتشيش والبياض، 2013، صفحة 33)، فقد كان المزارعون شديدي الحرص على حضور هذه المادة الغذائية على موائد طعامهم، لكن ذلك يصبح في زمن المجاعات حلما بعيد المنال، إما لغلاء أسعار الحبوب واحتكارها، أو لتقنين وترشيد استهلاكها من قبل السلطة (ابن عذاري، 1985، صفحة 276،339؛ ابن أبي زرع، الصفحات 276-274؛ عباس، 2018، صفحة 83)، الأمر الذي جعل مزارع المغرب الأوسط يسارع إلى البحث عن بدائل للخبز، وذلك باستخدام بعض أنواع الحشائش والنباتات البرية، تكون له مادة مصدرية يصنع منها خبزه(بوتشيش والبياض، 2013، صفحة 34).

توقفنا المادة المصدرية التي بحوزتنا على أسماء أهم النباتات والحشائش البرية التي استعملها المزارعون في استخلاص الحنطة المطلوبة لصناعة الخبز إبان المجاعات، نذكر منها شجر البلوط الذي كان المزارعون يلتقطون ثماره زمن المجاعة إن وجدت، ثم يقومون بسحقها وخلطها ببعض النباتات الأخرى حتى تتماسك العجين، ثم تعجن وتصنع منها أقراص الخبز (عباس، 2018، صفحة 84)، وفي هذا السياق تشير إحدى الرسائل الموحدية الرسمية الموجهة إلى الخليفة المستنصر بالله سنة 612هـ/1215م، كيف أن أشجار البلوط أغاثت الناس من جوعهم وعوضتهم عن مادة الدقيق التي غلا سعرها، ومما جاء فيها: "...وقد تقدم الإعلام بأحوال الثغور...وشرح العبد ما مسّها من الضيق والضعف، وغلاء السعر

وعدم الطعام...وكان من جميل صنع الله وفضله...أن الله تعالى أغاث أهلها في هذا العام بالبلوط، فإن شجرها حملت حملا كثيرا فاتخذها أهلها قوتا...وسدّت لهم مسدّا كبيرا حتى لا يكاد يوجد عندهم دقيق إلا منها" (1995، صفحة 302).

ومن جملة ما تقوت به المزارعون أيضا "عصائد تصنع من نوار الخروب" (ابن عذاري، 1985، صفحة 326)، وكانت الجبال المحيطة بمدينة تلمسان تنتج كمية وافرة من الخروب، مثل جبل بني يزناسن، جبل مطغرة، وجبل ولهاصة، وكان يعتبر الغذاء الرئيسي لسكانها لقلة القمح والشعير عندهم(الوزان، 1983، جزء 2، صفحة 43،44)، كما كان المزارعون في البوادي الخالية يلتقطون فيتور الزيتون ثم يقومون بطحنه وصنع أقراص خبز يقتاتون منها (ابن عذاري، 1985، صفحة 325).

ومن النباتات البرية التي استخدمت في صناعة الخبز نذكر أيضا نبات "التابودا" الذي ينبت في الصهاريج وفي الأنهار وفي السواقي، إذ يقوم المزارعون بتجفيفه ثم طحنه كما تطحن الحنطة، ثم يصنعون منه الخبز (ابن عذاري، 1985، صفحة 326)، ومنها أيضا نبات "دعاع"، كان المزارعون ينتظرون يبسه، ثم يقومون بدقّه ثم دروه، ليستخرجوا منه حبًا أسودا يطحنونه ويختبزونه ويعتصدونه (أبو الخير، 1995، صفحة 232)، ومنها أيضا نبات "شَيْلَم" الذي "يطحن ويختبز ويعتصد ويعاش منه في المَحْل" (أبو الخير، 1995، صفحة 602)، إضافة إلى نبتة "غالش" وتسمى أيضا "النَّبَق"، التي كانت تؤكل "ويتخذ منها خبز في الجدب" (أبو الخير، 1995، صفحة 456).

هذا وقد أجبرت حالات الجوع القصوى مزارعي المغرب الأوسط على الإقبال على تناول أغذية تصنف في عداد الأغذية المقززة والمحرمة شرعا(بوتشيش والبياض، 2013، صفحة 37)، كما هو الحال في المجاعة التي ضربت مدينة تلمسان ما بين سنتي 698-707هـ/1298-1307م، حيث اضطر سكان المدينة بما فيهم المزارعين إلى أكل الجيف والقطط والفئران(ابن خلدون ع.، 2000، العبر، جزء 7، صفحة 128)، والحشرات والعقارب والحيات والضفادع والخنازير (ابن الأحمر، 2001، صفحة 69؛ المازوني، 2009)، بل منهم من دفعته شدة الجوع إلى أكل غائطه بعد تجفيفه في الشمس وطبخه (ابن الأحمر، 2001، صفحة 69)، ولم يتوقف الأمر عند هذه الأغذية بل تعداه إلى أكل جثث الموتى، وفي ذلك يقول عبد الرحمن ابن خلدون: "حتى أنهم زعموا أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من النّاس"(ابن خلدون ع.، 2000، العبر، جزء 7، صفحة 128)، ورغم إيراد ابن خلدون لهذه الرواية بصيغة التشكيك، إلا أن شقيقه يحيى ابن خلدون قد أشار إلى تكرر هذا السلوك الغذائي إبان المجاعة التي اجتاحت المغرب الأوسط سنة 776هـ/1374م بقوله: "واشتملت هذه السنة، أجمل الله ختمها، على مجاعة شديدة أكل فيها بعض الناس بعضا"(ابن خلدون ي.، 2011، جزء 2، صفحة 298)، ما يجعلنا نقرّ بصحة الرواية ولو بنسبة ضئيلة.

ومما ذكر أعلاه نستنتج أن المجاعات التي ضربت المغرب الأوسط خلال القرنين السابع والثامن للهجرة/13-14م، قد أحدثت تحولا خطيرا على مستوى السلوكات الغذائية للمزارعين، وأفرزت نظاما غذائيا كسر كل القواعد الطبيعية وحتى الشرعية، ومن هنا نطرح التساؤل التالي: كيف تعامل الخطاب الفقهي في المغرب الأوسط خلال الفترة المذكورة أعلاه مع المنظومة الغذائية السائدة زمن المجاعات؟

3.الخطاب الفقهي في مواجهة أغذية مزارعي المغرب الأوسط خلال مجاعات القرنين(07-08هـ/13-14م):

تشكل أوقات الشدة والمجاعة زمنا استثنائيا، يفرض على المؤسسة الفقهية تغيير خطابها السائد خلال فترات الاستقرار وانعدام الأزمات الاجتماعية(بوتشيش والبياض، 2013، صفحة 40)، والذي عادة ما يدور حول المباح والمحرم من الأطعمة، أو إصدار الأحكام حول نجاستها وطهارتها (الونشريسي، 1981)، ليحل محله خطابا جديدا ، تتكسر فيه القواعد الفقهية المألوفة، لتنتقل إلى مستوى قاعدة "الضرورات تبيح المحظورات"، مما يفضي إلى اعتماد فقه الأولويات الذي يخترق المحظور، ويتدخل ليحلّل ما كان يعتبر محرما من الناحية الشرعية في الأزمنة العادية تجنبا لهلاك النفس البشرية(بوتشيش والبياض، 2013، صفحة 40).

وقد استنبط الفقهاء في أوقات المجاعات أحكاما تبيح المحظور، حفظا للنفس من الهلاك(بوتشيش والبياض، 2013، الصفحات 40،41)، عملا بمبدأ "ضرورة التغذي"، القائل بأنه إذا لم يجد المضطر شيئا حلالا يتغذى به، جاز له استعمال المحرمات (ابن رشد، 1994، صفحة 533)، استنادا لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾(الأنعام، الآية 120)، وبما أن المجاعات التي اجتاحت المغرب الأوسط الفترة مدار البحث، قد أفضت إلى حدوث حالات اضطرارية قصوى، فقد أباح الفقهاء كثيرا من الأطعمة التي تغذى عليها المزارعون زمن المجاعات، بالرغم من كونها تصنف في خانة المحظور شرعا، من ذلك إجازتهم أكل لحم الخنزير لكن بشرط أن يذكى (المازوني، 2009؛ الونشريسي، 1981)،فضلا عن إجازتهم أكل الشياه والأبقار المريضة (الونشريسي، 1981)، بل عدلوا عن آراء الإمام مالك في بعض المسائل الفقهية، كأكل ما ذبح من القفا، مبررين ذلك بقولهم: "الزمان فيه مسغبة" (الونشريسي، 1981؛ بوتشيش و البياض، 2013، صفحة 41)، ومن جهة أخرى، سمح الفقهاء للمزارعين بسلف الزرع فيما بينهم وأكله قبل نضجه (المازوني، 2009؛ الونشريسي، 1981)، معتبرين أن "ذلك جائز في وقت الحاجة وشدة المجاعة، لما فيه من إحياء النفوس" (الونشريسي، 1981).

وعليه، نلاحظ بأن الخطاب الفقهي زمن المجاعات قد تميز بالمرونة، بل سمح أحيانا بتجاوز مساحة المحرم من الأطعمة، استنادا إلى قاعدة "الضرورات تبيح المحظورات" (الونشريسي، 1981؛ بوتشيش و البياض، 2013، صفحة 41).

خاتمة:

وفي الختام، نستنتج أن مجاعات القرنين السابع والثامن للهجرة/13-14م كانت من أشد الأزمات وقعا على المجتمعات الزراعية في المغرب الأوسط، إذ ضربت بعمق البنية الديمغرافية لهذه المجتمعات، بحصدها لأرواح أعداد لا تحصى من المزارعين، الذين كانوا يشكلون القوة العاملة الوحيدة، نظرا لضعف وسائل العمل الزراعي في المغرب الأوسط زمن البحث، ناهيك عن ما أحدثته من خلل داخل المنظومة الغذائية الزراعية، بإفرازها لسلوكات غذائية مخالفة للعوائد الطبيعية والقواعد الدينية، ما أحرج المؤسسة الفقهية، وفرض عليها إعادة النظر في بعض القواعد والأحكام الشرعية، وصياغة خطاب فقهي يتماشى والظروف الاستثنائية السائدة.

قائمة المصادروالمراجع:

- **القرآن الكريم، رواية ورش عن نافع.**

1.المصادر:

- أبو الخير، الإشبيلي(ت ق06هـ/12م)، (1995م): عمدة الطبيب في معرفة النبات، تحقيق محمد العربي الخطابي، ط01، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- ابن أبي زرع،علي الفاسي(ت726هـ/1325م)، (دت): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دط، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط.
- ابن الأحمر، اسماعيل(807هـ/1404م)، (2001م): تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تحقيق هاني سلامة، ط01، مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع، مصر.
- التنسي، محمد بن عبد الله(ت899هـ/1493م)، (2011م): تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود آغا بوعياد، دط، مؤسسة موفم للنشر، الجزائر.
- ابن خلدون، عبد الرحمن(ت808هـ/1406م):

-(2014م): مقدمة ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، ط07، دار نهضة، مصر.

- (2000م): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق خليل شحاذة، مراجعة سهيل زكار، دط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

- ابن خلدون، يحي (ت780هـ/1378م)، (2011م): بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر.
- رسائل موحدية(1995م): تحقيق أحمد العزاوي، ط01، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة.
- ابن رشد، الحفيد(ت595هـ/1199م)، (1994م)، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، تحقيق محمد صبحي حسن حلاق، ط01، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- ابن عذاري، المراكشي(ت بعد سنة:712هـ/1312م)، (1985م): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب(قسم الموحدين)، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، ط01، دار الغرب الإسلامي، بيروت-دار الثقافة، الدار البيضاء.
- العمري، ابن فضل الله(ت749هـ/1348م)، (2001م): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق محمد عبد القادر خريسات وآخرون، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة.
- ابن قنفذ، القسنطيني(ت810هـ/1407م)، (1965م): أنس الفقير وعز الحقير، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور، دط، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط.
- ابن مرزوق، محمد أبي عبد الله الخطيب(ت781هـ/1379م)، (2000م): المناقب المرزوقية، تحقيق سلوى الزاهري، ط01، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية.
- ابن مريم، أبي عبد الله محمد(1014هـ/1605م)، (2009م): البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد ابن أبي شنب، تقديم محمد الصالح الصّديق، منشورات السهل، الجزائر العاصمة.
- المازوني، أبو زكريا يحي(ت883هـ/1429م)، (2009م): الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تحقيق مختار حساني، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.

- الوزان، الحسن(ت بعد سنة: 957هـ/1550م)، (1983م): وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط02، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- الونشريسي، أبو العباس أحمد(ت914هـ/1508م)، (1981م): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط.

2.المراجع:

- البزاز، محمد الأمين(1992م): تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط.
- بلعربي، خالد(2009م): المجاعات والأوبئة بتلمسان في العهد الزياني، دورية كان التاريخية، ع04.
- بوتشيش، إبراهيم القادري(1999م): أثر قيام الدول وسقوطها في التطور الديمغرافي بالمغرب في العصر الوسيط(دراسة حالة)، مجلة كنانيش، ع01، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة.
- بوتشيش، إبراهيم القادري، البياض، عبد الهادي(2012-2013م): ثقافة الطعام وتنوع خطاباتها في زمن المجاعات: المغرب والأندلس من القرن 6حتى القرن8هـ/12-14م نموذجا، مجلة عصور الجديدة، ع7-8.
- بولقطيب، الحسين(2002م): جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، دط، منشورات الزمن، الرباط.
- البياض، عبد الهادي(2008م): الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس(ق6-8هـ/12-14م)، ط01، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.
- عباس، رشيد(2018م): النظام الغذائي زمن المجاعات والأوبئة، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية، المجلد04، ع08.
- السعداوي، أحمد(1995م): المغرب الإسلامي في مواجهة الطاعون: الطاعون الأعظم والطواعين التي تلته القرنين 8-9هـ/14-15م، مجلة إيبلا، ع 175.
- مزدور، سمية(2008-2009م): المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط(588-927هـ/1192-1520م)، مذكر ماجستير، إشراف محمد الأمين بلغيث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ والآثار، جامعة منتوري، قسنطينة.
- المغراوي، محمد(2006م): الموحدون وأزمات المجتمع، ط01، جذور للنشر، الرباط.

مجاعات وأوبئة المغرب خلال العصر الوسيط بين تعدد العوامل وآليات المواجهة

Famine and epidemics in Morocco during the Middle Age between multiplicity of factors and measures of confrontation.

د. خالد عبوبي، تخصص تاريخ وسيط.

جامعة الحسن الثاني /كلية الآداب والعلوم الإنسانية المحمدية، المغرب

Khalid ABOUBI, Phd. Middle Age specialist.

Faculty of literature and humanities, Mohammadia. Hassan II University, Casablanca. Morocco

البريد الإلكتروني: profkhalidhg@gmail.com

- **ملخص**: كلما قلبنا النظر في جائحة كرونا وما خلفته من تداعيات متعددة، إلا ويرد السؤال عن تاريخ هذه الجوائح، كيف تناولتها الإستغرافيا التاريخية، من حيث المنشأ والسبب، وهل مرد ذلك إلى العامل الطبيعي، أم أن هناك أسباب أخرى تتحكم في هذه الجوائح، خاصة ما تعلق منها بالعامل البشري، وهل استسلم لها مجتمع المغرب الوسيط مكتفيا بالتفسير الغيبي، أم واجهها محاولا الحد من آثارها، لذلك تأتي هذه الورقة البحثية، لتقارب موضوع الأوبئة والمجاعات خلال العصر لوسيط، وتحاول تقديم بعض الأجوبة عن الموضوع.

الكلمات المفاتيح: الجوائح-المجاعات -الأوبئة-المغرب-العصر الوسيط.

Abstract:

Each time we think about the pandemic of covid-19 and its aftermath, a question about the history of the epidemics naturally surges up paving thus the way to other questions: how have the historical records handled it? What are the origins and the causes? Was it because of natural factors? Or there were some other causes that took control of the epidemics which might be caused by human factors. Did Moroccans face the epidemics or just submit to metaphysical explanation?

This paper deals actually with the topic of epidemics and famine during the Middle Age, trying hence to provide some answers to the aforementioned questions.

1-مقدمة:

واجه المغرب منذ عقود مجموعة من التأثيرات الطبيعية -كوارث طبيعية، أوبئة، مجاعات-غالبا ما كانت تخلف من ورائها سيلا من الأزمات الاقتصادية والاجتماعية على فئات واسعة من مكونات المجتمع المغربي، فكان أبرزها في الزمن الراهن وباء كورونا الذي يعيد إلى الذهن، محطات من تاريخ الأوبئة في المغرب، وبالتالي الرغبة في محاولة معرفة كيف أثرت الأوبئة في المجتمع المغربي في تلك الفترة؟

قبل الشروع في تتبع أوبئة ومجاعات العصر الوسيط، يحق لنا أن نتساءل عن أسباب هذه الجوائح، هل يقتصر الأمر دوما على العامل الطبيعي، أليس ما يقع بين الدول مع بعضها البعض من حروب ونزاعات، وما يحدث داخل البلد الواحد من حروب أهلية داخلية مدعاة لانتشار هذه الجوائح؟

لعل المتتبع لنماذج من العالم العربي كالحرب اليمنية الأخيرة أو ما يحدث في بلاد الشام وقبله في العراق وما نتج عنه من مجاعات أثرت على البنية السكانية لهذه الشعوب، يصاب بالذهول والألم معا، جراء ما تحصيه وسائل الإعلام من ضحايا هذه النزاعات المسلحة.

وبناء على هذه التساؤلات المشروعة تأتي هذه الورقة البحثية، لتقارب موضوع المجاعات والأوبئة في المغرب الوسيط، من خلال العوامل المسببة لها من جهة، وأليات مواجهتها من جهة أخرى.

2-مفهوم الجائحة محاولة في التأصيل

عرف العصر الوسيط عددا من الكوارث الطبيعية المصطلح عليها بالجوائح، وهي كلمة يدور معناها في القواميس العربية على نقص أو انعدام في المال لفرد أو لجماعة من الأفراد في فترة زمنية معينة، كما أشار إلى ذلك الفراهيدي والجوهري وغيرهم[1].

فالجائحةُ لغةً: من الجوح والجوح هو الاستئصال، وجاحتهم السنة جوحاً وجياحة إذا استأصلت أموالهم، وسنة جائحة أي جدبة[2].

يقول ابن فارس: "الجيم والواو والحاء أصل واحد وهو الاستئصال، يقال جاح الشيء يجوحه استأصله، ومنه اشتقاق الجائحة"[3]، والجائحة المصيبة تحل بالرجل في ماله فتجتاحه[4] والجوحة والجائحة: الشدة والنازلة العظيمة التي تجتاح المال من سنة أو فتنة[5].

ونظرا لما كان يترتب عليها من مضاعفات اجتماعية واقتصادية، فقد ورد هذا المصطلح في الحقل الفقهي وحاول الفقهاء صياغة تعريف دقيق حتى يتسنى لهم ضبطه لما يترتب عليه من التزامات شرعية وحقوق متنوعة، ومن ثمة اختلفت أنواع الجوائح ومسبباتها.

وهكذا نجدهم يتحدثون عن القسم الأول الناجم عن السبب الطبيعي، فيعرفون هذا النوع من الجوائح بأنه كل أمر لا يمكن دفعه ولا يقدر على الاحتراز من كالرياح والمطر والبرد والجليد والطير والدود والعفن والنار[6]، وهي بهذا الاعتبار أمر سماوي لا دخل للبشر فيه، وقد حُصِر مفهومه في النائبة التي تحل بمال الفرد فتقضي عليه وتهلكه، ويعتبر ابن خلدون من أوائل من نبه على هذا النوع من الجوائح وأرجعه إلى العوامل الطبيعية، بخلاف غيره ممن ربطها بالتفاسير الغيبية، فيذكر صاحب المقدمة أن " ارتفاع عدد الأموات، يعود إلى كثرة المجاعات، أو كثرة الاضطرابات والفتن، أو حدوث الأوبئة بسبب فساد الهواء"[7].

لذلك وردت عدة نوازل تخص هذه الجوائح وما يترتب عليها من نزاعات، خاصة عند الفلاحين، الذين يقومون بكراء الأرض من الملاكين الكبار، بمقابل مادي، أو بجزء من المحاصيل الزراعية، هذه الأخيرة تلحقها أضرار بالغة جراء الجوائح، كالقحط أو الفيضان أو الجراد، مما يجعلهم غير قادرين على الوفاء بالتزاماتهم تجاه أصحاب الأرض، فيلجؤون إلى القضاء من أجل إنصافهم، وغالبا ما يطلب الفقهاء والقضاة تقديم دليل ملموس على دعواهم، وهو عبارة عن مجموعة من الشهود الذين يؤكدون حدوث هذه الجائحة التي أضرت بالمنتوج[8]، لذلك وجد بعض محرري العقود ممن تخصص في كتابة عقود الجوائح.

ولم يقتصر ضرر هذه الظواهر على القطاع الفلاحي فقط، بل وصل شررها إلى القطاعين الحرفي والتجاري، حتى إن التجار والحرفيين كانوا أكثر ضررا من تداعيات هذه الكوارث الطبيعية، فقد سئل الفقيه ابن رشد الجد عن "حكم

---

[1] مادة جائحة، معجم اللغة العربية المعاصرة.

[2] جمال الدين بن منظور، لسان العرب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1993، 409/2.

[3] أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، 1979م، ج1، ص492.

[4] محمد بن احمد الأزهري، معجم تهذيب اللغة، تحقيق، رياض قاسم، بيروت، دار المعرفة، 2001، 514/1.

[5] ابن منظور، مصدر سابق، ج2، ص410.

[6] أبو الحسن المالكي، كفاية الطالب، بيروت، دار المعرفة، 1992، ج2، ص281. احمد بن غنيم النفراوي، الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، بيروت، دار الفكر، 1995م، ج2، ص129.

[7] عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، مراجعة لجنة من العلماء، دار الفكر، بيروت، 1981، ص، 302.

[8] الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، منشورات الزمن، الرباط، 2002، ص، 27.

الفنادق إذا قل واردها لسكناها، والأرحى إذا قل الطعام للطحن، هل يعتبر ذلك جائحة يحط بها الكراء أم لا"[1]، كما سئل أيضا عن " الحوانيت المكتراة إذا قلت التجارة لضعف الناس، هل يعد ذلك جائحة يحط من كرائها"[2].

بالإضافة إلى هذه الجوائح المرتبطة بالكوارث الطبيعية، نجد القسم الثاني الذي ينتج بسبب الحروب والنزاعات السياسية، خاصة ما يتعلق بانعدام الأمن وما يستتبع ذلك من أعمال السرقة والنهب وقطع السبيل، والتعدي على ممتلكات الناس، ولم يستقر رأي الفقهاء على رأي واحد بالنسبة لهذا النوع، فقد أورد أبو الوليد بن رشد الحفيد اختلافهم حول هذه الجزئية فقال: " وأما ما أصاب من صنع الآدميين، فبعض أصحاب مالك رآه جائحة، وبعض لم يره جائحة، والذين رأوه جائحة انقسموا قسمين، فبعضهم رأى جائحة ما كان غالبا كالجيش، ولم يرى ما كان بمغافصة[3] جائحة مثل السرقة، وبعضهم جعل كل ما يصيب الثمرة من جهة الأدميين جائحة بأي وجه كان"[4].

ورغم هذا الاختلاف المشار إليه فإنهم اتفقوا على النوع الأول وما يترتب عليه من الأضرار المتنوعة.

فكيف تناولت مصادر التاريخ الوسيط هذه الجوائح؟ وماهي مظاهر انتشارها في المجال المغربي؟

3-رصد جوائح العصر الوسيط في المصادر المغربية

أول ما نسجله عن المصادر التاريخية التي أرخت للأوبئة والمجاعات بالمغرب خلال العصر الوسيط، هو محدوديتها من حيث الكم والكيف[5]، فهي لا تغطي كامل التراب المغربي، مما يصعب معه التمييز بين الجوائح التي تنتشر بشكل محلي وغيرها من المجاعات والأوبئة العامة، وإن كانت بعض المصادر المناقبية التي تعود للعصر الوسيط تذكر بعض المجاعات المحلية كما يوضح الجدول التالي:

جدول (1) يبين بعض الجوائح المحلية التي أوردها التادلي[6] في التشوف

صاحب الترجمة وسنة وفاته	النص	نوع الجائحة	الصفحة
- أبو محمد عبد الغفور ابن يوسف الأيلاني (586هـ/1190م)	"قال عبد الله بن موسى: ذهبت مع أبي محمد إلى اغمات فمررنا بقوم مجتمعين على قتل الجراد...."	- الجراد	253
- أبو وكيل ميمون ابن تاميمونت الأسود	" احتبس المطر في وقت نزوله وقلت المياه. فكان الناس يرحلون من بلادهم إلى مواضع المياه"	- الجفاف	235

[1] أحمد بن يحي الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب، أخرجه جماعة من العلماء بإشراف محمد حجي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1981، 7/ 451-452

[2] نفسه، 7/ 452.

[3] تعني الهجوم المباغث أو الأخذ على حين غرة.

[4] أبو الحسن المالكي، مصدر سابق، 281/2.

[5] الحسين إسكان، المجاعات والأوبئة بين الأفات السماوية والجائحة الإنسانية خلال العصر الوسيط شمال المغرب، ضمن مؤتمر الأيام الوطنية العاشرة حول المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، ص، 134. (ص، ص-134-150).

[6] ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق، أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، الطبعة الثانية، 1997.

- أبو يعزى يلنور بن ميمون (570هـ/1175م)	" قال التادلي: حدثني محمد بن عبد الكريم، أنه ذهب يوما إلى المسجد الجامع في يوم جمعة في عام جدب"	- الجفاف والمجاعة	217
- أبو حفص عمر بن معاد الصنهاجي (561هـ/1166م)	" لما أتت على على الناس المجاعة عام خمسة وثلاثين وخمسمائة جمع أبو حفص خلقا كثيرا من المساكين فكان يقوم بمؤنتهم..."	- المجاعة	183
- أبو العباس أحمد ابن عبد الرحمن الهواري (مات قبل 540هـ/1146م)	"وحدثوا عنه أنه كان في عام مجاعة شديدة..."	- المجاعة	153
- أبو حفص عمر ابن مَيْكْسوط الدغوغي (546هـ/1152م)	"أن رجلا من قوم أبي حفص جاءه في عام مجاعة وهو يحفر الأرض...."	- المجاعة	142

ما يلاحظ على هذه الجوائح التي أشار إليها التادلي، في معرض تراجمه لأهل التصوف خلال العصر الوسيط، هو غياب التأطير الزمني لهذه المجاعات، إلا عددا قليلا منها، فإنه أشار إلى تاريخ وقوعها كالمجاعة التي ذكرها في ترجمة أبي حفص عمر بن معاد الصنهاجي، حيث أثبت سنة وقوعها وهي 535هـ/1141، كما تبين نصوص هذه التراجم التجاء الناس إلى الأولياء والصالحين بقصد الاستسقاء واستمطار الغيث، وهو سلوك يظهر تلك السلطة الرمزية التي تمتع بها صوفية العصر الوسيط بالمغرب، فقد جرت العادة أن يقصد الناس المستسقى بهم وكلهم خشوع لاعتقادهم الراسخ في بركاتهم.

كما نستنتج أيضا من هذه النصوص المنقبية، سيادة أشكال من التكافل الاجتماعي والإحسان إلى الفقراء، بإطعام الفقراء والمحتاجين منهم، أملا في أن يستجيب الله لدعوات المستسقين، فيعم الخير وتروى الأرض وترفع الجائحة.

هذا ويأتي اهتمام مصنفي كتب المناقب بهذه الجوائح، بالنظر إلى أن كثيرا من الأولياء الذين ترجموا لهم، عرفوا بكرامات ذات علاقة بالاستسقاء أو إطعام الطعام أو تكثيره، كما عرفوا أيضا بإبراء العلل المستعصية كالجذام والبرص وغيرها من الأمراض التي كانت هاجسا مؤرقا للإنسان المغربي الوسيط[1].

هذا وتتميز الإشارات المصدرية التي تعقبت هذه المجاعات والأوبئة، بكثرتها عندما يتعلق الأمر بالقرنين 3و4هـ/ 9-10م، وكذلك بالنسبة للقرنين 7-8هـ/ 13-14م، بينما تقل هذه الإشارات بالنسبة للقرنين 5-6هـ/11-12م، فهل يرجع الأمر للصراع السياسي الذي نشأ بين القوتين المتصارعتين، المرابطين والموحدين، حيث غطت كتابات المؤرخين ما جرى بين الدولتين من أحداث وصراعات وحروب؟

عموما فإن التنقيب في بطون المصادر التاريخية، يجعلنا نقف على جملة من الإشارات المصدرية التي تحدثت عن هذه المجاعات والأوبئة وقد قدم عدد من الباحثين[2] عدة اجتهادات في تتبع هذه المصادر وما ورد فيها بخصوص هذه الجوائح.

[1] الحسين بولقطيب، مرجع سابق، ص، 42.

[2] الحسين بولقطيب، نفسه، ص، 45، كريمي ماجدة، قراءة المدينة الموحدية والمرينية من خلال أزمة المجاعات والأوبئة، ضمن الأيام الوطنية حول المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، 2002، ص، 109، 110. (ص-ص، 105-118)

وليست غاية هذه الورقة البحثية تتبع المجاعات والأوبئة كرونولوجيا، فقد كفينا مؤنة ذلك من خلال ما أنجز من البحوث المشار إليها، وإنما الهدف من هذا الجرد المقتضب التأكيد على امتدادها عبر الزمن، فلم يكن القرنان 5-6هـ/11-12م، أحسن حالا من غيرهما من القرون.

ونميز على العموم في هذه المجاعات بين نوعين على مستوى الانتشار والامتداد في المجال المغربي، فنجد المجاعات العامة، وهي التي عمت سائر البلاد، وأخرى محلية اقتصرت على حواضر معينة أو مجالات ريفية محددة.

جدول(2) بعض المجاعات العامة خلال العصر الوسيط

سنة المجاعة	النص	المصدر	الجزء والصفحة
616هـ/1218م	"وفي سنة ست عشرة وست مئة، كان المحل العظيمة والمجاعة التي شكاها الظاعن والمقيم، وتناهى الحال في مزيد السعر إلى ما لانهاية...."	ابن عذاري، مصدر سابق	381/3.
617هـ/1219م	"وفيها ابتدأت المجاعة والغلاء والقحط وكثرت الفتن وعم الجراد جميع بلاد المغرب والأندلس."	الدخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، نشر، محمد بن أبي شنب، مطبعة جول كربونل، الجزائر، 1920.	57.
619-637هـ/	"فلما كانت المجاعة العظمى التي خلا فيها المغرب وتوالت به الفتن وعدمت الأقوات وذلك من سنة تسع عشرة إلى سنة سبع وثلاثين وستمائة لما أراد الله انقراض الدولة الموحدية وظهور الدولة المرينية بالمغرب..."	علي ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص، 41.	.
619-637هـ/	"فلما كانت المجاعة العظمى التي خلا منها المغرب...."	أحمد بن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973.	34.
624هـ1227م	"وفي سنة أربع وعشرين وستمائة اشتد الغلاء بالمغرب والأندلس، وعم الجراد"	أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997.	264/2.
630هـ/1233م	"وفي سنة ثلاثين وستمائة كان الغلاء العظيم ببلاد المغرب وكثر بها الجوع والوباء حتى بلغ القفيز من	الناصري، مصدر سابق.	264/2.

	القمحثمانين دينارا وخلت الأمصار من أهلها"		
635-638هـ/1238-1241م	"ذكر مجاعة شديدة في معرض ترجمة الحاج إبراهيم بن عيسى بن أبي داود..."	عبد الحق بن إسماعيل البادسي، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق، سعيد أعراب، المطبعة الملكية، الطبعة الثانية، 1993.	61.

سنة المجاعة	مجال المجاعة	المصدر
571هـ/1176م	فاس	التادلي، مصدر سابق، ص، 264.
632هـ/ 1235م	مراكش	ابن عذاري، مصدر سابق، 453/3.
635-638هـ/ 1238-1241م	الريف	عبد الحق بن إسماعيل البادسي، مصدر سابق، ص، 61.
637هـ/1240م	سبتة	ابن عذاري، مصدر سابق، 483/3.

وفيما يلي يعطينا الجدول التالي لمحة عامة عن المجاعات المحلية.

الجدول (3) بعض المجاعات المحلية خلال القرنين 6-7هـ/12-13م

مما يلفت انتباه المتصفح لهذه المعطيات، هو الحقبة الزمنية التي استغرقتها هذه الأوبئة من التاريخ الوسيط للمجال المغربي، والتي تبدأ تحديدا مع مجاعة مراكش التي أشار إليها صاحب البيان المغرب، وهو ما يتوافق مع بداية اصطدام الدولة المرابطية مع الحركة الموحدية بزعامة عبد المؤمن بن علي الكومي، مما يؤكد ما قدمناه آنفا، من أهمية العامل البشري في نشوء هذه الجوائح، فالحروب مدعاة لانعدام الأمن مما يؤدي لزاما إلى توقف الأنشطة الاقتصادية كزراعة الأرض والتجارة وباقي الأنشطة الحرفية، مما ينتج عنه الكساد العام ونقص المؤن والزروع وغيرها من أقوات الناس وبالتالي انتشار المجاعات والأوبئة.

كما أن المصادر التاريخية ركزت في تتبعها لحركة المجاعات المحلية، على مراكش وفاس، باعتبارهما عاصمتان تقليديتان، تناوبتا على هذا الدور المركزي في تاريخ الدولتين المرابطية والموحدية، ومعلوم أن أقلام المؤرخين تركز بشكل كبير على دار الملك، لاحتضانها السلطة الحاكمة التي تدبر شؤون الدولة، أما اهتمامهم بباقي الحواضر فيأتي تبعا للاهتمام بالعاصمة، في حين نلاحظ ضعف مروياتهم بخصوص المجال القروي وقد مثلنا بما حصل في الريف، على حسب ما نقله البادسي في المقصد المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف.

وفي إطار المقارنة بين مجاعات العصر الوسيط نسجل كثرتها بالنسبة للقرن 7هـ/13م مقارنة بالقرن 6هـ/12م، فهل للأمر علاقة بهزيمة العقاب التي وقعت سنة 609هـ/1213م؟

خاصة مع ما نعرفه من تداعيات هذه الواقعة على الوضع السياسي للدولة الموحدية، فقد تسرب الوهن إلى جسم الدولة على حد تعبير مؤرخي العصر الوسيط، واستفلحت مظاهر الضعف في بنياتها الإدارية، ولا شك أن هذا الأمر يؤكد دور العامل البشري في استفحال هذه المجاعات كما سبقت الإشارة لذلك. كما تلخصه مقولة بن خلدون الذي قرر "أن

المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدول، والسبب فيه إما المجاعات فلقبض الناس أيديهم عن الفلح أو الفتن الواقعة في انتقاض الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة"[1].

4-التخزين من أليات مواجهة الأوبئة والمجاعات خلال العصر الوسيط

بالإضافة إلى ما سبق ذكره، من التجاء الناس إلى الصالحين والشرفاء والأولياء بقصد الاستسقاء، فإن المجتمع المغربي بكل فئاته، حاول ابتكار عدة أليات لمواجهة هذه الجوائح، وتدبير فترات الأزمة، حتى يتمكن من النجاة ولا يكون ضحية من الضحايا الذين تخطفهم سهام هذه الجوائح الفتاكة.

أ-ألية التخزين:

نظرا لتكرر هذه الجوائح، فقد تأقلم المجتمع المغربي خلال العصر الوسيط مع هذا الوضع وحاول تدبير محاصيله الزراعية، ومدخراته من الطعام والغداء، بالشكل الذي يمكنه من مواجهة هذه الجوائح، فظهرت المطامير لتخزين الحبوب، بالإضافة إلى غيرها من وسائل التخزين حسب كل مجال على حدة، وقد اشتهرت بعض المدن بهذا الأمر، خاصة مع تضررها من بعض الأوضاع السياسية المضطرب، فقد اضطر سكان فاس في منتصف القرن 5هـ/11م، لاتخاذ المطامير لخزن الحبوب ببيوتهم بسبب جور مغراوة[2]، ونفس الصنيع اشتهرت به كذلك مدينة سبتة، حيث ذكر ابن عذاري ذلك أثناء توثيقه لمجاعة 637هـ/1240م الواردة في الجدول أعلاه، يقول: " وفي سنة سبع وثلاثين وستمائة، كان الغلاء المفرط والمجاعة العظيمة بمدينة سبتة، حتى عدم فيها الطعام بالكلية في هذا العام، وكانوا يسمونه بعام سبعة، وهو مشهور عندهم، ومن هذا العام صار أهل سبتة يختزنون الطعام في المطامير في كل عام حيطة على أنفسهم"[3]، كما اعتاد الأفراد على اتخاذ مخازن الحبوب بمدينة سجلماسة في القرن 6هـ/12م، مع التنبيه أن هذه الإمكانية لم تكن متاحة للجميع فيضطر من لا يستطيع ذلك إلى شراء الحبوب وطحنها.

وإذا كانت هذا النماذج تمثل المجال الحضري، فإن البادية هي الأخرى عرفت بهذه الآلية، خاصة إذا علمنا أهمية الحبوب بالنسبة لإنسان المجال الريفي ولدوابه، إذ لا يستغني عنها في معاشه وحله وترحاله. وقد كانت تتخذ لهذا الغرض قصبات جماعية للتخزين كما في كرسيف، وهي عبارة عن " قصبة بني مرين تختزن فيها حبوبها عندما كانت تسكن بالصحراء"[4]، وقد تميزت المناطق الجبلية بأمن مخازنها حيث يذكر الإدريسي، أن بجبال درن وحدها أزيد من 70 حصنا[5]، ولعل هذا المعطى الحيوي استفادت منه الجيوش الموحدية أثناء صراعها على السلطة ضد المرابطين، فقد توفرت الأقوات لأجنادها الذين اختاروا "الجبال المانعة حيث الأرزاق الواسعة"[6].

ب-التخزين الرسمي:

هذا وقد أشارت المصادر الوسيطية إلى أهمية التخزين الرسمي، إذا جاز لنا تسميته بذلك، فقد ملكت السلطة الحاكمة مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية، يستنتج ذلك من التكسير الذي قام به الخليفة الموحدي عبد المؤمن سنة 555هـ/1160م، وقد اعتادت الدولة تخزين غلاتها الفلاحية في ثلاث أماكن: الأهراء بقصبات المدن الرئيسية، أو ببعض الحصون الاستراتيجية يشرف عليها ما اصطلح عليه بصاحب الطعام عند الموحدين[7]، وأهم من

---

[1] ابن خلدون، مصدر سابق، ص، 302.

[2] ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص، 538.

[3] ابن عذاري، مصدر سابق، 483/3.

[4] الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة، أحمد حجي – محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ج1/ص272.

[5] الإدريسي، مصدر سابق، ص، 229.

[6] ابن السماك العاملي، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق، سهيل زكار، عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1979، ص، 130.

[7] ابن عداري، مصدر سابق، قسم الموحدين، ص، 137.

هذه المخازن مخزن "دار الملك" بمراكش، الذي كان يسمى -حسب الوزان- قصر النصر، والذي توجد بجانبه إصطبلات عظيمة وهريان من طبقتين يسع كل منها من الحبوب 30.000 روجي، أي حوالي 20400قنطار، وأسفلها كان يخزن العلف[1]، وقد كانت تفتح هذه المخازن الضخمة أثناء المجاعات الشديدة وتباع حبوبها ويتصدق بجزء منها كما فعل الناصر حين أمر " بفتح المخازن المعدة لاختزان الطعام ففتحت للعامة وفرقت عليهم، فذكر أنها كانت بثمن للأقوياء، وبغير ثمن للضعفاء، وبالجملة فقد أصدق منها الكثير"[2].

ج-التخزين على طول الطرق الرئيسية:

ثمة شكل أخر من أشكال التخزين التي أنتجتها السلطة الرسمية، وهو التخزين على طول الطرق الأساسية لمرور الحركات من أجل أن تزود الجيوش بما تحتاجه من المؤن والحبوب وغيرها، كما فعل عبد المؤمن حين كتب سنة 550هـ/1156م إلى عماله قبل ثلاث سنوات من حركته لبلاد إفريقية " يأمرهم بحفظ الغلال وأن يترك الزرع في سنبله ويخزن في مواضعه.... وجمعوا غلات الحب ثلاث سنين ونقلوها إلى المنازل التي على الطريق وطينوا عليها وصارت كأنها تلال"[3].

وظهر هذا الأسلوب من التخزين عند استعدادات عبد المؤمن لغزو الأندلس سنة 557هـ/1162م، إذ " أعد من القمح والشعير للعلوفات والمواساة للعساكر على وادي سبو بالمعمورة ما عاينته-صاحب الكلام هوعبد الملك بن صاحب الصلاة- مكدسا كأمثال الجبال، بما لم يتقدم لملك قبله ولا سمعنا في جيل من الأجيال، بقي في ذلك الموضع من عام سبعة وخمسين إلى عام اثنين وخمسين إلى عام اثنين وستين ومائة، حتى فني في أكداسه وعاد ترابا ورمادا باحتراقه بعضه في بعض وإفساد الزمان له"[4]، لذا كان أفراد الجيش يحسون كأنهم في دورهم أو أحسن نظرا لتوفر المرافق[5]، وإن كان هذا الوضع غير دائم لكن الإجراء بحد ذاته يمثل أسلوب متميزا لمواجهة المجاعات وغيرها من الجوائح.

في ختام هذه الورقة البحثية، نكون قد قدمنا جملة من الإضاءات التي تخص جوائح العصر الوسيط على مستوى تمظهراتها في المجال المغربي، وكذا سبل المواجهة المتعددة خاصة أسلوب تخزين المحاصيل.

- لائحة المصادروالمراجع:

- المصادر:

- أبو الحسن المالكي، كفاية الطالب، بيروت، دار المعرفة، 1992.

- ابن السماك العاملي، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق، سهيل زكار، عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1979،

- ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق، أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، الطبعة الثانية، 1997.

- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، تحقيق، عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1987.

- أحمد بن غنيم النفراوي، الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، بيروت، دار الفكر، 1995م.

[1] الحسن الوزان، مصدر سابق، 105/1.

[2] ابن عذاري، مصدر سابق، 267/1.

[3] أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق، جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب، البيضاء، 131/2.

[4] ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، تحقيق، عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1987، ص، 148.

[5] ابن السماك العاملي، مصدر سابق، ص، 153.

- أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب، أخرجه جماعة من العلماء بإشراف محمد حجي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1981.
- أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، 1979م.
- الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة، أحمد حجي – محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.
- جمال الدين بن منظور، لسان العرب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1993.
- محمد بن احمد الأزهري، معجم تهذيب اللغة، تحقيق، رياض قاسم، بيروت، دار المعرفة، 2001.
- عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، مراجعة لجنة من العلماء، دار الفكر، بيروت، 1981.

- المراجع:

- الحسين بولقطيب، جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، منشورات الزمن، الرباط، 2002.
- الحسين إسكان، المجاعات والأوبئة بين الأفات السماوية والجائحة الإنسانية خلال العصر الوسيط شمال المغرب، ضمن مؤتمر الأيام الوطنية العاشرة حول المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي.
- كريمي ماجدة، قراءة المدينة الموحدية والمرينية من خلال أزمة المجاعات والأوبئة، ضمن الأيام الوطنية حول المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، 2002، ص، 109، 110. (ص-ص، 105-118)

الأمراض و أثرها على الحياة السياسية فى المغرب فى عهد دولة بنى مرين (668-869هـ/1269-1465م)

Diseases and their impact on political life in Morocco during the era of the Beni Marian state (668-869 H/1269-1465A.D)

إعداد د/ عبدالله أحمد همام عبدالمجيد

دكتوراه فى التاريخ الاسلامى – كلية الآداب– جامعة أسوان

أسوان- جمهورية مصر العربية

Hmamb227@gmail.com

ملخص:

يتناول هذا البحث موضوع الأمراض وأثرها على الحياة السياسية فى دولة بنى مرين ببلاد المغرب ومن صور هذا التأثير أثرها على التولية والعزل إذ يؤدى تدهور صحة السلطان فى مرضه إلى اقتراح الأمراء عليه بتولية ابنه ولاية العهد خوفاً من حدوث الاضطرابات وتدهور الأحوال السياسية فى البلاد ، وجرت العادة لدى سلاطين بنى مرين إلى التوجه نحو تعين من يشغل منصب ولاية العهد فور مرضهم وذلك خشية حدوث أى تداعيات سياسية يهدد كيان الدولة المرينية واستقرارها السياسي أثناء مرضهم.

كما تطرق أثر الأمراض أيضاً إلى الحملات العسكرية والحروب، حيث كانت الأمراض تعرقل العمليات العسكرية التوسعية للدولة المرينية، وخاصة وقت الحملات العسكرية التى قادها سلاطين بنى مرين بأنفسهم حيث كان مرضهم أوقات الحروب يؤدى إلى تعطيل تحركات الجيش لانتظار شفاء السلطان، بل كان يؤدى ذلك إلى تهديد الحفاظ على المكتسبات العسكرية التى حققها هذا الجيش فى الحملات.

وكشفت الدراسة عن أثر الأمراض على الأحوال الداخلية للبلاد واندلاع الثورات والاضطرابات السياسة حيث كان مرض السلطان المرينى من أنسب الأوقات لتدبير المؤامرات السياسية نتيجة إنشغاله بتلقى العلاج عن أمور حكمه ومزاولة مهامه السياسية بالدولة المرينية، مما يساعد ذلك المتآمرين لتنفيذ خططهم كتهريب المعتقلين سياسياً من السجون مما له الأثر الخطير على كيان الدولة.

الكلمات المفتاحية: الأمراض، الحياة السياسية، بنى مرين، المغرب الأقصى.

Abstract:

This research deals with diseases and their impact on political life in the country of Beni Marian in the Maghreb. This is reflected in its effect on the sultan's assumption and removal, as the Sultan's ill health leads the princes to propose that his son take over the throne ,fearing unrest and deteriorating political conditions in the country.

The Sultans of sons of Marian had the custom of appointing Covenant mandate holders as soon as they are ill, This is for fear of any political repercussions that threaten the entity and political stability of the Marian state during their illness.

The impact of disease also touches on military campaigns and wars, as they were hampering the expansion of the Marian state, Especially in times of military campaigns Led by the Marian sultans themselves, as their illness during the war disrupted the army's movements waiting until the sultan was healed, It also threatened to preserve the military gains made in the campaigns.

The study revealed the impact of diseases on the internal conditions of the country, revolutions and political upheavals. The Sultan's illness was one of the best times for political intrigue, Because he was too busy receiving treatment, Leaving his rule and exercising his political duties in the

Marian state. This helps the conspirators to carry out their plans, such as smuggling political prisoners from prisons, which has a serious impact on the state.

Key words :Diseases, political life, Beni Marin

مقدمة:

يرصد البحث أثر الأمراض على الحياة السياسية حيث لعبت الأمراض دوراً مهماً في مجرى الأحداث السياسية بدولة بنى مرين سواء بالسلب او الإيجاب، وازداد خطر الأمراض الوبائية فى أحداث تولية المناصب المرموقة فى الدولة وعزلها، حيث لعبت الأمراض دوراً مهماً على الصعيد السياسي وخاصة في منصب ولاية العهد نظراً لخطورة فترة مرض السلطان المرينى وغيابه عن مسرح الأحداث فكان من اللازم التحرك واتخاذ الإجراءات السريعة من قبل السلطات التنفيذية لسرعة إحضار ولي العهد إلى دار السلطنة وفى حالة غيابه خارجها يقومون بإتمام مراسم البيعة، خوفاً من حدوث أى خطر يهدد السلطنة على الصعيد السياسى.

ومن آثار الأمراض الخطيرة على المستوى السياسي خاصة الحملات العسكرية والحروب لما أحدثته من الفتك بأرواح الجنود الذين يعدون أهم مقومات الجيوش فكانت بذلك العامل المسؤول عن الهزيمة أو الانتصار في بعض المعارك والحملات العسكرية،كما أن السلطان المريني فى أثناء مرضه كان لا يستطيع مزاولة أمور حكمه وسياسة دولته نظراً لتلقيه العلاج الذى يحتاج إلى الراحة وتوفير الهدوء التام لإتمام شفائه من مرضه، الأمر الذى يمثل خطورة بالغة فى أوقات الحروب وقيادة الحملات العسكرية مما ينتج عنه عرقلة حركات الجيش وتنفيذ الخطط العسكرية، واضطرار السلطان المريض اللجوء إلى أماكن هادئة بعيدة عن ساحة القتال لتلقى العلاج والتى قد تطول إلى عدة شهور حتى تتماثل صحته للشفاء.

كما كان مرض السلطان من أكبر الضربات القاسية التى تتلقاها الحملات العسكرية المرينية من ملاقاة أعدائهم لما ينتج عمها من خفض الروح المعنوية للجيش واختلال الصفوف فيضطر القادة إلى التقهقر أمام أعدائهم وعدم الثبات مما يؤدى ذلك إلى هزيمة الجيوش ووقوع الخسائر الفادحة فى الأرواح والمعدات وغيرها.

وظهرت آثار الأمراض في أحداث الفتن والإضطرابات السياسية التى كانت تحيق بالدولة المرينية بالمغرب حيث لعبت الأمراض دوراً مهماً فى الفتن والصراعات السياسية التى كانت تحدث بين أفراد الأسرة الحاكمة فى تولية السلطنة المرينية، حتى إنها كانت تتحكم فى مجرى الأحداث وترجيح كفة أحد المتنازعين على السلطنة بل قلب الموازين رأساً على عقب فى السيطرة على زمام الأمور .

أهداف البحث:

يمكن تلخيص أهداف البحث فيما يلى:

- التعريف بالامراض من حيث: أثرها على شتى نواحى الحياة السياسية، خاصة التولية والعزل، الحملات العسكرية والحروب، الفتن والاضطرابات السياسية.
- تسليط الضوء على أثر الامراض سواء الأمراض الوبائية أو أمراض سلاطين بنى مرين والامراء على الحياة السياسية بالدولة المرينية.
- توضيح الآثار الناجمة عن الأمراض الوبائية فى المعارك وخاصة الخسائر البشرية.

أهمية البحث:-

يكتسب موضوع البحث أهمية متزايدة بسبب ما كانت تسببه الأمراض من خسائر فادحة فى أرواح الجنود والتدمير الكامل لمقومات الجيش فيترتب عليه انتصار الجيش الاسلامى أو الهزائم الساحقة التي يتعرض لها جيش أعدائه بفعل الآثار الناجمة عن تلك الأمراض الوبائية والفتك بالجنود والقادة فى الحروب والحملات العسكرية.

لقد كانت الكوارث الناجمة عن الأمراض أكبر الأسباب التي تحكمت فى بعض الأحداث السياسية خاصة فى التولية والعزل وكذلك فى وقت الفتن والاضطرابات السياسية، وكذلك أثرها على الحملات العسكرية فكانت الأمراض تؤدى إلى تحطم الروح المعنوية للجنود لكثرة ضحاياها بين صفوفهم أو لموت قادتهم من الأمراض الوبائية المنتشرة مما ينعكس بالسلب على نتيجة المعارك بالهزيمة المحققة ووقوع الجنود بين قتلى أو أسرى فى أيدى أعدائهم.

مشكلة البحث:-

من خلال ما سبق ذكره من أهمية البحث، وحتى نتمكن من تحقيق أهداف البحث، تتضح مشكلة البحث من خلال السؤال الرئيسى التالى: ما هى آثار الأمراض على الحياة السياسية لدولة المغرب فى عهد بنى مرين وكيفية استفادة الدولة المرينية منها فى بلاد المغرب وأثرها فى خط سير الأحداث السياسية ؟

منهج البحث:-

اعتمد الباحث على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي في هذه الدراسة، حيث قام بجمع المعلومات والروايات التاريخية من خلال الرجوع إلى المصادر والمراجع وتحليلها بشكل موضوعي يخدم موضوع الدراسة في حرص وحذر حتى لا نخلط من أحداثها المتشابهة والمتباينة وإبراز الآثار التدميرية الناجمة عن الأمراض وما تلحقه من خسائر بشرية ومادية ومدى أثر ذلك فى التولية والعزل والحملات العسكرية والحروب والفتن والاضطرابات السياسية.

أقسام البحث:

للإلمام بمختلف جوانب الموضوع تم تقسيم البحث إلى ثلاثة محاور:

أولاً: أثر الأمراض على التولية والعزل.

ثانياً: أثر الأمراض على الحملات العسكرية والحروب.

ثالثا: أثر الأمراض على الفتن والاضطرابات السياسية.

وفيما يلى تناول محاور البحث بالتفصيل.

المحور الأول: التولية والعزل:-

فى الحقيقة كانت الأمراض أحد العوامل التى حفزت سلاطين بنى مرين[1] لإتخاذ خطوة فى غاية الأهمية وهى إشغال منصب سياسي خطير فى الدولة هو ولاية العهد، والذى كان غالباً لتعين أحد أبنائهم وذلك لإدراكهم مدى خطورة غياب الحاكم عن السلطة السياسية فى الدولة ولاسيما فى فترات المرض التى قد تتجاوز أياماً بل شهوراً، فيلجأ السلطان المرينى سريعاً لتعين من يقوم بهذه الأعباء السياسية فى تلك الفترات الحرجة لملء الفراغ السياسى، كما فعل السلطان المرينى يعقوب[2] بن عبدالحق (657-685هـ/1259-1286م) حين خرج من مراكش[3] قاصداً فاس[4] فمرض عند اجتيازه

---

(1) للمزيد ومعرفة "أسماء سلاطين بنى مرين وفترات حكمهم" انظر ملحق (2)، صـ12.

(2) المنصور المريني(607- 685هـ/1210- 1286م):" هو السلطان يعقوب بن عبد الحق بن محيو بن أبي بكر بن حمامة المريني الزناتي، أبو يوسف. كانت له في عهد أخيه " أبي بكر " إمارة بلاد تازا وبطوية وملوية (في المغرب الأقصى) ولما مات أخوه سنة 656 هـ وولي ابنه (عمر بن أبي= =بكر) كان يعقوب في رباط تازا، فأقبل إلى فاس، فقاتل عمر (ابن أخيه) فنزل له هذا عن الأمر وجددت البيعة ليعقوب. وكل ذلك في سنة 656 .. توفى سنة 685هـ/1286م.." انظر الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد(2002)، الأعلام، ط.15، دار العلم للملايين، بيروت، ج8، صـ199.

(3) **مراكش**:" مدينة من أعظم مدن بلاد المغرب،وبها سرير ملوكه، فى وسط بلاد البربر، بينها وبين البحر عشرة أيام. ومعنى مراكش بالبربرية أسرع المشى؛ لأنها كانت موضع مخافة..." القزويني، زكريا بن محمد بن محمود،(د.ت)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، صـ111 ؛ ابن عبدالحق،عبد المؤمن بن عبد الحق(1991)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط.1، دار الجيل، بيروت، ج3، صـ 1251.

(4) **فاس:**" مدينة كبيرة مشهورة على بر المغرب فى بلاد البربر، وهى حاضرة البحر، وأجل مدنه قبل أن تختط مراكش، وهى مختطة بين ثنيتين عظيمتين..." ابن عبدالحق،عبد المؤمن بن عبد الحق(1991)، المصدر السابق، ج3، صـ 1014؛ الحميري، محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم الحميري،(1980)، الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط.2، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، صـ434 .

مدينة سلا[1] أياماً ومكث بها لتلقى العلاج من مرضه الشديد، وفور شفائه جمع رجال دولته وعقد ولاية العهد لأكبر أبناءه الأمير أبى مالك عبدالواحد[2] بن يعقوب وأخذ البيعة له سنة 669هـ/1271م[3].

وليس أدّل على خطورة أثر الأمراض على الكيان السياسي خاصة على ولاية العهد من الاهتمام الذى تناله فترة مرض السلطان المرينى من خلال الإجراءات السريعة التى تتخذها السلطات التنفيذية لسرعة إحضار ولي العهد إلى دار السلطنة فى حالة غيابه خارجها لإتمام مراسم البيعة، خوفاً من حدوث أى خطر يهدد السلطنة على الصعيد السياسى فى غياب السلطان المريض عن المسرح السياسي، وفى حالة تأخر حضورة كان كبار رجال الدولة يتولون عقد البيعة لحين وصوله، كما هو الحال حين مرض السلطان يعقوب بقصره بالجزيرة الخضراء[4]، فأرسل خبر مرضه على وجه السرعة إلى ولي عهده الأمير يوسف[5] للحضور وكان حينئذ فى المغرب[6] بأحواز فاس، فأسرع السير ليدرك والده إلا أن والده السلطان قد أدركه الموت بعد مرضه، وقام كبار رجال الدولة بأخذ البيعة له لحين وصوله، وجددت البيعة مرة أخرى عند وصوله للجزيرة سنة 685هـ/1286م[7].

ومما لاشك فيه أن الأمراض الوبائية قد أثرت بالسلب على الأدارة السياسية الحاكمة للبلاد لما تلحقه من ضحايا فى صفوف رجال الدولة خاصة إذا تزامن ذلك مع وقت توليتهم، ومن ضحاياها الأمير عبدالواحد اللجياني الذى ولاه

(1) **سلا:**" مدينة بأقصى المغرب، بينها وبين مراكش على ساحل البحر تسع مراحل..." ابن عبدالحق،عبد المؤمن بن عبد الحق(1991)، المصدر السابق، ج2، صـ724؛ العمرى، أحمد بن يحى بن فضل الله القرشي، (2002)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، صـ319.

(2) هو " الأمير أبي مالك عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق، وكان لهذا الأمير مجلس علمي وأدبي في مراكش انتعشت به الحياة الثقافية في هذه المدينة..." المراكشي، محمد بن محمد بن عبد الملك،(2012)، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ط.1، دار الغرب الإسلامي، تونس، ج1، صـ84.

(3) الناصرى، أحمد بن خالد،(1997)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري، محمد الناصري،ط.1،دار الكتاب، الدار البيضاء، ج3، صـ29.

(4) **الجزيرة الخضراء:**" مدينة مشهورة بالأندلس.." ابن عبدالحق،عبد المؤمن بن عبد الحق(1991)، المصدر السابق، ج1، صـ331.

(5) الناصر المريني(638 - 706هـ/1240- 1307م): هو السلطان الناصر لدين الله، أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني.. من ملوك الدولة المرينية في المغرب الأقصى. بويع له بعد وفاة أبيه سنة 685هـ بعهد منه، وكان في الجزيرة الخضراء، فرحل إلى فاس، وبعث إلى " ابن الأحمر " فاجتمع به في ظاهر " مربالة " ونزل له عن جميع ثغور الأندلس التي كانت في حوزة أبيه، محتفظا بالجزيرة ورندة وطريف.." الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد(2002)، المصدر السابق، ج8، صـ 258.

(6) المغرب الأقصى انظر ملحق (1)، صـ11.

(7) الناصرى، أحمد بن خالد،(1997)، المصدر السابق، ج3، صـ66.

السلطان أبوالحسن على[1] بن عثمان (731-749/1331-1348م) على الثغور الشرقية طرابلس وقابس[2] وصفاقس[3] وجربه[4] وكان السلطان بتونس[5]، إلا أن الأمير عبدالواحد مات بالطاعون فور وصوله سنة 749هـ/1349م[6].

ولم تسلم المناصب الإدارية العليا بالدولة المرينية من أثر الأمراض فى عرقلة أعمالها وكانت الدولة تحاول تفادى هذه الآثار من خلال القيام بتولية من يقوم بتلك الأعمال فترة تلقي الأشخاص المرضى للعلاج؛ حتى لا تتعطل شئون الدولة الإدارية والسياسية خاصة فى المناصب المرموقة بالدولة مثل كتابة العلامة على المكاتبات السلطانية التى تحتاج إلى صفات خاصة لمتوليها نظراً لخطورتها على الكيان السياسي كما حدث للفقيه الإمام أبو محمد عبدالمهيمن[7] ابن الإمام القاضي أبي عبدالله الحضرمي وكان يتولى كتابة العلامة عند السلطان أبو سعيد ومن بعده للسلطان أبى الحسن المريني، وكانت علامته مهمة على المكاتبات السلطانية السرية، وكان إذا تخلف لمرض أو سفر توجه الأوامر إليه التى لابد من علامته فيها، وهذه العلامة كانت توضع أسفل الأوامر والمكاتبات السلطانية، فلما تعذر إرسال المكاتبات السلطانية إليه نظراً لمرضه بمرض النقرس[8] وكان مقيم بتونس، بينما كان السلطان المريني فى صراعه ضد الزيانيين، ونظراً لخطورة موقف السلطان

---

(1) **المنصور المريني**(697- 752هـ/1297-1351م):" المنصور بالله أبو الحسن، علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني، من كبار بني مرين، ملوك المغرب، بويع بفاس بعد وفاة أبيه سنة 731هـ بعهد منه،وكان بنو زيان أصحاب تلمسان على غير وفاق مع بني مرين، فصالحهم فنكثوا، فزحف عليهم سنة 735هـ فافتتح وجدة وهدم أسوارها، واستولى على وهران وهنين وملیانة والجزائر.. ثم تم له فتح تلمسان، وأطاعته زناتة..... " انظر الصفدى، خليل بن أيبك بن عبدالله (1998)، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: د.علي أبو زيد& د.نبيل أبو عشمة& د.محمد موعد& د.محمود سالم محمد، ط.1، دار الفكر المعاصر، بيروت، ج3، صـ386؛ الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد(2002)، المصدر السابق، ج4، صـ311.

(2) **قابس**:" مدينة بين أطرابلس وسفاقس ثم المهدية على ساحل بحر المغرب، من أعمال إفريقية وبها مرفأ السفن من كل مكان..." ابن عبدالحق،عبد المؤمن بن عبد الحق(1991)، المصدر السابق، ج3، صـ1054.

(3) **صفاقس**:" مدينة من نواحى إفريقية على ضفة الساحل جل غلاتها الزيتون، وبها أسواق كثيرة ومساجد وجوامع، وأسوارها صخر..." ابن عبدالحق،عبد المؤمن بن عبد الحق(1991)، المصدر السابق، ج2، صـ717.

(4) **جربه:"** قرية كبيرة بالمغرب. وقيل: جزيرة بالمغرب، من ناحية إفريقية، قرب قابس يسكنها البربر..." ابن عبدالحق،عبد المؤمن بن عبد الحق(1991)، المصدر السابق، ج1، صـ322-323.

(5) **تونس**:" مدينة بأرض المغرب كبيرة على ساحل البحر، قصبة بلاد افريقية..." القزويني، زكريا بن محمد بن محمود،(د.ت)، المصدر السابق، صـ 173؛ ابن عبدالحق،عبد المؤمن بن عبد الحق(1991)، المصدر السابق، ج1، صـ282.

(6) الزركشي، أبى عبدالله محمد بن إبراهيم(1966)، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق: محمد ماضور، ط.2، المكتبة العتيقة، تونس، صـ85.

(7) **الْحَضْرَمي(676- 749هـ/1277- 1348م)**" هو الفقيه عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن الحضرمي، وهو من أهل سبته، وأصل سلفه من الأندلس، من بيت القضاة والعلماء، والإمارة، وكتب عبد المهيمن هذا للأمير يحيى بن الأمير أبي طالب العزفي بسبتة .... وكتب بالعدوة أيضا لأمير المسلمين السّعيد بفضل الله أبي سعيد عثمان ابن أمير المسلمين المنصور بالله أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، العلامة. ثم كتبها لابنه أمير المسلمين المنصور بالله أبي الحسن علي، ولم يزل عليها إلى أن ارتحل السلطان أبو الحسن إلى تونس؛ فلما استقر بها أخّره عن العلامة، فمات بتونس سنة 749هـ." ابن الأحمر، إسماعيل بن يوسف بن محمد بن نصر، (1976)، أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن، تحقيق: محمد رضوان الداية، ط.1، مؤسسة الرسالة، بيروت، صـ 223-224؛ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر ،(د.ت)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق : محمد أبوالفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، ج2، صـ 116-117؛ الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد(2002)، المصدر السابق، ج4، صـ169.

(8) **النقرس**:" داء فى الرجل" الفراهيدي، الخليل بن أحمد ،(د.ت)، كتاب العين، تحقيق: د مهدي المخزومي، د.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، القاهرة، ج5، صـ252

لهزيمته أمام الزيانين فى القيروان، اضطر إلى تعين الفقيه أبوالفضل ابن أبى محمد عبدالله بن أبى مدين ليقوم بمهام الفقيه أبومحمد عبدالمهيمن فى كتابة العلامة على المكاتبات السلطانية بدلاً منه سنة 749هـ/1349م[1].

وكما جرت العادة لدى سلاطين بنى مرين من التوجه نحو تعيين من يشغل منصب ولاية العهد فور مرضهم وذلك خشية حدوث أى تداعيات سياسية يهدد كيان الدولة المرينية واستقرارها السياسي أثناء مرضهم كما هو الحال فى مرض السلطان أبى الحسن الذى توجه إلى تعين ابنه الأمير أبى عنان[2] ولاية العهد، وكان قد مرض أثناء تواجده فى مراكش فوافته المنية بها، وبعث رجال الدولة على وجه السرعه لابنه للحضور وكان حينذاك بساحة مراكش وحينئذ تولى السلطنة ودفن والده بمراكش سنة 752هـ/1351م[3].

ومن سلاطين بنى مرين الذى كان المرض حافزاً لمبايعته وتوليه السلطنة المرينية بدلاً من ولي العهد بتدبير من الوزير الذى اتخذ من مرض السلطان ذريعة للتخلص منه بقتله وعزل ولي العهد وتولية غيره من أبنائه، كتولية السلطان أبىبكر[4] المرينى(759-760هـ/1358-1359م) الذى بويع بالسلطنة لمرض أبيه السلطان أبى عنان فارس بن على وكان محجوباً بوزيره الحسن[5] بن عمر الفودودى فقتل هذا الوزير السلطان أبى عنان وهو مريض خنقاً، وكان السلطان أبوبكر صغيراً فى الخامسة من عمره، وهذا الوزير كان على غير وفاق مع ولي العهد الأمير أبى زيان محمد بن أبى عنان، فانتهز هذا الوزير فرصة مرض السلطان أبى عنان لتنفيذ خطته وبايع السلطان أبابكر الصغير وأجبر أخاه ولى العهد على مبايعته، فبايع ثم قتل وأعلن الوزير أبابكر سلطاناً وانفرد بإدارة شئون البلاد سنة 759هـ/1358م[6].

وعلى صعيد آخر كان كبار رجال الدولة المرينية يدركون خطر غياب السلطان عن أمور حكمه فترة تلقيه العلاج أثناء مرضه، وأثر ذلك على أحوال السياسية بالبلاد وزعزعة الاستقرار السياسي، فكانوا يسارعون بإخبار ولي العهد ويستقدمونه على وجه السرعة لملء الفراغ السياسي الذى تركه والده السلطان فترة مرضه لاسيما إذا مرض السلطان

---

(1) ابن مرزوق، محمد بن أحمد بن مرزوق، (1981)، المنسد الصحيح الحسن فى مآثر ومحاسن مولانا أبى الحسن، تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، صـ 264، 265؛ محفوظ، محمد،(1994)، تراجم المؤلفين التونسيين، ط.2، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ج2، صـ 159.

(2) أبو عنان المريني(729 - 759هـ/ 1329- 1358م):" هو الأمير فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب المريني، من ملوك الدولة المرينية بالمغرب. ولد بفاس الجديدة (المدينة البيضاء) ونشأ محبوبا في قومه، لفضله وعلمه، وولاه أبوه إمارة " تلمسان" ثم ثار على أبيه، وبويع في حياته سنة 749هـ ولما مات أبوه سنة 752 هـ استتب أمره....." ابن حجر، أحمد بن على، (1972)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، ط.2، مجلس دائرة المعارف العثمانية، صيدر اباد، 1972م، ج4، صـ256-257؛ الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد(2002)، المصدر السابق، ج5، صـ 127.

(3) الزركشي، أبى عبدالله محمد بن إبراهيم(1966)، المصدر السابق، صـ 90.

(4) ابوبكر المرينى(759هـ-760هـ/1358-1359م):" هو السلطان ابوبكر بن أبى عنان فارس بن على وهذا السلطان أول من استبد عليه من ملوك بني مرين، أمه أم ولد اسمها الياسمين كنيته أبو يحيى .. بويع وأبوه مريض في التاريخ المتقدم وكان محجوبا بوزيره حسن بن عمر الفودودي لا يملك معه ضرا ولا نفعا ..." الناصرى، أحمد بن خالد،(1997)، المصدر السابق، ج4، صـ 3.

(5) الفودودي(ت: 761 هـ/1360 م):" هو الوزير الحسن بن عمر الفودودي من وزراء الدولة المرينية في المغرب الأقصى كان بفاس، وزيرا للسلطان أبي عنان (فارس بن علي) ولم يكن على ولاء مع ولي العهد أبي زيان محمد بن أبي عنان. ومرض السلطان، فخشي الحسن أن يصير الملك إلى أبي زيان فاستحضر طفلا في الخامسة من عمره، من أبناء السلطان، اسمه أبو بكر، واحتال على أبي زيان فحضر، وأجبر على البيعة لأخيه أبي بكر، فبايع، ثم أدخل إلى إحدى حجر القصر فقتل. وأعلن الحسن البيعة لأبي بكر (الطفل) وانفرد بادارة شؤون الدولة آخر سنة 759هـ وطارد أبناء السطان الآخرين....." الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد(2002)، المصدر السابق، ج2، صـ 208.

(6) الناصرى، أحمد بن خالد،(1997)، المصدر السابق، ج3، صـ 205.

خارج دار ملكه، كما حدث حين مرض السلطان أبى العباس أحمد[1] المريني (789-796هـ/1387-1393م) بتازا واشتد به حتى أشرف على الموت، فاستدعى رجال دولته ابنه الأمير أبا فارس[2] من تلمسان[3] فبايعوه فور وصوله بتازا، ورجعوا به إلى فاس سنة 796هـ/ 1393م[4].

المحور الثاني:الحملات العسكرية والحروب:

ومن المعروف أن السلطان المريني أثناء مرضه لا يستطيع مزاولة أمور حكمه وسياسة دولته نظراً لتلقيه العلاج الذى يحتاج إلى الراحة وتوفير الهدوء التام لإتمام شفائه من مرضه، الأمر الذى يمثل خطورة على الكيان السياسي لاسيما فى أوقات الحروب وقيادة الحملات العسكرية مما يؤدى إلى عرقلة حركات الجيش وتنفيذ الخطط العسكرية، نتيجة اضطرار السلطان المريض اللجوء إلى أماكن هادئة بعيدة عن ساحة القتال لتلقى العلاج والتى قد تطول إلى عدة شهور حتى تتماثل صحته للشفاء فتعطل خلال ذلك مصالح الحرب كعقد الصلح، ولخطورة مرضه فى تلك الأوقات الحساسة حرص السلطان المريني على كتمان أخبار مرضه والاكتفاء بطمئنة الناس على أحواله الصحية، كما حدث ذلك أثناء صراع بنى مرين مع القشتالين بالأندلس، وجنح القشتاليين للسلم وبعثوا الرسل للسلطان أبى يوسف يعقوب (657-685هـ/1259-1286م) لإتمام عقد الصلح، وكان فى ذلك الوقت قد رحل السلطان من أرجونة[5] مسرح الأحداث إلى الجزيرة الخضراء لتلقى العلاج من مرض أصابه حتى مكث بها سبعين يوماً، ووصل خبر مرضه للناس فحرص السلطان إلى إرسال ابنه الأمير يوسف ليطمئن الناس على صحته، فلما تماثلت صحته للشفاء أتم عقد الصلح بعد الاطلاع على بنود الصلح الذى عقد بين الملك ألفونسو العاشر القشتالى والسلطان الغرناطي وذلك سنة 676هـ/1278م[6].

وحرص سلاطين بنى مرين فور مرضهم على استدعاء ولاة العهد ليكونوا بجانبهم وعلى يقظة لخطورة هذا الأمر خاصة وقت إنفاذ الحملات العسكرية والحروب، الأمر الذى يستدعي على ولى العهد ويضطره إلى ترك ما يشغله والتفرغ

---

(1) السلطان أبى العباس(ت: 796هـ/1393م): هو السلطان أبى العباس أحمد بن إبراهيم بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، بن السلطان أبي سالم بن السلطان أبي الحسن المريني، صاحب فاس وملك المغربأخرج في ابتداء أمره مع الأبناء إلى طنجة، فاعتقل بها إلى أن بعث ابن الأحمر إلى محمد بن عثمان متولي سبتة يحسن له مبايعة أبي العباس هذا،فركب محمد بن عثمان المذكور من سبتة إلى طنجة وأخرج أبا العباس وبايعه له، وحمل الناس على طاعته، فبايعه غالب أصحاب تلك الممالك.. توفي سنة 796هـ/1393م" انظر أبو المحاسن، جمال الدين يوسف بن تغري بردي بن عبد الله(د.ت)، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق: د. محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ج1، صـ215-216.

(2) المستنصر الثاني(ت: 799هـ/ 1396م):" هو الأمير أبو فارس عبد العزيز بن أحمد بن إبراهيم المريني، الملقب بالسلطان المستنصر بالله: من ملوك الدولة المرينية في المغرب الأقصى، كان مع أبيه (أبي العباس)، في معتقل أبناء الملوك المرينيين بحمراء غرناطة، وانتقل معه إلى المغرب حين تم له دخلول فاس، وولاه أبوه قيادة الجيش لإخضاع تلمسان، فتوجه إليها وتوفي أبوه في تازا. فاستدعاه رجال الدولة فبايعون بها، سنة 796 هـ وانقادت له تلمسان وسائر المغرب، فاستمر ثلاث سنين وشهرا، ومات بفاس....." الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد(2002)، المصدر السابق، ج4، صـ14.

(3) **تلمسان**:" مدينة بالمغرب.. وبعضهم يقول: تنمسان مدينتان متجاورتان مسورتان بينهما رمية حجر، إحداهما قديمة والأخرى حديثة، اختطها الملثمون، يقال لها بافرزت ، يسكنها الجند وأصحاب السلطان؛ واسم القديمة أقادير «3» ، ويسكنها الرعية، " القزويني، زكريا بن محمد بن محمود،(د.ت)، المصدر السابق، صـ 172؛ ابن عبدالحق،عبد المؤمن بن عبد الحق(1991)، المصدر السابق، ج1، صـ272-273.

(4) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (1988)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، ط.2، دار الفكر، بيروت، ج7، صـ483.

(5) **أرجونة**: " مدينة أو قلعة بالأندلس.." الحميري، محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم الحميري،(1980)، المصدر السابق، صـ26.

(6) ابن أبي زرع، على بن عبدالله الفاسى ،(1972)، الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ط.1، دار المنصور للطباعة، الرباط، صـ 328؛ المحلاوى، حسام محمود،(2013)، العلاقات السياسية بين مملكة بنى مرين ومملكة قشتالة فى عهد السلطان أبى يوسف يعقوب بن عبدالحق (656-685هـ/ 1258-1286)، مجلة كلية الآداب-جامعة المنصورة، ع52، صـ892.

ليتولى مزاولة أمور الحكم لحين شفاء السلطان من مرضه لحد ترك قيادة الغزوات العسكرية، كما حدث حين مرض السلطان أبو يوسف يعقوب بمراكش مرضاً شديداً فكتب لابنه على الفور سرعة الحضور، وبالفعل ترك الأمير يوسف مهامه العسكرية التى كان قد أرسله والده السلطان لانفاذها وهى غزو العرب والقبائل الخارجة ببلاد السوس[1]، فاضطر ولى العهد ترك غزواته العسكرية ليدرك والده السلطان المريض بمراكش، وظل ملازماً له حتى تماثلت صحته للشفاء ورحل السطان عن مراكش قاصداً بلاد الأندلس للجهاد وذلك سنة 683هـ/1284م[2].

وكانت الأمراض تعرقل العمليات العسكرية التوسعية للدولة المرينية، وخاصة وقت الحملات العسكرية التى قادها سلاطين بنى مرين بأنفسهم حيث كان مرضهم أوقات الحروب يؤدى إلى تعطيل تحركات الجيش لانتظار شفاء السلطان، بل كان يؤدى ذلك إلى تهديد الحفاظ على المكتسبات العسكرية التى حققها هذا الجيش، مثلما حدث حين مرض السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبدالحق وكان قائداً على رأس حملة عسكرية على حصن الجزيرة بأطراف الأندلس واشتد مرضه حتى مات، فاضطر ابنه الأمير أجيلد من حمله إلى سلا ودفنه بها، وتولى ابنه الأمير أبو يعقوب يوسف[3] (685-705هـ/1286-1306م) السلطنة بفاس، الذى همّ لتدارك خطورة الموقف على الحملة العسكرية وحفاظاً على جيش أبيه وخزائنه، اضطر إلى اصدار أوامره العسكرية بانسحاب الجيش المريني، بل أعاد أكثر البلاد التى استولى عليها أبوه للملك محمد بن الأحمر وعاد إلى بلاده سنة 685هـ/1286م[4].

ولعبت الأمراض دوراً مهما فى الصراعات السياسية التى كانت تنشأ بين أفراد الأسرة الحاكمة فكان مرض الابن الثائر على السلطنة المرينية من أنسب الأوقات التى اختارها السلطان المرينى لبسط سيطرته ونفوذه على اتباع ابنه الثائرين نتيجة انشغال ابنه المريض بمرضه عن أخذ الحذر أثناء ثورته، كما حدث حين ثار الأمير أبو على[5] صاحب سجلماسة[6]

---

(1) **بلاد السوس الأقصى**:" وهى مدن كثيرة وبلاد واسعة يسقيها نهر عظيم يصب فى البحر المحيط يسمى وادى ماسة، وجريه من القبلة إلى البحر .. وعليه القرى المتصلة والعمائر الكثيرة والبساتين والجنات بأنواع الفواكه والثمار والأعناب وقصب السكر..." الإدريسى، محمد بن محمد بن عبد الله،(1988)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط.1، عالم الكتب، بيروت، ج1، صـ 227.

(2) ابن أبى زرع، على بن عبدالله الفاسى ،(1972)، المصدر السابق، صـ 340؛ الناصرى، أحمد بن خالد،(1997)، المصدر السابق، ج3، صـ 58.

(3) **الناصر المريني**(638- 706هـ/1240- 1307م):" هو السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني، السلطان الناصر لدين الله، أبو يعقوب: من ملوك الدولة المرينية في المغرب الأقصى. بويع له بعد وفاة أبيه سنة 685 هـ بعهد منه، وكان في الجزيرة الخضراء، فرحل إلى فاس..... توفى سنة 706هـ/1307م" ابن حجر، أحمد بن على، (1972)، الدرر الكامنة، ج6، صـ 255؛ الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد(2002)، المصدر السابق، ج8، صـ 258.

(4) العيني، محمود بن أحمد بن موسى،(2010)، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، ط.1، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ج2، صـ 346- 347.

(5) **أبو علي المريني**(696 - 734 هـ/ 1296- 1333م):" هو الأمير عمر بن عثمان بن يعقوب المريني، أبو علي: من سلاطين الدولة المرينية بالمغرب. كان ولي عهد أبيه،وأدركته نزوة حمقاء فخلع أباه وقاتله وجرحه سنة 714هـ وأقام قليلا بفاس، وأبوه بتازا ولم يستطع القيام بالأمر، فجاءه أبوه فاتفقا على أن يعود الأب إلى عرشه وأن يتولى الابن سجلماسة وما والاها، ورحل إلى سجلماسة سنة 715هـ، فأقام مستقلا ثم انتقض على أبيه، ولم يفلح فعفا عنه أبوه... ومدة دولته بسجلماسة 19 سنة وأشهر..." ابن القاضي، أحمد بن محمّد المكناسى، (1971)، درّة الحجال فى أسماء الرّجال، تحقيق: محمد الأحمدى أبو النور، ط.1، دار التراث، القاهرة، ج3، صـ 202 ؛ الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد(2002)، المصدر السابق، ج5، صـ 54.

(6) **سجلماسة**:" مدينة في جنوب المغرب في طرف بلاد السودان، في مقطع جبل درن في وسط رمل، بها نهر كبير غرسوا عليه بساتين ونخيلا .." القزويني، زكريا بن محمد بن محمود،(د.ت)، المصدر السابق، صـ 42؛ ابن عبدالحق،عبد المؤمن بن عبد الحق(1991)، المصدر السابق، ج2، صـ 694؛ الحميري، محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم الحميري،(1980)، المصدر السابق، صـ 305 .

بن السلطان أبو سعيد عثمان[1] بن يعقوب(710-731هـ/1310-1331م) على والده وكان قد جعل له الإبرام والنقض فى الدولة المرينية، فانتهز السلطان فرصة مرض ابنه الثائر لتنفيذ خطته الهجومية وإرسال حملة عسكرية للقضاء على ثورته، وهو ما تم بالفعل وتمكن من إخضاعه وعاد الأمير أبو علي إلى طاعة والده السلطان سنة 720هـ/1320م[2].

ومن الآثار الخطيرة للأمراض على الحملات العسكرية وأوقات الحروب هو انتشار الفتن والشقاق بين صفوف جنود الحملة فور ذيوع خبر مرض السلطان نتيجة غيابة عن قيادة الجيش العسكرى فيقع الشقاق بين الجند على من يتولى القيادة ولاسيما إذا اندلع هذا الشقاق بين أبناء السلطان المريض مما له الأثر السلبى على الحملة العسكرية، فيضطر السلطان المريض فور علمه إلى الخروج بنفسه وملاقاة الجند لدرأ الفتنة وتوحيد صفوف الجيش، كما حدث حين عسكر السلطان أبى الحسن بن عثمان(731-749/1331-1348م) بمتيجة[3]، بعد تمكنه من الاستيلاء على تلمسان، منتظراً وفادة صهره السلطان ابى بكر بن أبى زكريا الحفصي، وفى أثناء انتظاره طرقه بفسطاطه مرض ألزمه الفراش لتلقى العلاج، فحجبه ذلك عن متابعة أحوال الجند مما أدى إلى وقوع الشقاق والاضطرابات بين صفوف جنده نتيجة تنافس أبناءه الأميران أبو عبدالرحمن وأبو مالك على ولاية العهد، حتى انقسم الجيش وصار فريقين فوصل خبر تلك الفتنة إلى السلطان، فبرز إلى فسطاط الجلوس للظهور بين الناس وتدارك خطر الفتنة وضبط الأمور وانخضع له الجند، وقبض على أهل الفتنة من أفراد الجيش وأودعهم السجن ورجع إلى فسطاطه سنة 738هـ/1338م[4].

ومن ناحية أخرى كما كان للأمراض آثار سلبية على الدولة المرينية عسكرياً، فقد كان لها الآثار الإيجابية من خلال الخسائر الفادحة التى كانت تلحقها بخصوم الدولة المرينية دون الاحتياج من تدخل الدولة المرينية عسكرياً وخاصة فى الحفاظ على المقدرات العسكرية المرينية من خطر الحملات العسكرية المعادية التى كانت تشنها القوات القشتالية على الممتلكات المرينية بالأندلس والتى كانت تمدهم الدولة المرينية بالمساعدات العسكرية لمواجهة الخطر القشتالي، كما هو الحال حين أرسل السلطان المريني حملة عسكرية لفك حصار جبل طارق الذى كان تحت السلطة المرينية، والذى تم محاصرته من قبل القشتاليين بقيادة ملكهم ألفونسو الحادى عشر، وظل هذا الحصار لفترة إلى أن تدخلت الأمراض الوبائية لإجبار القشتاليون من رفع الحصار بعد أن فتكت بصفوف االقشتاليين لدرجة أن قائدهم الملك نفسه صار من ضحاياها سنة 749هـ/1350م[5].

وبذلك أثبتت الأمراض الوبائية قدرتها كأحد العوامل الرئيسة المسئولة عن هزيمة الجيوش لما تحدثه من دمار وخسائر فادحة سواء بشرية أو مادية وخاصة فى الفتك بالجنود أو الدواب كالخيول وغيرها، فتكون النتيجة الهزيمة المحققة، ومن ذلك هزيمة السلطان المرينى أبى الحسن الذى تعرض لهزيمة منكرة على يد عدوة عرب افريقية قرب القيروان

---

(1) أبو سعيد المريني(675-731هـ/ 1276-1331م):" هو السلطان أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني، من ملوك الدولة المرينية بالمغرب ولي بعد وفاة ابن أخيه (سليمان ابن عبد الله " سنة 710هـ بناحية " تازا " وانتقل إلى فاس توفى سنة 731هـ/1331م ومدة ملكه عشرون سنة ونصف.." الصفدى، خليل بن أيبك بن عبدالله (1998)، المصدر السابق، ج3، صـ232-233؛ أبو المحاسن، جمال الدين يوسف بن تغري بردي بن عبد الله(د.ت)، المصدر السابق، ج7، صـ430-431؛ الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد(2002)، المصدر السابق، ج4، صـ 215.

(2) الناصرى، أحمد بن خالد،(1997)، المصدر السابق، ج3، صـ110-114.

(3) **متيجة**:" بلد فى أواخر إفريقية.. وسكانها بنو عبد الواد أصحاب تلمسان (و) بنو عباد، وفرقة تعرف بمغراوة، قال: ومغراوة نحو ثلاثين ألف فارس. " ابن عبدالحق،عبد المؤمن بن عبد الحق(1991)، المصدر السابق، ج3، صـ1227؛ العمرى، أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي، (2002)، المصدر السابق، ج4، صـ394.

(4) الناصرى، أحمد بن خالد،(1997)، المصدر السابق، ج3، صـ132-133.

(5) الزاهرى، سلوى،(2015)، ملاحظات حول السياسة الوحدوية للسطان أبى الحسن المريني(731-749هـ/1331-1348م)، دورية كان التاريخية، س8، ع29، صـ123؛

Kably, mohamd, (1986), société, pouvoir, Religion au maroc à la fin du moyen age, paris, p. 142-144.

سنة 749هـ/1348م ونجا هذا السلطان من الغرق على سواحل بلاد المغرب إثر رجوعه الهروبى عبر البحر فى بداية سنة 750هـ/1349م، وكان من بين أكثر العوامل التى أدت إلى الهزيمة، هو تفشي الأمراض الوبائية بين صفوف الجنود مما ألحق بها خسائر فادحة أدت -بلا شك- لإضعاف جيشه، وكان ذلك جراء الوباء الطاعون الذى اندلع مع بداية 749هـ/1348م، وكان لتأثيره قد أضيف إلى تأثير الهزيمة العسكرية[1].

وكان خبر مرض السلطان من أكبر الضربات القاسية التى تتلقاها الحملات العسكرية المرينية من ملاقاة أعدائهم لما تسببه من انتشار الشائعات واختلال الصفوف وتضارب أخبار مرضه لحد ذيوع خبر موته فيضطر القادة إلى التقهقر أمام أعدائهم وعدم الثبات فى وجه أعدائهم مما يؤدى ذلك إلى هزيمة الجيوش ووقوع الخسائر الفادحة فى الأرواح والمعدات وغيرها، كما حدث أثناء محاصرة جيش بنى مرين لمدينة قسنطينة[2]، عندما أصيب السلطان أبى عنان المرينى بمرض فانتشرت إشاعات بموته فى صفوف الجند، فاضطر القائد الوزير عبد الله بن على رفع الحصار عن قسنطينة والنزول بوادى القطن حتى وصله كتاب السلطان يأمره بالرجوع إلى بجاية[3]، فأحرق المجانيق وغيرها من الآلآت الحربية الثقيلة حتى يسهل عليه السرعة فى السير، ومن ناحية أخرى وصل خبر ذلك إلى السلطان أبى العباس أمير قسنطينة المحاصرة، فشن هجوماً مباغتاً على جيش بنى مرين فتمكن من هزيمتهم وفر الوزير بنفسه جريحاً إلى المغرب سنة 757هـ/1356م[4].

المحور الثالث: الفتن والاضطرابات السياسية:

ولعبت الأمراض دوراً مهماً فى الفتن والصراعات الأسرية التى كانت تحدث بين أفراد الأسرة الحاكمة فى تولية السلطنة المرينية، لدرجة أنها كانت تتحكم فى مجرى الأحداث وترجيح كفة أحد المتنازعين على السلطنة بل قلب الموازين رأساً على عقب فى السيطرة على زمام الأمور حيث كان مرض الأمير الثائر فرصة ينتهزها السلطان المرينى ليفرض السيطرة عليه ويخضعه لحكمه، وهو ما نلمسه حين حدثت الفتنة بين السلطان أبوسعيد عثمان بن يعقوب (710-731هـ/1310-1331م) وابنه الأمير أبو عليّ حتى تطور الأمر الى حدوث الاشتبكات العسكرية بين الطرفين بالقرمدة بين فاس وتازا[5] فانهزم عسكر السلطان وفر جريحاً، وعقد الصلح بين الطرفين على تنازل السلطان لابنه عن الولاية وأن يقتصر ملكه على تاذا وجهاتها، وقصد الأمير أبوعلى فاس بعد أن استوثق ملكه، إلا أنه مرض مرضاً شديداً قلب مجرى الأحداث قلباً على عقب، فانفض رجاله من حوله واضطروا بالرجوع إلى السلطان أبو سعيد بتازا والخضوع له حتى اجتمع كافة جند بنى مرين بحضرة السلطان بتازا التى اتخذها مقراً لسكناه، وولى ابنه الأمير أبى الحسن ولاية العهد والتفويض بدلاً من أخيه الأمير أبو علىّ، وفى النهاية اضطر الأمير أبو علي الخضوع لابيه السلطان بعد أن تماثلت صحته للشفاء، فعفى عنه والده وولاه سجلماسة، وعاد السلطان وأصلح شئون ملكه وأنزل ولى عهده الأمير أبا الحسن بالدار البيضاء من قصوره، وفوّض إليه

(1) Kably, mohamd, (1986), op.cit, p. 142-144.

(2) **قسنطينة**:" من مشاهير بلاد إفريقية، بين تيجس وميلة، وهي مدينة أولية كبيرة آهلة فيها آثار للأول" الحميري، محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم،(1980)، المصدر السابق، صـ480.

(3) **بجاية**:" مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب.." ابن عبدالحق،عبد المؤمن بن عبد الحق(1991)، المصدر السابق، ج1، صـ163؛ الحميري، محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم،(1980)، المصدر السابق، صـ 80.

(4) الزركشي، أبى عبدالله محمد بن إبراهيم(1966)، المصدر السابق، صـ 96؛ الميلي، مبارك بن محمد الجزائرى،(1986)، تاريخ الجزائر فى القديم والحديث، ط.1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ج2، صـ407.

(5) **تازا**: " من بلاد المغرب، أول بلاد تازا حد ما بين المغرب الأوسط وبلاد المغرب في الطول، وفي العرض البلاد الساحلية مثل وهران ومليلة وغيرهما..." الحميري، محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم،(1980)، المصدر السابق، صـ128.

السلطات وأذّن له فى اتخاذ الوزراء والكتّاب سنة 715هـ/ 1316م[1].

وجرت العادة عند مرض السلطان المريني خارج دار ملكه أن تتخذ الإجراءات اللازمة لنقله سريعاً والعودة به إلى عرشه خشية انتشار خبر مرضه فى السلطنة المرينية فيحدث ما لا يحمد عقباه على الكيان السياسي للدولة كزعزعة الاستقرار الأمنى أو درءاً لحدوث أى اضطرابات سياسية وليتمكن ولي عهده من السيطرة على زمام الأمور داخل السلطنة المرينية، كما حدث حين مرض السلطان أبى سعيد المريني فى تازا وكان بها لإستقبال عروس ابنه الأميرة فاطمة بنت السلطان أبى بكر بن أبى زكريا الحفصي إكراماً لها ولأبيها، إلا انه أصابه مرض النقرس بتازا، واشتد عليه المرض حتى اضطره إلى الرحيل تحت رعاية ولي عهده الأمير أبو الحسن سريعاً إلى حضرة السلطنة وحمله الجند فى فراشه، وحرص ولى العهد على إدخاله ليلاً خشية انتشار خبر مرضه لإدراكه مدى خطورة ذلك على الاستقرار السياسي، إلا أن السلطان وافته المنية فى طريقه سنة 731هـ/ 1331م[2].

وكان مرض السلطان المرينى من أنسب الأوقات لنسج المؤامرات السياسية وتدبيرها نتيجة إنشغاله بتلقى العلاج عن أمور حكمه ومزاولة مهامه السياسية بالدولة المرينية، مما يساعد ذلك المتآمرين لتنفيذ خططهم كتهريب المعتقلين سياسياً من السجون مما له الأثر الخطير على كيان الدولة، كما حدث حين مرض السلطان المرينى أبو عنان حيث دبرت مؤامرة هدفها تحرير الأمير عبدالله محمد الحفصي من معتقله لإسترجاع إمارته فى بجاية، واتهم ابن خلدون ان هذا الأمير استنصره ووعده بتوليته منصب الحجابة إذا ساعده على الفرار، إلا أن هذا الخبر نمى إلى علم السلطان أبى العنان، فأمر بالقبض عليه وعلى الأمير وأودعا فى السجن سنة 758هـ/1357م، ثم أطلق سراح الأمير بعد ذلك وبقى ابن خلدون فى السجن مدة سنتين، ودافع ابن خلدون عن نفسه وعزا هذه المحنة إلى الدسائس وسوء النية، وأطلق سراحه بعد وفاة السلطان أبى عنان سنة 759هـ/1358م على يد الوزير الحسن بن عمر وأعاده إلى مكانته[3].

وليس أدل على خطورة مرض السلطان المرينى على الحياة السياسية من حرص السلاطين على كتمان خبر مرضهم عن رجال دولته ورعيته خوفاً من حدوث أى اضطرابات سياسية قد تحدث فترة انشغالهم بتلقى العلاج ولاسيما إذا كان السلطان المرينى مبتلى بمرض مزمن يعاوده المرة تلو الأخرى منذ صغره، كما هو حال السلطان عبدالعزيز[4] الأول المريني (767-774هـ/1366-1372م) الذى كان يعانى منذ صغره من مرض النحول وكان قد شُفى منه مدة، ثم عاوده المرض مرة أخرى أثناء تواجده بتلمسان حتى اشتد به، فصبر على ألمه وكتم خبر مرضه عن الناس، نظراً لعلمه مدى خطورة مرضه

(1) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (1988)، المصدر السابق، ج7، صـ322-323؛ ابن حجر، أحمد بن على، (1972)، الدرر الكامنة، ج4، صـ206.

(2) الناصرى، أحمد بن خالد،(1997)، المصدر السابق، ج3 ، صـ117- 118.

(3) محفوظ، محمد (1994)، المرجع السابق، ج2، صـ212-213.

(4) أبو فارس المريني(750- 774هـ/ 1349- 1372م):" هو السلطان أبو فارس عبد العزيز بن علي بن عثمان المريني،من ملوك الدولة المرينية بالمغرب، كان مقيما قبيل توليته، بفاس الجديدة، كالمعتقل، بأمر الوزير عمر بن عبد الله الفودودي، وكان هذا الوزير قد استبد بدولة آل مرين، يعزل ملكا ويولي آخر، محتفظا لنفسه بالسلطة المطلقة. وخنق السلطان أبا زيان المريني، ووقع اختياره على أبي فارس هذا، وهو فتى، فاستدعاه إليه وأجلسه على سرير الملك وبايعه ثم بايعه بنو مرين وأعيان الدولة آخر سنة760هـ ، ولم يلبث أبو فارس أن كره استبداد الوزير به وبإدارة ملكه، فأعد للخلاص منه جماعة من الخصيان في زوايا داره، وأحضره وأشار إليهم فقتلوه، وصفا له الملك. ..." ابن حجر، أحمد بن على، (1969)، إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق: حسن حبشي، ط.1، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ج1، صـ44-45؛ الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد(2002)، المصدر السابق، ج4، صـ 23.

على الأستقرار السياسي بدولته، ولجأ إلى الخروج من تلمسان وعسكر بظاهرها قاصداً المغرب، إلا أنه وافته المنية بظاهر تلمسان بين أهله وأبنائه ودفن بفاس سنة 774هـ/1372م[1].

ومن ناحية أخرى كشفت المصادر التاريخية أن المرض فى حد ذاته كان أحد حلقات مؤامرة سياسية من أحد رجال الدولة الغرض منها التخلص من السلطان المريني، وذلك من خلال وضع السمّ له فيمرض أياماً فيموت، كما حدث مع السلطان المريني موسى بن أبى عنان الذى مرض يوماً وليلة ومات على أثر هذا المرض، وأوعزت المصادر مرضه إلى مؤامرة سياسية نكاية به حين عزل الوزير ابن ماساى[2] واستخلف بدلاً منه أخاه يعيش بن عبدالرحمن بن ماساى، وانتشر الخبر أنه مات مسموماً والذى دبّر هذه المؤامرة الوزير يعيش، وتولى من بعده السلطنة السلطان أبو زيان محمد بن أحمد أبى سالم سنة 788هـ/ 1386م [3].

الخاتمة:

بعدما تقدم من عرض لموضوع " الأمراض وأثرها على الحياة السياسية فى المغرب فى عهد دولة بنى مرين(668-869هـ /1269-1465م)" فإن من المفيد والمتمم لذلك أن نذكر أبرز النتائج وهى:

- كشفت الدراسة أن الأمراض أحد العوامل الرئيسة التى حفزت سلاطين بنى مرين لإتخاذ خطوة فى غاية الأهمية وهى إشغال منصب سياسي خطير فى الدولة وهو ولاية العهد، والذى كان غالباً لتعين أحد أبنائهم وذلك لادراكهم مدى خطورة غياب الحاكم عن السلطة السياسية فى الدولة ولاسيما فى فترات المرض التى قد تتجاوز أياماً بل شهوراً.

- أن الأمراض الوبائية قد أثرت بالسلب على الأدارة السياسية الحاكمة للبلاد لما تلحقه من ضحايا فى صفوف رجال الدولة خاصة إذا تزامن ذلك مع وقت توليتهم، وليس هذا فحسب بل لم تسلم أيضاً المناصب الإدارية العليا بالدولة المرينية من أثر الأمراض فكانت الدولة تحاول تفادى هذه الآثار من خلال القيام بتولية من يقوم بتلك الأعمال حتى لا تتعطل شئون الدولة الإدارية والسياسية خاصة فى المناصب المرموقة بالدولة.

- بينت الدراسة أن الأمراض مثلت خطورة بالغة على الكيان السياسي ولاسيما فى أوقات الحروب وقيادة الحملات العسكرية مما ينتج عنه عرقلة حركات الجيش وتنفيذ الخطط العسكرية، نتيجة اضطرار السلطان المريض اللجوء إلى أماكن هادئة بعيدة عن ساحة القتال لتلقى العلاج والتى قد تطول إلى عدة شهور حتى تتماثل صحته للشفاء.

- ظهر من خلال الدراسة أن من الآثار الخطيرة للأمراض على الحملات العسكرية و الحروب هو انتشار الفتن والشقاق بين صفوف جنود الحملة فور ذيوع خبر مرض السلطان على من يتولى القيادة ولاسيما إذا اندلع هذا الشقاق بين أبناء السلطان المريض مما له الأثر السلبى على الحملة العسكرية.

---

(1) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (1988)، المصدر السابق، ج7، صـ446 ؛ الزركشي، أبى عبدالله محمد بن إبراهيم(1966)، المصدر السابق، صـ108 ؛ الناصرى، أحمد بن خالد،(1997)، المصدر السابق، ج4، صـ59.

(2) ابن ماساي(ت: 789هـ/ 1387م):" هو الأمير مسعود بن عبد الرحمن (رحو) بن ماساي وزير مغربي، من الدهاة، كان مختصا بالأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن المريني، وأقام معه في غرناطة أيام نفيه من فاس، واتصل بابن الأحمر (الغني بالله) فأولاه هذا ثقته. وسخط ابن الأحمر على وزير كان قد استبد بملك بني مرين في المغرب، فسرح عبدالرحمن، وأرسل معه (ابن ماساي) لإثارة الفتنة هناك، فوصلا إلى أبواب فاس، وولي عبد الرحمن إمارة مراكش، فعاد ابن ماساي إلى الأندلس. وتجددت في نفس ابن الأحمر نزعة إلى الاستزادة من بسط يده على المغرب، فسرح الأمير موسى بن أبي عنان المريني (وكان معتقلا بغرناطة) واستوزر له ابن ماساي، فانصرفا إلى المغرب، فاستولى موسى على العرش بفاس بعد أن تم له خلع السلطان المستنصر بالله وإرساله إلى ابن الأحمر، مقيدا. وقام الوزير ابن ماساي بأمر الدولة، فنمي إليه أن موسى يفكر في الفتك به، فخرج من فاس لبعض الأعمال، وترك فيها من دس السم لموسى فقتله..." انظر الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد(2002)، المصدر السابق، ج7. صـ218.

(3) الناصرى، أحمد بن خالد،(1997)، المصدر السابق، ج4، صـ71.

- وأوضحت الدراسة أن مرض السلطان المرينى كان من أخطر التهديدات للكيان السياسى للدولة المرينية نظراً لما تعانيه من تدبير المؤامرات السياسية التى تتخذ فرصة انشغال السلطان بتلقى العلاج عن أمور حكمه ومزاولة مهامه السياسية بالدولة المرينية، مما يساعد ذلك المتآمرين لتنفيذ خططهم لتهديد الاستقرار السياسى والامنى بالدولة

الملاحق:

ملحق رقم (1)

خريطة المغرب الأقصى فى عهد بنى مرين[1]

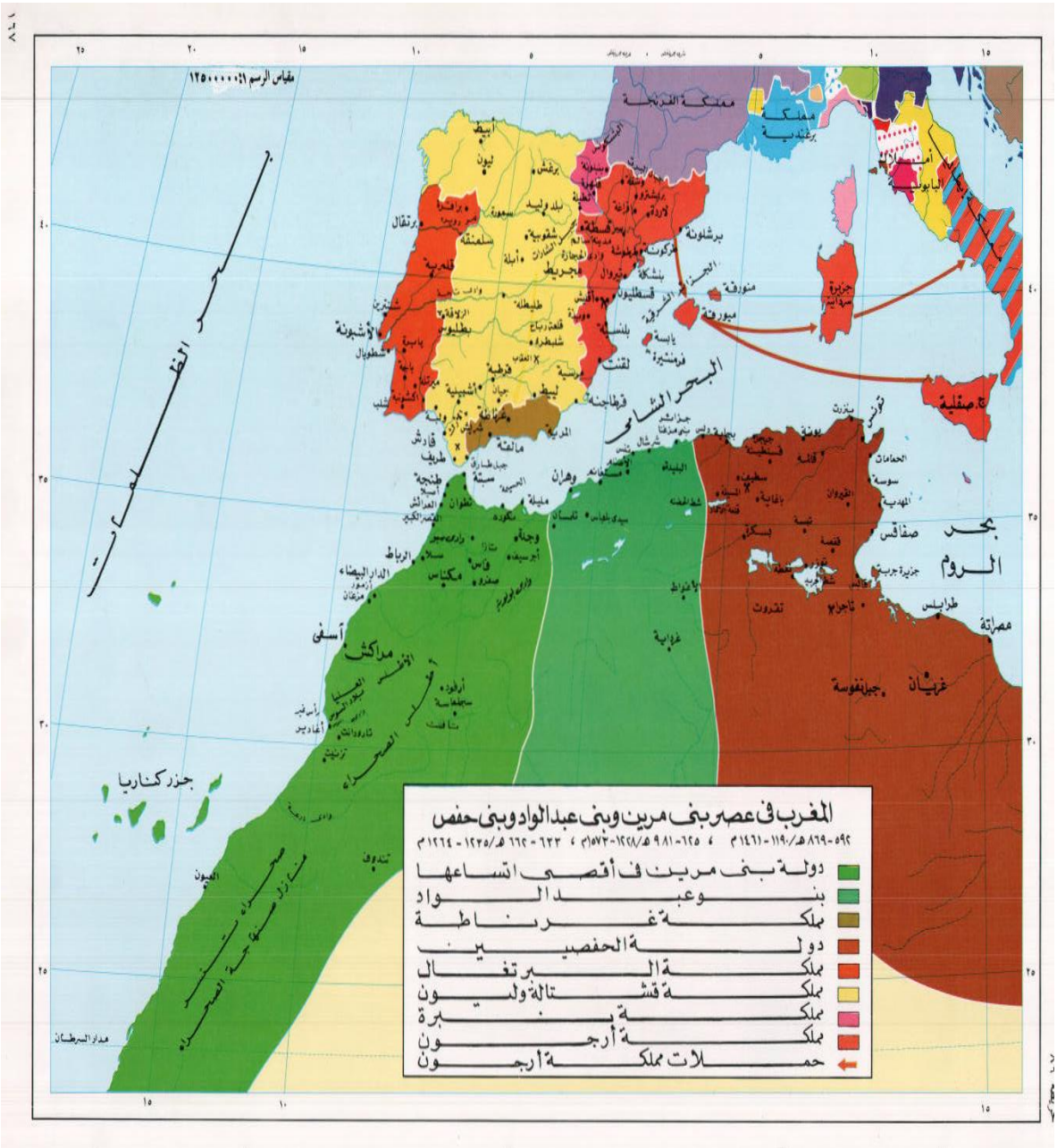

ملحق رقم (2)

قائمة بأسماء سلاطين بني مرين[2]

(1) نقلاً عن مؤنس، حسين(1987)، أطلس تاريخ الإسلام، ط.1، الزهراء للإعلام العربى، القاهرة، صـ 167.

(2) اعتماداً على الناصرى، أحمد بن خالد،(1997)، المصدر السابق.

م	السلطان	سنوات حكمه
1	السلطان عبد الحق بن محيو	(591-614هـ/1195-1217م)
2	السلطان عثمان بن عبدالحق	(614-638هـ/1217-1240م)
3	السلطان محمد بن عبدالحق(الأول)	(638-642هـ/1240-1244م)
4	السلطان أبوبكربن عبدالحق	(642-656هـ/1244-1258م)
5	السلطان عمربن أبي بكربن عبدالحق بويع وخلع فى نفس السنة	(656هـ/1258م)
6	السلطان يوسف بن يعقوب بن عبدالحق	(685-706هـ/1286-1306م)
7	السلطان عامربن عبدالله بن يوسف بن يعقوب	(706-708هـ/1306-1308م)
8	السلطان سليمان بن عبدالله بن يوسف بن يعقوب	(708-710هـ/1308-1310م)
9	السلطان عثمان بن يعقوب (الثاني)	(710-730هـ/1310-1331م)
10	السلطان على بن عثمان	(731-752هـ/1332-1348م)
11	السلطان فارس بن على (نصب نفسه أثناء حياة والده عندما علم بغرفة).	(749-759هـ/1348-1358م)
12	السلطان محمد بن فاس (قتل يوم بيعته).	(759هـ/1358م)
13	السلطان محمد السعيد بن فارس	(759-760هـ/1358-1359م)
14	السلطان إبراهيم بن على بن عثمان	(760-762هـ/1359-1361م)
15	السلطان تاشفين بن على	(762-763هـ/ 1361-1362م)
16	السلطان عبدالحليم بن عمربن عثمان	(763هـ/1361م)
17	السلطان محمد بن عبدالرحمن بن على(الثانى)	(763-768هـ/1362-1366م)
18	السلطان عبدالعزيزبن على	(768-774هـ/1366-1372م)
19	السلطان محمد بن عبدالعزيزالثالث	(774-776هـ/1374-1374م)
20	السلطان أحمد بن إبراهيم	(776-786هـ/1374-1384م)
21	السلطان موسى بن فارس	(786-788هـ/1384-1386م)
22	السلطان المنتصربالله بن أحمد (خلع فى نفس السنة)	(788-1386م)
23	السلطان محمد بن أبى الفضل بن على(الرابع)	(788-789هـ/1386-1387م)
24	السلطان أحمد بن إبراهيم (للمرة الثانية)	(789-796هـ/1387-1393م)
25	السلطان أبو فارس بن أحمد	(796-799هـ/1393-1396)
26	السلطان عبدالعزيزبن أحمد	(799-800هـ/1396-1397م)
27	السلطان عثمان بن أحمد(الثالث)	(800-823هـ/1397-1420م)
28	السلطان عبد الحق بن عثمان (الثانى)	(823-869هـ/1420-1464م)

قائمة المصادروالمراجع:

أولاً: المصادر العربية :-

الإدريسى، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني الطالبي، (ت:560هـ/1165م):

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط.1، عالم الكتب، بيروت، 1988.

ابن الأحمر، إسماعيل بن يوسف بن محمد بن نصر،(ت:807هـ/1404م):

أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن، تحقيق: محمد رضوان الداية، ط.1، مؤسسة الرسالة، بيروت، (1976).

ابن حجر، أبوالفضل أحمد بن على بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، (ت:852هـ/1448م):

إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق: حسن حبشي، ط.1، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1969.

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، ط.2، مجلس دائرة المعارف العثمانية، صيدر اباد، 1972م.

الحميري، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم الحميري،(ت:900هـ/1495م):

الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط.2، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، 1980م.

ابن خلدون، ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد الحضرمي الإشبيلي، (ت:808هـ /1406م):

ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، ط.2، دار الفكر، بيروت، 1988م .

الزاهرى، سلوى:

ملاحظات حول السياسة الوحدوية للسطان أبى الحسن المرينى (731-749هـ/1331-1348م)، دورية كان التاريخية، س8، ع29، (2015).

ابن أبى زرع، على بن عبدالله الفاسى،(ت:741هـ/1341م):

الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ط.1، دار المنصور للطباعة، الرباط ،(1972).

الزركشي، أبى عبدالله محمد بن إبراهيم:

تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق: محمد ماضور، ط.2، المكتبة العتيقة، تونس، 1966.

الزركلي، خيرالدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي،(ت:1396هـ/1976م):

الأعلام، ط.15، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي،(ت:911هـ/1505م):

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق : محمد أبوالفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، د.ت.

الصفدى، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبدالله صلاح الدين الصفدى،(ت:764هـ/1363م):

أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: د.علي أبو زيد& د.نبيل أبو عشمة& د.محمد موعد& د.محمود سالم محمد، ط.1، دار الفكر المعاصر، بيروت ، 1998م.

ابن عبدالحق، عبد المؤمن بن عبدالحق ابن شمائل القطيعى البغدادي، (ت:739هـ/1339م):

مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط.1، دار الجيل، بيروت، 1991م.

العمرى، أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري،(ت:749هـ/1349م):

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2002م.

العيني، محمود بن أحمد بن موسى،(ت:855هـ/1451م):

عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، ط.1، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، (2010).

الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، (ت:170هـ/786م):

كتاب العين، تحقيق: د مهدي المخزومي، د.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، القاهرة، (د.ت).

ابن القاضي، أحمد بن محمّد المكناسى،(ت،1025هـ/1616م):

درّة الحجال فى أسماء الرّجال، تحقيق: محمد الأحمدى أبو النور، ط.1، دار التراث، القاهرة، (1971).

القزويني، زكريا بن محمد بن محمود القزويني،(ت:682هـ/1283م):

آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، (د.ت).

أبو المحاسن، جمال الدين يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، (ت:874هـ/1470م):

المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، (د.ت).

محفوظ، محمد:

تراجم المؤلفين التونسيين، ط.2، دار الغرب الإسلامى، بيروت،(1994).

المحلاوى، حسام محمود:

العلاقات السياسية بين مملكة بنى مرين ومملكة قشتالة فى عهد السلطان أبى يوسف يعقوب بن عبدالحق (656-685هـ/ 1258-1286)، مجلة كلية الآداب-جامعة المنصورة، ع52، (2013).

المراكشي، محمد بن محمد بن عبد الملك، (ت:703هـ/1303م):

الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ط.1، دار الغرب الإسلامي، تونس، (2012).

ابن مرزوق، محمد بن أحمد بن مرزوق،(ت:842هـ/ 1439م):

المسند الصحيح الحسن فى مآثر ومحاسن مولانا أبى الحسن، تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (1981).

مؤنس، حسين:

أطلس تاريخ الإسلام، ط.1، الزهراء للإعلام العربى، القاهرة،(1987).

الميلي، مبارك بن محمد الجزائرى:

تاريخ الجزائر فى القديم والحديث، ط.1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (1986).

الناصرى، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري،(ت: 1315هـ/1879م):

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري، محمد الناصري،ط.1،دار الكتاب، الدار البيضاء،1997م.

ثانياً: المراجع الأجنبية:

- **Kably, mohamd,**

-société, pouvoir, Religion au maroc à la fin du moyen age, paris,(1986).

الطاعون والكوليرا في برقة خلال العهد العثماني الثاني 1835 : 1911

Plague and Cholera in Cyrenaica During the second Ottoman era 1835: 1911

د/ حمادة الشافعي

محاضر بكلية الآداب جامعة دمياط- القاهرة - مصر

ملخص:

كان لانتشار الطاعون والكوليرا في برقة خلال العهد العثماني (1835–1911) أهمية كبيرة من جانبين الأول: موضوع الصحة بحد ذاته باعتباره من المواضيع المهمة والتي ترتبط بحياة السكان بشكل مباشر من خلال استعراض الأمراض والأوبئة التي يتعرضون لها، والتي غالباً ما يذهب ضحيتها أعداد كبيرة من السكان تقود في النهاية إلى تناقص أعداد الولاية إلى الثلث أو النصف في أحيان كثيرة، فضلاً عن ذلك فهذا الموضوع يقدم لنا صورة عن عادات السكان الصحية في تلك الحقبة، والتي من خلالها نستطيع التعرف على سلبية أو إيجابية هذه العادات على وضعهم الصحي الذي كان للمستشفيات والمستوصفات دورها في تحسين هذا الوضع، وإن كان إصلاحاً متواضعاً يتناسب مع الإمكانية المتواضعة للدولة العثمانية في تلك الحقبة؛ لذلك لعب الطب الشعبي والتداوي بالأعشاب دوراً بديلاً عن قلة المستشفيات من جهة، وتخوف السكان في التعامل مع هذه المستشفيات وتعودهم على التداوي بالأعشاب من جهة أخرى.

الكلمات المفتاحية:الطاعون، الكوليرا، الأوبئة، الصحة، الطب الشعبي

Abstract:

The spread of plague and cholera in Cyrenaica during the Ottoman era (1835-1911) was of great importance from two aspects. The first aspect is related to the issue of health which is regarded as one of the important topics that is directly linked to the lives of the population through reviewing the diseases and epidemics to which they were exposed. Consequently, a large number of the population die, which in turn leads ultimately to a decrease in the number of the state population by a third or half in many cases. In addition to that, this topic provides us with a picture of the population's hltey habits in that era through which we can identify whether these habits had negative or positive effect on their health status. Hospitals and clinics played a role in improving this status, even if it was a modest reform commensurate with the modest potential of the Ottoman state in that era. Therefore, folk medicine and herbal medicine played a substitute role for the lack of hospitals on the one hand, and the residents 'fear from dealing with these hospitals and their accustomed treatment to herbs on the other hand.

The Key words: Plague, Cholera, epidemics, health, herbal medicine

المقدمة:

يعُد كتابة التاريخ بمنظوره الجديد أحد أهم العوامل التي رسمت ملامح المتغيرات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، للعديد من المجتمعات، فالاهتمام بدراسة الجوانب الاجتماعية لتاريخ شعب ما يجعلنا نعيد تقيم الظواهر والتغيرات التاريخية لهذا المجتمع، فلم تعد دراسة التاريخ تدور حول الجوانب السياسية للمجتمعات سواء من ناحية وضعها السياسي او نظم الحكم او أحزابها الحاكمة.

كان لانتشار الطاعون والكوليرا في برقة خلال حقبة العهد العثماني (1835–1911) أهمية كبيرة من جانبين الأول: موضوع الصحة بحد ذاته باعتباره من المواضيع المهمة والتي ترتبط بحياة السكان بشكل مباشر من خلال استعراض الأمراض والأوبئة التي يتعرضون لها، والتي غالباً ما يذهب ضحيتها أعداد كبيرة من السكان تقود في النهاية إلى تناقص أعداد الولاية إلى الثلث أو النصف في أحيان كثيرة، فضلاً عن ذلك فهذا الموضوع يقدم لنا صورة عن عادات السكان الصحية في تلك الحقبة، والتي من خلالها نستطيع التعرف على سلبية أو إيجابية هذه العادات على وضعهم الصحي الذي كان للمستشفيات والمستوصفات دورها في تحسين هذا الوضع، وإن كان إصلاحاً متواضعاً يتناسب مع الإمكانية المتواضعة للدولة العثمانية في تلك الحقبة؛ لذلك لعب الطب الشعبي والتداوي بالأعشاب دوراً بديلاً عن قلة المستشفيات من جهة، وتخوف السكان في التعامل مع هذه المستشفيات وتعودهم على التداوي بالأعشاب من جهة أخرى.

شهدت هذه الحقبة والتي امتدت لحوالي (76) عاماً تحولات كبيرة على كافة الأصعدة، في واقعها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، فقصر ولاية الوالي لا تتيح له الاهتمام بإصلاح أوضاع الولاية يضاف لذلك عامل مهم هو الجانب المالي الذي تمثل في قلة المخصصات المالية للولاية، لذلك شكلت الضرائب عامل الإيراد الأول لمصروفات الولاية، والتي بدورها تتناقص أو ترتفع مع زيادة أو نقصان الموسم الزراعي الذي كان يمثل الدخل الأول والرئيس للولاية، هذا كله انعكس سلباً على الواقع الصحي للولاية الذي عانى إهمالاً وعدم اهتمام من جانب الحكومة.

وباء الطاعون في برقة خلال العهد العثماني الثاني:

إقليم برقة

يُعد إقليم برقة واحداً من بين ثلاثة أقاليم تكونت منها إيالة طرابلس، وهي إقليم طرابلس، وفزان، إضافة إلي إقليم برقة، ويقع هذا الإقليم في القسم الشرقي من الولاية، ويمتد من عقبة السلوم علي الحدود المصرية شرقاً إلي خليج سدره الواقع بعد قطاع الكبريت غرباً، ومن البحر المتوسط شمالاً إلي جبال تيبستي جنوباً، ويمتد بموازاة البحر مسافة 1000 كم مكوناً شريطاً ساحلياً ضيقاً مساحته 300 الاف ميل مربع، ويقع بين خطي طول 20: 30، وبشكل سطحية هضبة متوسطة الارتفاع تأخذ شكل المدرج، وترتفع حافاتها قليلاً عند ضواحي مدينة المرج عند بقية المدرج، وبذلك يأخذ السطح شكل حوض مغلق يبلغ طولة 30 كم، وعرضة حوالي 15 كم فقط، عُرف هذا أُقليم قديماً باسم " قورينائية"[1]

[1] الريان ، محمد،1999 : دراسات في تاريخ ليبيا الحديث، دار الكندي للنشر، ص 107

خريطة توضيحية لحدود إيالة طرابلس الغرب[1]

خلال الفترة الأولي من العهد العثماني الثاني لم تشهد الولاية أية حركة يمكن أن نطلق عليها حركة عمرانية، أو تطور في إنشاءاتها علي المستوي الحضاري ويعود ذلك إلي انشغال الولاة المتعاقبين خلال السنوات الأولي، بإعادة السيطرة العثمانية المباشرة علي البلاد . وقد واجهت الحكومة العثمانية خلال هذه الفترة صعوبات جمه تمثلت في الموقف المعادي الذي التزمه ضدها زعماء الدواخل، مما تطلب منها حشد طاقتها لمقاومتهم والقضاء علي ثورتهم وعصيانهم، حيث اهتمت الدولة العثمانية في بداية حكمها بتصفية حكم الأسرة القرمانللية[2].

مرت ليبيا بالكثير من الأوبئة التي كانت تظهر في العالم خلال الفترات الزمنية المتعاقبة[3]، وكانت الأقاليم التي تمثل ليبيا الأن ومن بينها إقليم برقة تتعرض إلي تلك الأوبئة والتي يأتي علي رأسها وباء الطاعون[4]، الذي انتشر في الإقليم مع بداية العهد العثماني الثاني وبعد أقل من العام اجتاح الولاية في شتاء عام 1836 : 1837[5]. ويعد وباء الطاعون من اخطر الأوبئة التي كانت تجتاح الولايات العربية كونه وباء سريع الانتقال ويأتي غالباً بعد انتشار المجاعة[6]، وكانت برقة شأنها شأن باقي الولايات العربية تعاني من إهمال واضح في واقعها الصحي الذي كان سببً في ارتفاع عدد الضحايا والوفيات جراء هذا الوباء[7].

---

[1] سليمان ،المبروك محمود صالح، 2006: الأوضاع الصحية في إقليم برقة خلال العهد العثماني الثاني 1835: 1912 ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب ، جامعة عين شمس، ص 10

[2] التليسى ، خليفة محمد، 1997: حكاية مدينة طرابلس لدي الرحالة العرب والأجانب، ط 3، الدار العربية للكتاب، ليبيا ، ص 151

[3] السحاتي ،امراج: الأوبئة والتأثير في ليبيا والعالم، ب ط ، ص 23

[4] نفسه: ص 24

[5] الكندي ، وفاء كاظم، 2013: قراءة في الاحوال الصحية والعادات الغذائية لمجتمع ولاية طرابلس الغرب 1835 : 1911، كلية التربية للعلوم الانسانية، قسم التاريخ، جامعة بابل، العدد 13 ، ص 633

[6] روسي ، اتوري، 1974: ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، ترجمة: خليفة محمد التبسي، دار الثقافة، بيروت، ص305.

[7] الكندي : المرجع السابق، ص 662

مراحل انتشار الطاعون في برقة

على الرغم من توطن وباء الطاعون في إقليم برقة، إلا أنه كثيراً ما وفدت عليها من الخارج عن طريق موانئ البحر المتوسط و السفن القادمة من الشرق إلي موانئ الإقليم كميناء بنغازي ودرنة وطبرق التي كانت تحمل معها عدداً من الفئران الموبوءة[1] والتي سرعان ما انتشرت بالولاية محدثة وفيات كبيرة، حيث كان المرض يقضي علي المصاب مباشرةً [2]، إلا أن هناك عوامل أخري تسببت في تفشي الوباء في مدن الإقليم كا فساد الهواء، وعدم نظافة المياه والغذاء والملابس وأماكن النوم [3].

عرفت برقة الطاعون عدة مرات خلال العهد العثماني الثاني، حيث انتشر الوباء علي فترات زمنية قريبة علي رأس كل عقد أو عقدين من الزمان، وقد كانت أغلب هجماته علي الإقليم تأتي عن طريق الحدود البرية مع مصر، حيث كان ينتشر بكثرة قرب وادي النيل، ويتسرب إلي المدن المجاورة بين فترة وأخري[4].

كان بداية ظهور الوباء في عام 1836، حيث بلغ عدد الوفيات 500 شخص، وقد ترك الوباء العديد من الآثار الاقتصادية السيئة التي اصابة المنطقة[5]، ويعود سبب انتشار الوباء خلال تلك الفترة نتيجة انتقاله من الإسكندرية إلي درنه، وذلك لانتشار الوباء في ها العام بمدينة الإسكندرية ، والذي يُعد من اسواء حالات الطاعون التي هاجمة مصر خلال تلك الفترة حيث انتشار في كافة ارجاء القطر المصري[6].

استمر انتشار الوباء حتي العام التالي إذ أنه لم يقتصر علي برقة وحدها، بل انتشر في إقليم طرابلس. و بالإضافة إلي هذا الوباء عانت برقة من موجه من الجفاف والمجاعات، والصراعات القبلية، وكل هذا في ظل إهمال السلطات العثمانية، إذ لم تعطي أي اهتمام لتلك الأوضاع المتردية، لدرجة أن الوالي المساعدة من قناصل الدول الأجنبية لمكافحة الوباء، كما حدث في سنة 1841 عندما تفشي الطاعون للمرة الثانية في الإقليم[7].

وخلال عامي 1844: 1845 عاود الطاعون هجومه علي مدينة درنة، وتسبب هذه المرة في خسائر اقتصادية وصحية كبيرة، ويعود اسبابه تلك المرة نتيجة إهمال في نظام الحجر الصحي الذي لم يطبق علي سفينة أجنبية رست في مينائها وهي تحمل العدوي[8]، وقد أثرت تلك الأوضاع على المدينة خلال العام التالي حيث قلت نسبة السفن المترددة علي الإقليم في هذا العام، وحسب التقرير الذي ارسله نائب القنصل الفرنسي واشار خلاله إلي مدي معانة الإقليم من الإهمال الصحي[9].

---

[1] أبو شويرب ، عبد الكريم ، 2000: الأوضاع الصحية في المجتمع الليبي، في الفترة ما بين 1835 – 1950، مجلة البحوث التاريخية العدد الثاني، طرابلس، ص14.

[2] السحاتي: المرجع السابق، ص 24

[3] أبو شويرب ،عبد الكريم،1991: الصحة والمرض وطرق العلاج في بعض الواحات الليبية القرن 19، مجلة البحوث التاريخية، العدد 2، السنة 13، منشورات مركز جهاد الليبيين التاريخية، طرابلس، ص 143

[4] سليمان: المرجع السابق، 26

[5] بيشي ، الاخوان، 1996: الساحل الليبي 1821: 1822، ترجمة: الهادي بو لقمة، بنغازي، جامعة قار يونس، ص 203، أبو شويرب: المرجع السابق، ص234، بازامة، محمد مصطفي، 1994: بنغازي مترفيك، ثلاثة أجزاء، دار الحوار، قبرص، ص 211

[6] سليمان: المرجع السابق، 26

[7] روسي: المرجع السابق، ص 360؛ الجميلي ، قاسم خليفة، 2003: صفحات من تاريخ ليبيا الحديث والمعاصر، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، ص 29

[8] سليمان: المرجع السابق، ص 29

[9] بازامة: المرجع السابق، ص 232

كما هاجم الطاعون مدينة بنغازي خلال عام 1850 ، وعام 1858، وكان السبب في ذلك هو عدم استكمال السفن للمدة المقررة في نظام الحجر الصحي، كما يعود انتقال الوباء من لإقليم طرابلس الذي كان منتشراً به خلال هذا العام[1].

ومع صعوبة السيطرة علي المعابر البرية والبحرية لإقليم برقة أصبح الإقليم هدفاً سهلاً لهجمات الوباء و وصول العدوي خاصة في ظل ارتباط الإقليم بموانئه وتجارته مع شركائه علي حوض البحر المتوسط، وبالحدود البرية الطويلة مع عدة بلدان، كما حدث عام 1859 حينما ظهر الطاعون في مدينة درنه. وكان السبب في ذلك هو أن أحد المسافرين القادمين عبر الحدود المصرية البرية كان حاملاً للعدوي فأدخلها إلي الإقليم[2].

وخلال عام 1872 أصيب الإقليم بالوباء مرة أخري مصاحباً ظهور العديد من الأمراض الأخرى، ونقص الامطار مسببً حالة من الجفاف التي عمت الإقليم، وهو ما كان له تأثير كبير علي الثروة الزراعية والحيوانية، ونقص الحبوب والغلال، التي ارتفعت اسعارها بصورة كبيرة[3].

وفي عام 1874 هاجم الوباء مناطق الجبل الأخضر، وعلي الرغم من الإجراءات التي اتخذتها السلطات العثمانية لتحجيم انتشار الوباء إلا أنه سرعان ما أصاب 208 شخص حتي تزايدت الاوضاع سواءً و وصل عدد الاصابات 533 مصاباً، مما أضطر السلطات إلي إقامة محجر صحي حول بني غازي خوفاً من وصول العدوي إليها، كما تم تطبيق الحجر الصحي علي المنطقة الوسطي في مدينة سرت خوفاً من وصول العدوي إلي لإقليم طرابلس[4].

كما عاد الوباء مرة ثانية عام 1876 في مدينتي بنغازي والمرج ويعود السبب في ذلك هو رسو سفينة أجنبية في ميناء بنغازي لم تستكمل مدة الحجر الصحي وتسبب الوباء في حصد عدد كبير من الارواح[5].

وفي عام 1878 ظهر الطاعون وتفشي في بنغازي، وهو ما استدعي إقامة محجراً صحياً، ومنع رسو السفن إلا بعد فترة الحجر الصحي، وعلي الرغم من تلك الإجراءات حصد الوباء ارواح عدد كبير من اسر التجار وبعض الرعايا الاجانب، وهو ما استدعي السلطات إلي فرض اجراءات وقائية وعزل المصابين[6].

وعلي الرغم من تعرض الإقليم للعديد من موجات الوباء خلال الفترات المختلفة، إلا أن المصادر التاريخية أجمعت علي أن الوباء كان شديد الوطأة علي سكان الإقليم خلال الفترة ما بين عامي 1891: 1892، فلم تقتصر مهاجمته علي مناطق محدودة ببرقة فقط، بل أن عدواه انتقلت إلي جميع مناطق برقة، كما تزامن مع موجات رهيبة من القحط والمجاعة راح ضحيتها الكثير من الناس[7].

---

[1] بو لقمة ، مصطفي، 1975: دراسات ليبية، بنغازي، مكتبة قورينا للنشر والتوزيع ، ط 3 ، ص 64؛ رؤوف محمد بن عامر: تطور الوضع الصحي في ليبيا، درا الكتاب العربية، 1997، ص 94

[2] بازامة : المرجع السابق، ص 148

[3] روفيري، الأب فرانشيسكو، 2003: عرض للوقائع البرقاوية التاريخ الكرونولوجي لبرقة 1551: 1911، ترجمة وتقديم: إبراهيم أحمد المهدوي، مراجعة: شمس الدين عرابي بن عمران، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس ، ص 148؛ بازامة: المرجع السابق، ص 289

[4] رستا، الفاريس. أ، 1998 (قنصل جلالة ملك هولندا لدى إيالة طرابلس الغرب وملحقاتها)، عرض إحصائي عن ولاية طرابلس الغرب، ترجمة : حامد أوحيدة، مجلة الشهيد، العدد التاسع، طرابلس، ص251؛ كندي: المرجع السابق، ص 665؛ الديك، محمود أحمد،2001: الاوضاع الصحية في طرابلس(ليبيا) منذ العهد العثماني وحتي فترة الاستعمار الإيطالي" الاوضاع الصحية في ليبيا 1835- 1950، أعمال الندوة العلمية التاسعة ، مدينة المرج ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس 2009، ص 309 ؛ بن عامر: المرجع السابق، ص 94

[5] بن موسي، تيسير، 1988: المجتمع الليبي في العهد العثماني، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ص 280؛ الديك: المرجع السابق، ص 95

[6] سليمان: المرجع السابق، ص 34

[7] الديك: لمرجع السابق، ص 133؛ فرانشيسكو: المرجع السابق، ص 162

ولم يكاد ينتهي عام 1911، إلا وكان الوباء قد انتشر في بنغازي والمناطق المجاورة حاصداً الكثير من الأرواح، حيث أن جثث الموتى كانت ملاقاة في الشوارع من كثرتها، وفر الكثيرون إلي خارج البلاد هرباً من الوباء وتجنباً للموت[1].

كما حرصت السلطات العثمانية علي بذل المزيد من الجهد لمساندة الأهالي في مكافحة الوباء. حيث وزعت الأطعمة بالمجان علي المتضررين، مما أدي إلي تدافع المتضررين والفقراء بأعداد الكبيرة تقدر بحوالي 10 الأف شخص إلي مدينة بنغازي وحدها، حيث أقيمه ساحات لطهي الطعام، وهو ما يُعد لفتة كبيرة من جانب السلطات العثمانية[2].

ويرجع سبب كثرة ضحايا هذا الوباء، خلال هذه الحقبة لعدم التعرف علي سبب المرض أو عامله الجرثومي لذلك لم توجد أدوية لمعالجته وللحد من انتشاره، حتى في أوربا التي كانت متطورة نسبياً في ذلك الوقت، فعند انتشار المرض كان سكان أوربا يعتقدون أنه غضب من الله أو مسٌّ من الجن، ولم ينجح في السيطرة عليه إلا أواخر القرن (19) عندما قام العالم الفرنسي الشهير باستور باكتشاف عامل المرض وصلته بالفئران وسبل الانتقال إلى الإنسان، ولكن هذا الاكتشاف جاء بعد أن حصد الطاعون أرواح الكثير من سكان الولايات العربية المختلفة[3].

طرق معالجة الطاعون

كان الليبيون في العصور الماضية يقاومون الأوبئة بالكثير من الطرق والعلاجات البدائية كاستخدام الأعشاب والكي والعزل وحتي استخدام التمائم، وإقامة بعض الطقوس وكذلك تناول لحوم ودماء بعض الحيوانات لغرض شفاء المصاب من الداء كأكل لحم الذئاب وهو ما كان في قصص الأدب الشعبي، كما استخدم الليبيون الحنظل حيث تم استخدامه في علاج العديد من الأمراض[4].

كان الطاعون من بين تلك الأوبئة التي لاقت علاجات شعبية بين الليبيين، فالشخص الذي ينجو منه يترك له علامات علي وجهه. وللتقليل من الإصابة منه والتقليل من عدد الوفيات كان الليبيون يقومون بتعقيم ادوات المصاب وكيه بالنار في مكان الإصابة. هذا بالإضافة لحرق ملابس المصابين وعزلهم في أماكن بعيدة عن الاصحاء. حيث أكد ذلك الإخوان بتشي خلال رحلة علي الساحل الليبي خلال الفترة 1821: 1822بالقول" يعُد الكي ظاهرة علاجية معروفة وموثوق بها من قبل سكان شمال القارة الأفريقية. الذين يلجئون إليها كعلاج ناجح لكل داء تقريباً وربما منذ زمن يعود لهيرودوت الذي أشار اليها. ومع أن هذه الظاهرة قد تستعمل اعتباطاً. إلا أن نتائجها قد تكون فعالة في بعض الحالات. فقد ذكر لنا أحد مواطني بنغازي شفاءه ثلاث مرات من مرض الطاعون بوضع قضيب من الحديد الملتهب على موضع الاصابة"[5].

وباء الكوليرا

تُعد الكوليرا من أبرز الأوبئة، بعد الطاعون، الذي كان سريع الانتشار في الولايات العربية، والذي كان ينتشر عن طريق المياه الملوثة وبسرعة كبيرة في المدن المكتظة بالسكان، وفي أحيان أخرى ينتشر بعد عودة الحجاج من بيت الله الحرام .

في عام 1836 ضرب مدينة درنة وباء الكوليرا علي أثر وقوع زلزال ضرب المدينة إدي إلي وقوع العديد من الضحايا، وتركت الجثث اسفل الانقاض مما أدي لتفشي الوباء الذي راح ضحيته عدد كبير من اهالي المدينة، بالإضافة إلي هروب

---

[1] سليمان: المرجع السابق، ص 33

[2] بزامه: المرجع السابق، ص ص 390: 391

[3] كندي: المرجع السابق، ص 665

[4] السحاتي : المرجع السابق، ص ص 24: 27

[5] نفسه

الكثير من السكان خارج المدينة، ومع خروج الامور عن السيطرة نظراً لغياب الكوادر الطبية وصل عدد الضحايا حوالي 250 شخص[1].

وخلال عام 1837 ظهرت الكوليرا في مدينة بنغازي عن طريق الحجاج العائدون من الحج، فأدت إلي وفاة 12 شخص علي الرغم من حرص السلطات[2].

وفي عام 1850 في ولاية أحمد عزت باشا الأولى (1848 – 1852)[3]، كانت الولاية خلال هذه الفترة تعاني من اضطرابات كبيرة وذلك بسبب الضريبة الجديدة التي استحدثها الباب العالي وهي ضريبة المونة التي فرضت علي مدن الجزء الساحلي من طرابلس الغرب وقراها وبين البدو والرحل، وكان فرض هذه الضريبة يتطلب اجراء تسجيل للسكان البالغين. وقد أثار البدء بالتسجيل وجمع الضرائب القلق بين الأهالي [4].

في ظل هذه الاضطرابات تعرضت الولاية لوباء الكوليرا الذي زاد من حدة الاضطرابات داخل الولاية وفتك هذا الوباء بالأهالي فتكاً شديداً خلال ثلاث شهور[5]، وأدت تلك الكارثة إلي قيام الكثيرين من سكان الولاية والمناطق المحيطة بها لمغادرة البلاد بحثاً عن النجاة في مالطا وتونس بل وفي الجزائر ومصر[6]، أما الرعايا الأجانب والقناصل فقد اتجهوا إلى مالطا[7]، هرباً من الوباء الذي بدأ بالتفشي وبسرعة كبيرة. ويعود إلي عدم اتخاذ السلطات التركية أية اجراءات تجاه هذه الكارثة العفوية وهو ما زاد من سخط السكان، ومن ثم التعبير في كل مكان عن الاستعداد لاستئناف الصراع المسلح من جديد[8].

عاد ظهور الوباء عام 1858 في لإقليم برقة حيث تفشي فيها بصورة سريعة ومخيفة، فقد وصل عدد الضحايا 3500 من المسلمين، 120 من اليهود، 16 من المسيحيين، وهو ما اضطر سكان الولاية إلي مغادرة الولاية، واستمر الوباء حتي عام 1859، وقد حست السلطات العثمانية السكان علي ضرورة الاهتمام بالنظافة لمنع انتشار العدوي إلي أماكن أخري[9].

كما عاد الوباء لمهاجمة الإقليم خلال عامي 1871 ، 1874 مخلفاً ورائه عدد كبير من الضحايا من الأهالي والجاليات الأجنبية، وأن كان انتشاره بصورة كبيرة في بنغازي ودرنة والمرج. وخوفاً من تسرب الوباء إلي إقليم طرابلس تم اتخاذ كافة الاجراءات والاحتياطات اللازمة لمقاومته أينما ظهر، حيث أنشأت المحاجر الصحية في المناطق الوسطي ما بين إقليمي برقة وطرابلس في سرت وهون و ودان وسوكتة[10].

---

[1] بازامة: المرجع السابق، ص 249؛ روفيري: المرجع السابق، ص 80

[2] بن عامر: المرجع السابق، ص 294؛ روفيري: المرجع السابق، ص 80

[3] رستا: المرجع السابق، ص 164

[4] بروشين، نيكولاي إيليتش،2001: تاريخ ليبيا من منتصف القرن السادس عشر حتي مطلع القرن العشرين، ترجمة وتقديم: عماد حاتم، ط2 ، دار الكتب الجديدة المتحدة، بنغازي، ليبيا ، 286

[5] التليسي: المرجع السابق، ص 162؛ وفاء: المرجع السابق، ص 665

[6] بروشين: المرجع السابق، ص 286

[7] رستا: المرجع السابق، ص 164

[8] بروشين: المرجع السابق، ص 286

[9] سليمان: المرجع السابق، ص 38

[10] نفسه

وخلال عامي 1876: 1878 هاجم الوباء مدينة المرج، مما أثار الزعر بين السكان، مما دفع السلطات العثمانية إلي تحويل المدينة إلي منطقة حجر صحي خشيةً من انتقال الوباء إلي المناطق المجاورة خاصةً بني غازي[1].

أن وبائي الطاعون والكوليرا كانا من أخطر الأوبئة التي تفشت بإقليم برقة في العهد العثماني الثاني، فلطالما شنا غارتهما القاتلة التي كثيراً ما ضربت قري بأكملها بعد أن أتيا علي أرواح الكثير من سكانها وأثار الرعب والفزع حيثما حلا.

اجراءات الحكومة العثمانية في المجال الصحي

إن إجراءات الحكومة العثمانية في المجال الصحي خلال الحقبة الممتدة ما بين 1835 – 1911، متواضعة ولعل السبب وراء ذلك هو تواضع إمكاناتها المادية خلال هذه الحقبة هذا من جانب، ومن جانب آخر أوضاع الحكومة المتردية من النواحي السياسية والعسكرية والاجتماعية خاصة وإنها كانت في فترة صراع ونزاع دولي قادها إلى خسارة جميع ولاياتها في المغرب العربي باستثناء ليبيا، ولو استعرضنا الأوضاع الصحية في بقية الولايات العربية وفي الحقبة ذاتها نجدها مطابقة تماما، لكن مع ذلك وجدنا تحركات من قبل بعض الولاة لإصلاح الأحوال الصحية من خلال إنشاء المستشفيات أو المراكز الصحية أو إجراء إصلاحات متعلقة بالجانب الصحي وبما يتناسب وقدراتها المادية الضعيفة في ذلك الوقت.

ففي ضوء الإصلاحات التي أقدم عليها السلطان عبد المجيد أقر الدستور العثماني نظام الولايات، حيث حدد صلاحيات الولاة و واجباتهم، وأصبح الوالي مجبراً علي الالتزام بها وإلا فقد منصبه، وحدد الدستور صلاحيات الوالي و واجباته في الحفاظ علي الصحة العامة وتوفير المستشفيات المختلفة والمستلزمات الصحية كافة، والقضاء علي الأوبئة والأمراض التي تظهر[2].

لم يقصر الاهتمام بالولاة بل نجد أن لرؤساء البلديات دوراً واضحاً في هذا المجال أيضاً، ففي العام 1910 قام الحاج أحمد المهدوي رئيس بلدية بنغازي بإحضار طبيب خاص بمعالجة فقراء البلدة وبالمجان فضلاً عن قيامه بالإشراف على الأحوال الصحية للبلدة، ولم يقتصر على إحضار هذا الطبيب فقط، بل نجده يقوم بتعيين عدد من مفتشي الصحة تحددت مهمتهم بمراقبة الأسواق للتأكد من نظافتها، والاهتمام بنظافة المدينة والمحلات الخاصة ببيع المواد الغذائية[3]، وهذا الأمر كان من اختصاص المجالس البلدية التي أصدرت عام 1877 قانون البلديات الذي اهتم بتكوين لجان محلية للاهتمام بالصحة العامة ومعاقبة المخالفين للنظم الصحية، ومكافحة الأمراض والاهتمام بنظافة الشوارع[4].

وما انطبق على الاهتمام بنظافة المدينة انطبق على التفكير بتزويدها بشبكة قنوات تمد سكانها بالمياه العذبة من الآبار المنتشرة في ضواحي المدينة، فضلاً عن التفكير بإدخال شبكة للمجاري، وهذا المشروع سعى لتنفيذه عدد من الولاة إلاّ أن قلة الإمكانات المالية كانت تقف حائلاً أمام تنفيذها[5].

أنشاء المستشفيات

نظراً للحالة الصحية السيئة وانتشار الأمراض والأوبئة في شرق ليبيا، التي فتكت بأرواح أعداد كبيرة من الأهالي انصب اهتمام الحكومة العثمانية في البداية علي الجنود وحمايتهم، وهذا الأمر انعكس للتفكير ببناء مستشفى يهتم برعاية الجنود، و تشير المصادر إلي أن اول مستشفى عسكري أنشئ في بنغازي عام 1838، وعرف باسم المستشفى العسكري سعته (100) سرير وكان يستقبل المرضي من المدنيين فضلاً عن العسكريين، وقد بلغت النفقات علي هذه المستشفى 43300

---

[1] الاحول، خليفة محمد، 1988: تقرير وثائقي عن أهم المصادر الليبية بالأرشيف القومي الفرنسي، مجلة وثائق تاريخية، العدد 3، السنة3، ص 150

[2] الويبه، كامل علي مسعود، 2005: الإدارة العثمانية في طرابلس الغرب 1842: 1911، مراجعة: طاهر خلف البكار، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، سلسلة الدراسات التاريخية العدد 54، ليبيا ، ص 50.

[3] بازامة، محمد مصطفى، 1968: بنغازي عبر التاريخ، جـ 1، بنغازي، ، ص.ص314 – 315.

[4] كندي: المرجع السابق، ص 699.

[5] نفسه.

قرش في 18 سبتمبر عام 1848[1]. وللمستشفى ادارة منظمة تولاها في عام 1868 شخص يدعي علي توفيق، ويساعده طبيب أجنبي يدعي فرادلا [2]، وظلت هي المستشفي الوحيدة في الاقليم التي تضم كادر طبي مكون من أربعة اطباء وجراحين وسبعة موظفين ومساعدين آخرين[3] .

و في عام 1874 تم بناء مستشفى صغير وعيادة مجانية في بنغازي قامت الرهبات اليعقوبيات بإدارته والإشراف عليه، وقد أطلق علي هذا المستشفى عدة اسماء منها المستشفى المدني والتركي، والكبير وأخيراً الجمهورية، وقد تم هدم هذا المستشفى في عصر رئيس الحكومة المؤقتة عبدالله الثني وتم تسويته علي الأرض بحجة بناء مستشفى جديد[4].

بالإضافة إلي ذلك كان هناك مراكز صحية أخري وهي المستوصفات، التي كان لها دور كبير في إسعاف المرضي أثناء تفشي الأوبئة، ومن بين تلك المستوصفات المستوصف الإيطالي الذي كان يقدم إسعافاته للمواطنين مجاناً[5] .

إلي جانب المستشفيات والمستوصفات الطبية توجد في الإقليم عدد من الصيدليات التي كانت لها دور بارز في العلاج والتداوي، ففي عام 1871 ارسل متصرف بنغازي رسالة إلي الوالي يطلب منه إنشاء صيدلية حكومية لبيع الأدوية بأثمان معقولة للفقراء[6]. وتم إنشاء صيدلية في بنغازي تقع في الطابق الأرضي من مبني البلدية، وكان يديرها صيدلي تركي، حيث كانت مجهزة بجميع أنواع العقاقير، وفيها طبيب خاص بالبلدية للأشراف علي الصحة العامة بالمدينة[7].

لم يختلف الوضع كثيراً عن مدينة درنة الساحلية وميناؤها الذي قد تدخل من خلاله الأوبئة عن طريق السفن وغيرها لذلك أنشئت بها عام 1903 مستشفي صغيرة كان يضم (30) سرير وصيدلية، مزودة بالأدوية العلاجية بشكل جيد[8].

الخاتمة:

استنتاجاً لما تم عرضه من خلال هذا العرض لتاريخ الأوبئة والأمراض التي تعرضت لها برقة خلال العهد العثماني الثاني 1835: 1911 والذي كان على رأس هذه الأوبئة " الطاعون والكوليرا" كان سكان الولاية هم الضاحية الكبرى لتلك الأوبئة التي فتكت بهم فتكاً شديداً راح ضحيتها ما يقارب ثلث سكان الولاية، فقد تعرضت الولاية خلال هذه الحقبة، شانها شان العديد من الولايات العربية، إلى جملة من الأوبئة مثل الطاعون الذي كان ينتشر بعد المجاعات ولأكثر من مرة والذي كانت خسارة الولاية البشرية كبيرة جدا ومرد ذلك لعدم معرفة سبب المرض وعدم وجود علاج فعال له حتى نهاية القرن التاسع عشر بعد أن تعرضت الولاية لأكثر من إصابة بهذا المرض او الوباء الذي لم يكن المرض الوحيد، فهناك الكوليرا الذي اجتاح الولاية مرتين خلال هذه الحقبة، وكان للدولة العثمانية آثرا في السيطرة على الوباء من خلال إنشاءها المحاجر الصحية للحيلولة دون انتشار الوباء الذي حصد ارواح كبيرة من الاهالي. تنوعت المستشفيات الموجدة في الولاية فهناك العمومية والعسكرية والاجنبية، ولكن يؤخذ عليها قلة عددها الذي لا يتناسب مع اعداد الاهالي، مما يعني حرمان المناطق الريفية والصحراوية من وجود المتشفيات مما شكل نقصا

---

[1] أدهم، عبد السلام، 1974: وثائق تاريخ ليبيا الحديث الوثائق العثمانية 1881 – 1911، ترتيب ومراجعة: أحمد صدقي الدجاني، منشورات جامعة بنغازي، ليبيا، ص 63؛ الويبه: المرجع السابق، ص ص 203 : 204

[2] أبو شويرب، عبد الكريم،1982 : المؤسسات الصحية خلال العهد العثماني الثاني، مجلة تراث الشعب، السنة الثانية، العدد الخامس، طرابلس، ص18.

[3] الجميلي، قاسم خلف، 2003: صفحات من تاريخ ليبيا الحديث والمعاصر، طرابلس ، ص 25

[4] روفيري: المرجع السابق، ص 138

[5] كورو، فرانشسكو: ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني، ترجمة: خليفة محمد التليسي، دار الفرجاني، طرابلس، د.ت، ص117.

[6] صادق، زهاء سعد، 2018: العمائر الخدمية في شرق ليبيا خلال العهد العثماني، مجلة كلية الآداب والعلوم، جامعة بنغازي، عدد مايو، ص 2.

[7] نفسه

[8] الديك: المرجع السابق، ص108

واضحا في أمداد كل الأهالي بالخدمات الصحية. كان الطب الشعبي والتداوي بالأعشاب علاجا رائجا جدا خلال هذه الحقبة، فتنوعت الأعشاب المستخدمة التي تنوعت استخداماتها باختلاف الأمراض.

قائمة المصادروالمراجع

الوثائق المنشورة

- **أدهم، عبد السلام**، 1974: وثائق تاريخ ليبيا الحديث الوثائق العثمانية 1881 – 1911، ترتيب ومراجعة: أحمد صدقي الدجاني، منشورات جامعة بنغازي، ليبيا

الرسائل العلمية

- **سليمان، المبروك محمود صالح**، 2006: الأوضاع الصحية في إقليم برقة خلال العهد العثماني الثاني 1835: 1912، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب ، جامعة عين شمس

المراجع العربية والمُعربة

- **السحاتي، امراج**: الأوبئة والتأثير في ليبيا والعالم، ب ط
- **بيشي، الاخوان**، 1996: الساحل الليبي 1821: 1822، ترجمة: الهادي بو لقمة، بنغازي، جامعة قار يونس
- **روفيري، الأب فرانشيسكو**، 2003: عرض للوقائع البرقاوية التاريخ الكرونولوجي لبرقة 1551: 1911، ترجمة وتقديم: إبراهيم أحمد المهدوي، مراجعة: شمس الدين عرابي بن عمران، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس
- **روسي، توري**، 1974: ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، ترجمة: خليفة محمد التبسي، دار الثقافة، بيروت،
- **بن موسي، تيسير**، 1988: المجتمع الليبي في العهد العثماني، الدار العربية للكتاب، طرابلس
- **التليسى، خليفة محمد**، 1997: حكاية مدينة طرابلس لدي الرحالة العرب والأجانب، ط 3، الدار العربية للكتاب، ليبيا
- **بن عامر، رؤوف محمد**، 1997: تطور الوضع الصحي في ليبيا، درا الكتاب العربية
- **كورو، فرانشسكو**: ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني، ترجمة : خليفة محمد التليسي، دار الفرجاني، طرابلس، د.ت
- **روفيري، فرانشيسكو**، 2003: عرض للوقائع التاريخية البرقاوية – التاريخ الكرونولوجي لبرقة 1551: 1911، ترجمة: ابراهيم احمد المهدوي، طرابلس
- **الجميلي، قاسم خلف**، 2003: صفحات من تاريخ ليبيا الحديث والمعاصر، طرابلس
- **الريان، محمد**، 1999: دراسات في تاريخ ليبيا الحديث، دار الكندي للنشر
- **بازامة، محمد مصطفى**، 1968: بنغازي عبر التاريخ، جـ 1، بنغازي
- .....: بنغازي مترفيك، ثلاثة أجزاء، دار الحوار، قبرص 1994
- **بو لقمة، مصطفي**، 1975: دراسات ليبية، بنغازي، مكتبة قورينا للنشر والتوزيع ، ط 3
- **بروشين، نيكولاي إيليتش**، 2001: تاريخ ليبيا من منتصف القرن السادس عشر حتي مطلع القرن العشرين، ترجمة وتقديم: عماد حاتم، ط2 ، دار الكتب الجديدة المتحدة، بنغازي، ليبيا

المقالات والدوريات

- **رستا، الفاريس. أ**، 1998: (قنصل جلالة ملك هولندا لدى إيالة طرابلس الغرب وملحقاتها)، عرض إحصائي عن ولاية طرابلس الغرب، ترجمة : حامد أوحيدة، مجلة الشهيد، العدد التاسع، طرابلس

- **الاحول، خليفة محمد**، 1988: تقرير وثائقي عن أهم المصادر الليبية بالأرشيف القومي الفرنسي، مجلة وثائق تاريخية، العدد 3، السنة3
- **صادق، زهاء سعد** ،2018: العمائر الخدمية في شرق ليبيا خلال العهد العثماني، مجلة كلية الآداب والعلوم، جامعة بنغازي، عدد مايو.
- **أبو شويرب، عبد الكريم**، 2000: الأوضاع الصحية في المجتمع الليبي، في الفترة ما بين 1835 – 1950، مجلة البحوث التاريخية العدد الثاني، طرابلس
- ..... ، 1982: المؤسسات الصحية خلال العهد العثماني الثاني، مجلة تراث الشعب، السنة الثانية، العدد الخامس، طرابلس
- ..... ، طرابلس، 1991: الصحة والمرض وطرق العلاج في بعض الواحات الليبية القرن 19، مجلة البحوث التاريخية، العدد 2، السنة 13، منشورات مركز جهاد الليبيين التاريخية
- **الويبه، كامل علي مسعود**، 2005: الإدارة العثمانية في طرابلس الغرب 1842: 1911، مراجعة: طاهر خلف البكار، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، سلسلة الدراسات التاريخية العدد 54، ليبيا
- **الديك، محمود أحمد**، يوليو 2001: الاوضاع الصحية في طرابلس(ليبيا) منذ العهد العثماني وحتي فترة الاستعمار الإيطالي" الاوضاع الصحية في ليبيا 1835- 1950، أعمال الندوة العلمية التاسعة ، مدينة المرج ، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس 2009
- **الكندي، وفاء كاظم**، يوليو 2013: قراءة في الاحوال الصحية والعادات الغذائية لمجتمع ولاية طرابلس الغرب 1835: 1911، كلية التربية للعلوم الانسانية، قسم التاريخ، جامعة بابل، العدد 13
- **الجميلي، قاسم خليفة**، 2003: صفحات من تاريخ ليبيا الحديث والمعاصر، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس.

أثر الطب الكولونيالي على ثقافة التداوي بمغرب الحماية

The impact of the colonialist medicine on the medicinal culture in the Protection Era of Morocco

د.أنس الصنهاجي
أستاذ باحث، جامعة ابن طفيل القنيطرة.
senhajianass78@gmail.com

ملخص:

لا مرية في مدى التغير الاجتماعي الذي حصل بالمغرب خلال الفترة المدروسة، محدثا في المجتمع رجات عميقة، جعلتنا نميز فيهما بين اتجاهين، اتجاه تقليدي وآخر عصري كتجلي من تجليات الصدمة الاستعمارية، ونتيجة مباشرة للعقل الاستعماري على الأرض الذي يدرك بشكل واضح من خلال السياسة الأهلية التي ارتكزت في تموجاتها على استعمال أساليب وميكانيزمات شكلت مداخل لاختراق المجتمع، عبر استنبات العديد من المؤسسات والآليات للتحكم في الشبكة الاجتماعية ومراقبة العناصر الفاعلة فيها، مما مكنها من مراقبة عملية تحول المجتمع من كل أبعاده. وتعتبر السياسة الصحية من أبرز هذه الأسس التي اعتمدتها إدارة الحماية في المغرب لتجاوز حالة الاصطدام التي يمكن أن تشوش على المشروع الاستعماري في المغرب.

الكلمات المفتاحية: الطب الكولونيالي، الطب التقليدي، معالم التحول.

Abstract : There is no doubt about the extent of the social change that took place in Morocco during the period under study, bringing about profound shocks in society. This fact made us distinguish between two trends, a traditional trend and a modern one as a manifestation of the colonial shock, and a direct result of the colonial mindset, which is clearly manifested through the civil policy that based in its ripples on the use of methods and mechanics formed entrances to penetrate society.

This happened through the cultivation of many institutions and the mechanisms to control the social network and monitor the activists, which enabled it to monitor the process of the transformation of society in all its dimensions. The health policy is one of the most prominent of these foundations adopted by the Protection Department in Morocco to overcome the collision situation that could disrupt the colonial project in Morocco.

Keywords : colonialist medicine, traditional medicine, transformation profile.

تقديم

ظل المغرب منذ قيام إمارة الأدارسة، يستفيد من الخبرة المشرقية العربية في ممارسته لمختلف أنماط العلم الطبي، وقد شهد المغرب الأقصى ازدهارا على مستوى الطبابة خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، خصوصا في الفترات التي غدت فيها بلاد الأندلس تابعة لأمراء مراكش، فالسلاطين المرابطون استقدموا العديد من الأطباء المرموقين من الأندلس، وأفسحوا لهم المجال للتطبيب والتدريس، ووفروا لهم أفضل الظروف، أمثال ابن رشد، ابن طفيل، ابن ماجه، ابن الأزهر، حيث تقلد هذا الأخير مهمة الطبيب الخاص للأمير المرابطي يوسف بن تاشفين. وقد واكب ذلك ممارسة طبية قائمة على الملاحظة والتجربة والحس العيادي.[1]

وقد شهد القرن التاسع عشر الميلادي، حصول عدد من المتعلمين المغاربة، على إجازات في الطب من مدارس مغربية وعلى رأسها جامعة القرويين، وبالموازاة مع ذلك أوفد المولى الحسن الأول بعثات طلابية إلى الخارج، للاستفادة من تقدمهم

[1] - *رويان بوجمعة" الطب العام في المغرب"* ، معلمة المغرب، الجزءالسابع عشر، مطابع سلا، سلا، 1998. ص. 5714 .

في هذا المجال، حيث رجعت هذه البعثة بشواهد في الممارسة الطبية، أمثال شاكر السلاوي الحاصل على تكوين طبي بالكلية العثمانية، وأحمد الطنجي التمسماني الحاصل على شهادة في الممارسة الطبية بأوروبا، وتلقى ستة أطباء آخرين تداريب في المستشفى الإسباني بطنجة. ويعتبر عبد السلام العلمي من أبرز هؤلاء، فبعد تخرجه من المدرسة الطبية بمصر، أصبح بعد مدة طبيبا خاصا للمولى الحسن الأول ولأسرته، عوض الطبيب الفرنسي "لينريس" (Linares).[1]

ومن أشهر مؤلفاته:

"البدر المنير في علاج البواسير": وقد تناول فيه العلامات التي يتميز بها مرض البواسير، وطرق علاجه، ونظام الحمية الغذائية المرتبط به.

"مفتاح التشريح": وهي منظومة في علم التشريح والمعالجة، نظمها في ثمانية وسبعين بيتا، تطرق فيها لمكونات الهيكل الجسدي للإنسان. لكن يبقى كتاب **"ضياء النبراس في حل مفردات الأنطاكي بلغة فاس"** من أهم الكتب التي ألفها عبد السلام العلمي سنة 1318هـ، حيث وصف فيه أزيد من سبعة وستين ترياقا لمختلف الأمراض التي تصيب الإنسان.[2]

وإلى جانب عبد السلام العلمي، اجتهد محمد القصار في علاج الناس من الحمى الصفراء "thyfus"، حيث ألف في هذا المضمار رسالة يشرح فيها جذور المرض، وظروف تطوره، و طرق العلاج والوقاية منه، وقد أسهم تعليمه في مصر وأوروبا علوم الطب، في إيراد بعض الوصفات الجديدة لمحاصرة هذا المرض والقضاء عليه،[3] غير أنه لم يوفق في ذلك بدليل وفاته بالمرض نفسه سنة 1906م.[4] وعلى العموم، فقد دأب المغاربة في طبابتهم على التداوي بالأعشاب، معتمدين في ذلك على مصنفات الطب الإسلامي، وعلى الخصوص منها كتابان شكلا حجر الزاوية في العلاج، وهما **"تذكرة أولي الألباب"** لداود الأنطاكي، وكتاب **"الرحمة في الطب والحكمة"** لجلال الدين السيوطي،[5] وقد احتوى هذان الكتابان بعض النباتات الشافية لمختلف أنواع الأمراض عن طريق نقعها أو دقها[6] أو استنشاقها أثناء حرقها.

وقد شكلت وصفات الأعشاب الطبية المصدر الرئيس للأعلاء الذين ألم بهم مرض طارئ أو مزمن، بيد أن فشل هذا النوع من التداوي كان يؤدي بالعليل إلى تجريب بعض الأشكال العلاجية الأخرى من قبيل:

أ-الاستطباب بالكتابة:

(بضم الكاف) وهي عملية كان يقوم بها الفقيه (بسكون الفاء) لصالح المريض، بعد أن يسأله عن مرضه وعن اسم أمه وأحيانا عن منطقة سكنه، وبعد الفراغ من أخذ معطيات المريض، يمتشق ورقه ويزمّم عليها بقلمه القصبي، آيات أو جمل أو جداول أوأرقام...، ثم يقوم بطي الحرز على شكل مربع أو مستطيل ويقدمه لزبونه وهو يحثه بلفه بقطعة من صوف أو كتان أبيض أو جلد أحيانا، ثم يعقله على الجبين أو الذراع، أو العنق، أو الحزام، وقد يوصي الفقيه مستشفيه بنقع

---

[1] - جادور (محمد)، *"الطب المغربي في نهاية القرن التاسع عشر عبد السلام العلمي نموذجا"*، منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، مطبعة عكاظ، الرباط، 2011، ص.ص. 49-50.

[2] - جادور (محمد)، ***الطب المغربي...***، ص ص.51-76.

[3] -Akhmisse (Mustapha), ***Histoire de la médecine au Maroc des origines à l'avénement du protectorat***, Imprimerie Najah El Jadida, Casablanca, 1995, p. 92.

[4] - المكاوي (أحمد)، ***الدور الاختراعي والاستعماري للطبابة الأوروبية في المغرب***، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2009، ص. 45.

[5] - Raynaud (L), ***Etude sur l'hygiène et la médecine au Maroc***, Imprimerie typographique et lithographique, Léon,sans date pp. 128-129.

[6] - رويان (بوجمعة)، *"الطب التقليدي بالمغرب"*، معلمة المغرب، ج 17، ص. 5712.

الحرز في ماء أو زيت ممزوج ببعض الأعشاب المعينة، ثم احتساؤه في رشقات محددة، أو استعماله كدهن على بعض أطراف الجسم، كما قد يتطلب الأمر إحراق الحرز واستنشاق دخانه[1] أو تبخيره.[2]

ب- الاستطباب بالحيوانات والحشرات والطيور:

استعمل الأعلاء الكثير من أنواع الحشرات مثل النحل، النمل، الجراد، الدّود، الصراصير، العقارب ... للأخذ بأسباب الشفاء، حيث كان يعتقد أن الرائحة الكريهة المنبعثة من الدودة المعلقة على عنق المريض، أو إحراق الصراصير واستنشاق دخانها هو علاج من مرض الحمى، أما فيما يخص الأمراض المزمنة فقد استخدمت بعض الحيوانات والطيور لعلاج ذلك، حيث كان أكل السلحفاة المطبوخة مع الكسكس وصفة نافعة لعلاج الزهري، واللقلاق مفيد لعلاج النوار[3] والسكر، كما استعان المغاربة في الاستشفاء ببعض أعضاء الحيوانات، كالشحوم، والأمخاخ، والمرارات، والأكباد، والقرون...[4]

ج-الاستطباب بالكي:

كان هذا العلاج يصلح بالأخص للمرضى بعرق النساء (sciatique) أو الحمى أو أمراض المعدة، أو ما قد يشوب مفاصل الإنسان ونواشره من آلام الفدع والوكز...، وكان السكين المحمي على نار حتى تصير شفرته محمرّة (الرشامة)، هي أشهر الأدوات المستعملة في مثل هذا العلاج، حيث كان المريض يوخز بحدها وخزات سطحية تتسم بالخفة والسرعة، وإذا كان المريض محموما أو به مرض من أمراض المعدة، كان العلاج يتطلب ثقب الجلد في البطن أو في أعلى العنق، ثم يحمى السكين على مخيط في سمه خيط من صوف، ثم يدق في الجلد المفتوح حتى ينفذ، ثم يسحب المخيط ويترك الخيط الصوفي في الثقب.[5]

د-الاستطباب بالجراحة:

حافظت أغلب عمليات الجراحة بمغرب ما قبل الحماية، على طابعها التقليدي المعروف تقريبا في جميع بلدان المشرق العربي، ولعل من أبرز هذه الجراحات نذكر:

✓ **<u>الحجامة</u>:**

وهي شفط الدماء الفاسدة التي تعيق السير العادي للدورة الدموية، بواسطة آلة تسمى المحجبة التي هي عبارة عن قارورة من الزنك،[6] أو الزجاج، أو الحديد، أو الخشب،[7] يخرج منها أنبوب يتم به سف الدم في القارورة.

✓ **<u>الفصد</u>:**

هو شق الأورام أو العضو الملدوغ أو ما احتقن بجبين الإنسان من أخلاط وسموم، وذلك باستخدام شفرات حادة سهلة النفاذ.

✓ **<u>استئصال "الجلالة" من العيون</u>:**

---

[1] - رويان (بوجمعة)،***الطب الاستعماري الفرنسي في المغرب 1912-1945***، الجزء الاول، بحث لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكدال الرباط، 2003-2004.، ص ص. 290-291.

[2] - بلحاج (نادية)،"***التطبيب والسحر في المغرب***" ، ط 1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1986، ص. 46.

[3] - رويان (بوجمعة)، ***الطب الاستعماري*** ...، ج 1، م.س، ص. 285.

[4] - بلحاج (نادية)، ***التطبيب...***، م.س، ص. 58.

[5] - رويان (بوجمعة)، ***الطب الاستعماري*** ...، ج 1، م.س، ص. 286.

[6] - رويان (بوجمعة)، ***الطب الاستعماري*** ...، ج 1، م.س، ص. 287.

[7] - بلحاج (نادية)، ***التطبيب...***، م.س، ص. 65.

أتقن الممارسون المغاربة هذه العمليات أيما إتقان، بشهادة الأجانب الذين تابعوا هذا النوع من الجراحة.[1]

✓ **علاج الأسنان وقلع الأضراس:**

كان العلاج يتم عن طريق تخضيب السن المريضة، وطلائها بتوليفة تضم القليل من الثوم والملح وفجل الخيل، بينما كانت ثقوب الأسنان المسربلة بالسوس، تعالج بملئها بجذور جوز الريان بعد نقعها في الحليب، وتغطيتها بعد عملية الملء بشمع العسل، أما الأضراس فعلاجها كان غالبا ما يتم عن طريق قلعها[2] للاستراحة من آلامها.

هـ - جبر الكسور:

شكلت قطع الخشب الرقيق المسوّى، أو أنصاف قطع من القصب، الأدوات المثبتة لرأب صدع كسر عظمي، فبعد التثبيت، يلف العظم بقوة بثوب رقيق مدرّج بخليط من الدقيق ومح البيض،[3] وبعد التأكد من استواء طرفي العظم المكسور، يتم ربطه بخيوط صوفية غليظة، أو بخرق من الثوب الخشن، وبعد خمسة وعشرين يوما يزيل المجبّر الضمادة، ويبدأ في حث الخطى ببطء وحذر شديدين،[4] أما إذا كان الكسر جمجميا، فإن المختص يمزق الجلد، ثم يمتشق الجزء المكسّر ويضع مكانه قشرة قرع يابس أو يقطين بعد نجرها وتلميسها، ثم يفرد عليها الجلد وفوقه يسكب قليلا من السمن الذائب، ثم يلأم طرفا الجرح برؤوس النمل، وذلك بالضغط على فكي النملة، وجعلها تعض بقوة على جانبي الجرح، لرأبه بإحكام ولملمة شقوقه، وبمجرد شفاء الجرح، تبدأ فكوك النمل الراتقة له تتداعى إشارة إلى برئه.[5]

و-الاستطباب بالمعادن:

كان أشهر المعادن المعالج بها هي الملح، "الشبة"، الكبريت، النحاس، "الحديدة" الحمراء والزرقاء، وقد استعمل محلول البارودية المقطر في الماء الفاتر في علاج الرمد، كما استعملت "الشبة" المطبوخة مع أوراق الورد، ورشفات من "الحديدة" الحمراء في علاج المرض نفسه.[6]

ز-الاستشفاء بالأضرحة والأولياء:

شكلت أضرحة الأولياء، محجّا للمرضى واليائسين المتوسلين في فك ما ألم بهم من سحر أو مرض دنف أو ما شابه ذلك، أو طلبا للربح في نشاط من الأنشطة الاقتصادية ...، وقد اشتهر كل ضريح بتخصصه في شفاء مرض أو أمراض معينة، فمثلا ضريح سيدي علي بوغالب عرفت بركاته بعلاج الدماميل، وضريح مولاي بوشعيب بعلاج انتفاخ طرفي جفن العين المعروف بـ "الشعيرة"،[7] وبشفاء مرض الكساح،[8] والرابي داود بعلاج المجانين، وسيدي عبد الرحمان بعلاج أمراض الروماتيزم وأمراض الأطفال.[9] وفي دراسة حول الشيخ الولي "الصانع للمعجزات والقاضي للحاجات"، لاحظ الفرنسي "بيل" (A.Bel) مرضى بمجرد خروجهم من عيادة طبية فرنسية، توقفوا أمام ضريح مولاي أحمد الوزاني بمكناس، يتذرعون

---

[1] - رويان (بوجمعة)، ***الطب التقليدي***...، م.س، ص. 5713 .

[2] - Raynaud (L), ***Etude sur l'hygiène et la médecine au Maroc***, Imprimerie typographique et sans ,lithographique, Léon date. p. 136.

[3]- رويان (بوجمعة)، ***الطب التقليدي***...، م.س، ص. 5713 .

[4]- Mathieu (J), «***Notes sur les pratiques médicales***», Maroc- médical, n°77, Mai 1928, p.127.

[5]- Odinot (P), ***Le Maroc au temps des sultans***, Ed Ballard, Paris, sans date, p. 310.

[6]- رويان (بوجمعة)، ***الطب الاستعماري***...، ج 1، م.س، ص .286.

[7]- المرجع نفسه، ص. 283.

[8]- دوتي (إدمون)، ***مراكش***، ترجمة عبد الرحيم حزل، منشورات مرسم، مطبعة أبي رقراق، 2011 ص. 107.

[9] - Akhmisse (M), ***Histoire de la médecine***..., op.cit., p. 25.

الشفاء منه وهم يأكلون القليل من التراب المبثوث قرب ضريحه، ثم طفقوا يفركون بعضه على مكان المرض الذي يعانون منه.[1]

ن-الاستشفاء بالحامات:

كانت حامة مولاي يعقوب وجهة لكل مرضى الجلد المتوسمين في الشفاء، وقد احتوى ماؤه على مجموعة من المعادن التي ثبت علاجها للأمراض الجلدية والروماتيزم على وجه الخصوص وهي: كلورور الصوديوم، البوتاسيوم، كلورور الكالسيوم، كلورور المانيزيوم، الألومين، بيروكسيد الحديد، الهيدروجين المكبرت.[2] وقد كان ما لا يقل عن خمسة آلاف مريض قادمين من كل مناطق المغرب يستحمون بها سنويا، بيد أن ماء الحامة اقتصر في الحقيقة على علاج أمراض الروماتيزم وبعض الأمراض الجلدية التي تجففها حرارة الماء ومادة الكبريت أو توقف نجيجها، [3]هذا علاوة على شفاء أمراض عرق النساء ومفاصل الفقرات و"الإكزيما".[4]

وبناء على ما سبق يبدو أن الطب التقليدي، ظل هو السائد والمعمول به حتى بعد دخول المغرب عهد الحماية، وقد تنوع التعاطي مع هذا النوع من الطب، فهناك فئة قليلة استلهمت دواءها من الطب الإسلامي، الذي كان مصدره الطب النبوي، ومؤلفات الأطباء المسلمين في هذا الشأن، وفئة أخرى لجأت إلى الطب الشعبي الذي اكتنفه الكثير من أفعال الهرطقة اللاهثة وراء وهم الشفاء، فالجهل والتخلف والإحساس بالضعف الشديد وقلة الحيلة... أسباب كلها كانت تؤدي بالمريض إلى اللجوء لسفاسف الممارسات الطبية، التي تصورها له ثقافة المجتمع أنها باب من أبواب الخلاص.

أولا- السياسة الصحية على عهد الحماية

عملت فرنسا بعد إدخال المغرب في حمايتها، على تذليل سبل استغلاله الاقتصادي والبشري، وكل ما من شأنه خدمة المصالح الفرنسية، وبما أن المتروبول الفرنسي وعى جيدا عمق التحديات التي ستواجهه بعيد احتلاله للمغرب، فإنه قام بوضع إستراتيجية قبلية يعتمد إجراؤها على حصيلة الدراسات التي قام بها كوكبة من الأنتروبولوجيين، والمؤرخين، والجغرافيين، والأطباء... حول واقع المغرب وظروفه بكل أبعادها، وقد تعززت هذه الدراسات بالتمثيل الدبلوماسي الفرنسي، الذي فطن بعمق الأزمات الاجتماعية المغربية، المنبجسة من واقع تخلف هياكله الاقتصادية وأنسقته الاجتماعية، التي لازالت وفيّة للنموذج القرسطوي. فواقع تخلف الممارسة الطبية ظل مهيمنا على فعل جل المغاربة حتى خلال فترة الحماية، الأمر الذي فرض وضع مقاربة اجتماعية، تروم القطع مع السلوك الاجتنابي الذي يمارسه الأهلي اتجاه الأجنبي "الكافر"، وتطويعه تدريجيا نحو تقبل القيم الحضارية الغربية واستهلاكها. ولتفعيل ذلك، رصدت إدارة الحماية جملة من الوسائل الإجرائية ذات طابع صحي، واعتبرت الطبيب أهم عنصر فيها، وذلك من خلال حرصه على تمتين عرى الثقة والاطمئنان بينه وبين الأهالي، والتي يسهل بناؤها عندما يلج الطبيب منطقة تمر بمختلف أنواع الأمراض والأوبئة، وهذا ما أكده المفتش العام لمكاتب التعليم بباريس السيد دوفستيل (Dovestile) بالقول: **" تنمو أهمية الإعانة الطبية العمومية نموا متو اترا عند احتواء المرض، ومحاصرة الداء ووقاية الصحة، فتحقيقها لذلك يجعلها وسيلة عظيمة للسيطرة والاحتلال، كما تساعد على أجرأة المخططات السياسية بأداء عال وعلامة كاملة،** "وفي السياق ذاته يقول اليوطي:**"إن للتوسع الاستعماري جو انبه القاسية، فهو ليس خاليا من العيوب والنقصان، غير أنه إذا كان هناك ما**

---

[1] - رويان (بوجمعة)، ***الطب الاستعماري***...، ج 1، م.س، ص .286.

[2]- نفسه، ص.275 .

[3]-Le Maroc- médicale, « ***Statistique de Moulay Yacoub: 12 ans de consultation thermale*** », Janvier – Février 1947, p. 12.

[4]- « ***Essai sur la valeur thérapeutique des eaux de Moulay Yacoub***, Le Maroc- médicale ***injection utilisées en intraveineuses ou intra- musculaires*** » .p. 47, 1947 Avril

يضفي على هذا التوسع نبلا ويبرره فهو عمل الطبيب، باعتباره مهمة ورسالة شريفة"[1]. وهذا ما قام به الكولونيل مانجان (Mangin) في يوليوز 1912، وهو في مهمة إخضاع منطقة دكالة، حيث أرسل وحدة صحية متنقلة وطبيبا قارا إلى المناطق الموبوءة بالطاعون،[2] وخص بالاهتمام قبيلة أولاد فرج ومنطقة أم الربيع[3] الأكثر إصابة بالوباء، وقد انسجم هذا الإجراء مع توجهات المرشال اليوطي الذي كان يعتبر أن **"طبيبا واحدا يمكنه معادلة فيلق عسكري."**[4] الظاهر إذن أن التأثير السيكولوجي والحضاري للخدمة الطبية البديلة والفاعلة، كان يحير التصور النمطي للأهلي اتجاه الكولونيالي، الذي يحمل الأداة ونقيضها. وفي هذا السياق وظفت إدارة الحماية طبابتها لتحقيق أهداف أساسية لعل أبرزها:

✓ **<u>الحفاظ على اليد العاملة المغربية</u>**:

جراء وعي الكولونيالي بالنقص الذي سيعانيه في تأمين يد عاملة أوروبية، وإيمانه أن العامل المغربي وهو الحلقة الأهم في دائرة الإنتاج الاقتصادي الفرنسي، حرصت إدارة الحماية على تكريس طبابتها للحفاظ على هذا الرأسمال البشري، الذي وظّف في مختلف القطاعات الاقتصادية، وعلى رأسها المناجم والأراضي الفلاحية والبنية التحتية...

وهذا ما أكده مدير الصحة العمومية "كولمباني"(Colombani) بالقول **"...كما هو الشأن بالنسبة لجيش يريد أن يصل مباشرة إلى هدفه، ويكون ملزما بالتخلص من كل ما من شأنه أن يعرقل سيره في بعض اللحظات العصيبة، فكذلك الأمر بالنسبة لهذا الإسعاف الصحي، الذي عوض أن ينشغل بحثالة البشر والبؤساء والمعتوهين والمرضى، الذين لا أمل لهم في الشفاء وحماية الأطفال والعجزة، صرف عنايته للحفاظ بلا تأخير على العاملين وذوي النشاط من السكان."**[5]

ويبدو من خلال ما ذكره هذا الطبيب، أن السياسة الصحية الكولونيالية كانت تمارس سياسة إقصائية نفعية في أبشع صورها.

✓ **<u>توفير التغطية الصحية للكولون الأجنبي</u>**:

كانت الفلسفة الكولونيالية الفرنسية بالمغرب، تقوم على مسلمة مفادها أن فرنسا لا يمكنها أجرأة إستراتيجيتها وتثبيت جذورها وتحصين مصالحها في المغرب، دون استيطان فرنسي مكثف، يكون بمثابة المعسكر الخلفي الذي يضفي نوعا من الشرعية على الوجود الفرنسي ويعزز حضوره، وفي هذا الإطار انضبطت السياسة الصحية الفرنسية للمتطلبات الطبية الأجنبية، التي كان أداؤها يتميز عن الإجراءات الطبية المقدمة للأهالي،[6] فاقتصر الاهتمام بصحة المغاربة في حدود ما يدرأ عن الأوروبيين أخطار المرض والعدوى،[7] ويؤمن العاملين للقطاعات الاقتصادية الأوروبية.

---

[1] - الفينة (نبيلة)، ***التنظيم الإداري والتشريعي لقطاع الصحة بالمغرب في الفترة الاستعمارية***، منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، مطبعة عكاظ، 2011، ص. 233.

[2] - السعيدي (خديجة) و المالكي (الملكي)، "***وثائق غير منشورة عن عهد الحماية***"، مجلة تاريخ المغرب، العدد 9 ماي 1999، ص. 125.

[3] - A.N.R, Carton n°110, ***Instruction pour monsieur le colonel Mangin,*** p.3.

[4] - حسن الوزاني (محمد)، ***مذكرات حياة وجهاد***، ج 1، *مؤسسة جواد للطباعة والتصوير، الرباط، 1985*، ص. 174 .

[5] - رويان (بوجمعة)، ***الطب الاستعماري...***، م.س، ص. 486 .

[6] - رويان (بوجمعة)، ***الطب الاستعماري...***، م.س، ص. 487.

[7] - المكاوي (أحمد)، ***الدور الاختراقي والاستعماري للطبابة الأوروبية في المغرب***، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2009. ، ص، 115.

✓ **المحافظة على صحة الجنود:**

كان الهاجس الأول لسلطات الحماية، هو توفير الظروف الملائمة للجنود المجندين في صفوف جيشها، ووضع الترتيبات التي من شأنها المحافظة على صحتهم ودرء الأوبئة عنهم.[1]

✓ **التمييز السوسيو- مجالي:**

حرصت إدارة الحماية في تصميم المدن والتخطيط للأحياء الأوروبية، على استحضار المقاربة الصحية، وذلك عبر فصل أحياء المغاربة عن أحياء الأوروبيين، فمنذ 1850 إلى حدود 1930، طفق تنظيم المدينة بالمغرب يعتمد على الخطة التي يضعها الطبيب الصحي، وهي إستراتيجية ارتكزت على محاصرة العدوى أكثر من تركيزها على جانب التواصل الاجتماعي، أما فيما يخص التميز الاجتماعي على مستوى التطبيب، فلا أدل عن التجهيزات المتطورة والأطر الكافية ذات الكفاءة العالية التي اختصّت بها الجالية الأوروبية، فيما اكتفى المغاربة على مضض بخدمات وتجهيزات طبية بسيطة.[2]

هذا وكان القطاع الطبي الخاص، حكرا على الأوروبيين والأعيان وبعض المحميين المغاربة.[3]

وعليه يجوز القول، إن السياسة الصحية الكولونيالية بمغرب الحماية، عكفت- إلى جانب المحافظة على سلامة الكولون وتوفير كل وسائل الوقاية والعلاج له- على إرساء الخدمات الصحية ذات الطابع البراغماتي، بغية توفير الشروط الموضوعية للاختراق السلمي من جهة، والحفاظ على لياقة أداء اليد العاملة من جهة أخرى، وفي الوقت ذاته إظهار فرنسا بمظهر المتفوق الحضاري.

ومن جانب آخر، حرصت السياسة الطبية الكولونيالية على خلق تعايش سلمي بين الولي والطبيب، وعلى المزج بين الاستبداد الصحي باسم محاسن النظافة والوقاية، والتسامح المشفوع بالتجهيزات والأدوية المنقذة من الموت والمخففة للألم.[4]

ثانيا-التنظيم الصحي على عهد الحماية

تأسست إدارة الصحة العمومية منذ سنة 1912، بغاية تجفيف منابع الأوبئة، ومكافحة الأمراض ومعالجة المعلولين، وذلك من أجل المحافظة على صحة الجنود، وصحة الجالية الأجنبية المقيمة بالمغرب،[5] هذا علاوة على خلق بيئة اجتماعية سليمة، يسهل معها استغلال مقدرات البلاد المادية والبشرية. وقد انبثقت عن هذه الإدارة عدة أجهزة ومؤسسات ومصالح... أسهمت في تنزيل الإستراتيجية الصحية الكولونيالية إلى حيز التطبيق، ومن أبرز الأجهزة والمصالح الصحية التي سادت بمنطقة دكالة نذكر:

---

[1]- الفنية (نبيلة)، ***التنظيم الإداري***...، م.س، ص. 231.

[2]- عسة (أحمد)، ***المعجزة المغربية***، ط 1، دار القلم للطباعة، بيروت، 1975، ص. 695.

[3]- داهي (حسن)، ***محاولة تحليل السياسة الصحية في المغرب***، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة في القانون العام، شعبة علم السياسة والقانون الدستوري، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماع أكدال، جامعة محمد الخامس الرباط، 2001، ص. 13.

[4]- Le Maroc Médical, ***« Lyautey et le Médecin »,*** Novembre 1954. p. 54,

[5] - جريدة السعادة، ***نظام إدارة الصحة العمومية والمقاصد المقصود في تأسيسه***، العدد 1754، الاثنين 1 يونيو 1918، ص.3 .

أ-المكتب البلدي الصحي:

أقيم بكبريات المدن المغربية، مكتب صحي بموجب ظهير فاتح نونبر 1912،[1] تحت إشراف أطر طبية عسكرية ومدنية وتقنية، ومشاركة ممثل للمخزن، وأحد أعيان الساكنة،[2] وكان الهدف المركزي لهذا المكتب، يتمحور في العمل على قطع دابر المصادر والمراتع التي من شأنها تهيئ الظروف المواتية لتفشي الأمراض ونقل الأوبئة، مثل القاذورات، القمامة، الفئران، البراغيث، القمل، الباعوض، السمائل...، وكان المكتب البلدي الصحي ينكب في الأوقات العادية على:

مراقبة الوفيات والتأكد من الموتى والقيام بإحصاءات ديمغرافية.

جمع البيانات المتعلقة بالحالة الصحية للسكان، وما يتعلق منها بالأمراض المعدية على الخصوص .

مراقبة المساكن صحيا، وتنقية المدينة من القمامة والقاذورات، والقضاء على الفئران. وفي هذا الصدد كان يقدم المكتب البلدي خمسة فرنكات عن كل فأر مقتول.

- مراقبة مياه الشرب، وما يعرض للبيع من مواد غذائية.
- مراقبة صحة المومسات.
- مراقبة الصحة المدرسية وتعميم التلقيح ضد الأمراض المعدية .[3]

أما عندما يضرب المغرب أو منطقة منه موجة وبائية أو مرضية، فكان مكتب المنطقة يعكف على تطهير ومحاربة منابع الوباء أو المرض، ويعزل المتشردين والمتسكعين عن الساكنة، ويقفل الفنادق ويلقّح السكان.[4]

وإلى جانب هذه المهام، كان المكتب يلج المنازل والأزقة الآهلة بالسكان المغاربة، لمعاينة الوفيات، أو لمنع دفن سري أو لمكافحة الفئران، كما كان من اختصاصاته تفتيش الأضرحة والفنادق والمقاهي.[5]

ولم تقتصر اختصاصات المكتب على هذه المهام، بل توسعت لتمنح سلطة اقتراحية فيما يخص المواصفات الصحية الواجب اعتبارها في التهيئة الحضرية، وكان المكتب يقدم تقارير دورية للمقيم العام، يختزل فيها أنشطته ومنجزاته في المدينة والمشاكل التي تواجهه.[6]

والجدير بالذكر، أن مكاتب الصحة البلدية كانت حتى حدود 1915، عبارة عن مجموعات صحية متنقلة، حيث لم يتم تنظيمها بالنسق المزمع تنفيذه حتى أكتوبر 1915.[7]

ب- العيادات الطبية المتنقلة:

بموجب قرار صادر عن الصدر الأعظم بتاريخ 13 يناير 1914،[8] عمت الفرق الصحية الجوالة مجمل جهات المغرب، وقد تألفت كل فرقة على حدة من قافلة قوامها طبيب، وأربع ممرضات، وأربعة من سواقة البغال، وأربعة خيول، وبغال تحمل الخيمة والأدوية والعقاقير والمستلزمات الطبية،[9] بيد أن هذه العيادات صار بعضها يتنقل على متن سيارات

---

1 - . p. 12, 1 Novembre 1912, Bulletin officielle, n°1

2 - Ed Recueil ,***L'assistance aux indigènes musulmans au Maroc***), Alix(Woytl. Gisclard ,Paris Sirey, 1936, p. 93 .

3 - رويان (بوجمعة)، ***الطب الاستعماري...*** ، م. س ، ص. 310.

4 - نفسه، ص. 310.

5 - نفسه، ص ص. 310-311.

6 - Bulletin officielle, n°4, 23 Novembre 1912, p. 21 .

7 - Aissa (Abdelmoumine), ***La santé publique au Maroc à l'époque coloniale (1907-1986),*** thèse de doctorat en histoire, Université Paris, le Pant néo Sorbonne, 1997, p. 90 .

8 - بوجمعة رويان، ***الطب الاستعماري...***، م.س، ص.312.

9 - جريدة السعادة، ***نظام إدارة...***، العدد 1754، الاثنين 1 يونيو 1918، م. س، ص. 3.

طبية منذ سنة 1917 بالطرق المعبدة الرابطة بين مختلف القبائل والأسواق الأسبوعية،[1] وكان على المحلة الصحية المتنقلة، أن توصل الإسعافات الطبية إلى التجمعات القروية، وأن تقوم بعمليات التلقيح[2] ضد الجدري، وتوزّع العقاقير (الكينا) على المصابين بحمى المستنقعات، التيفوس[3]...، ومن خلال هذا النشاط الطبي تمكن الطاقم الصحي من نسج علاقة ثقة مع السكان وشيوخ القبائل والأعيان، وكل من له تأثير رمزي في وسطه الاجتماعي، الأمر الذي ذلّل عمليات السيطرة والتغلغل السلمي، وفي هذا الصدد ذكر الدكتور "موران" (Mauran) في إحدى محاضراته بالقول: **"المجموعة الصحية المتنقلة هي بمثابة المستوصف الذي يتحرك نحو المريض، إذ لا يستطيع هذا الأخير زيارة الطبيب بسبب عامل البعد."**

وقد أتت سياسة اليوطي الصحية أكلها، ونجحت بقدر وازن في تحسين نظرة الأهلي اتجاه الأجنبي "الكافر" فكانت بداية تراجع سياسة القطع والحذر التي نهجها الأهلي ضد الطارئ الأجنبي حتى قبل سقوطه تحت سلطة الحماية، ومن مظاهر ذلك أن بعض الأطباء حكّموا في خلافات شجرت بين الأهالي المتنازعين والقبائل المتخاصمين، وهذا يؤكد ما ذكره "هاردي" (Hardy) بالقول: **"إن القلوب الأكثر انغلاقا تنفتح تحت ضربات الألم."**[4] وهذا ما يفسر استعانة بعض القواد في حركاتهم بفرق صحية متنقلة، لتيسير عملية إخماد المقاومة وتطويع الأهالي.[5]

وعلى العموم، فإن العيادات الطبية المتنقلة بين مختلف ربوع القرى المغربية وقبائلها، أدى إلى تراجع نسبة الأمراض، الأمر الذي أنعش نسبة النمو الديمغرافي بمغرب الحماية.[6]

ج- الحراسة الصحية البحرية:

بموجب قرار وزيري بتاريخ 13 مارس 1916، تم إحداث تنظيم خاص بالحراسة الصحية البحرية، تحت إشراف مديرية الأشغال الصحية، وقد توفر للموانئ المغربية بالمنطقة السلطانية، الوسائل الواقية من انتشار الأمراض والأوبئة، كما توفرت هذه الموانئ على محلات شاسعة، سهّلت عملية الحراسة الصحية على المهاجرين،[7] وفيما يلي خطاطة تبين الهيكل الإداري للحراسة الصحية البحرية بالمنطقة السلطانية.[8]

---

[1] - نبيلة الفينة، ***التنظيم الإداري***...، م.س، ص. 236.

[2] - Sicoult(Micouleau) et autres, ***Les médecins français au Maroc combats en urgences (1912-1956)***, l'Harmattan, Paris, 2000, p. 38.

[3] - جريدة السعادة، ***نظام إدارة***...، العدد 1754، الاثنين 1 يوليوز 1918، م.س، ص. 3.

[4] - رويان (بوجمعة)، ***الطب الاستعماري***...، م.س، ص.313.

[5] - نفسه، ص. 314.

[6] - (Khayati Smail), ***Développement agricole***..., op.cit., p. 79.

[7] - نبيلة الفينة، ***التنظيم الإداري***...، م .س، ص ص. 241-242.

[8] - نفسه، ص. 242.

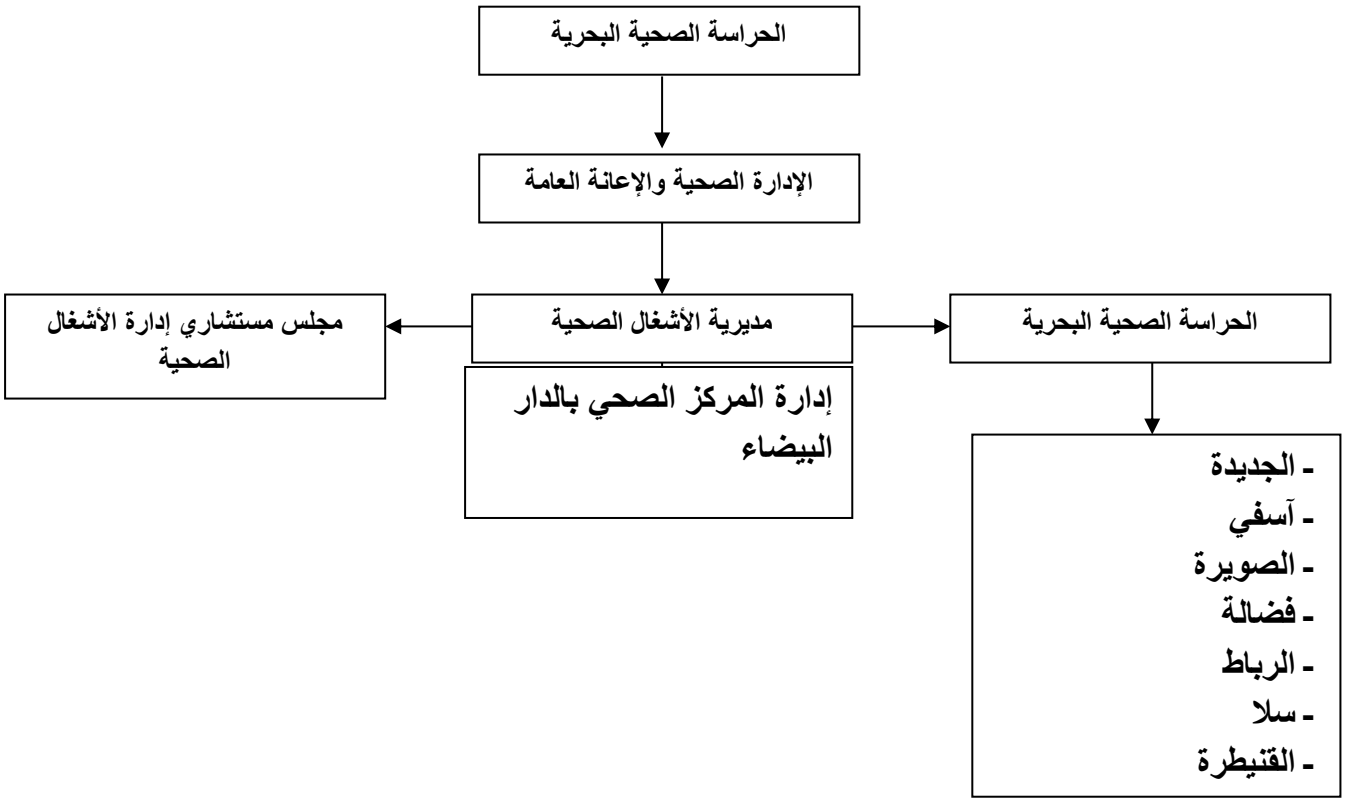

د-نقطة الحليب:

أدركت إدارة الصحة العمومية، أن ضعف بنية الأطفال الرضع، وارتفاع نسب وفاتهم، ناجم عن تناولهم لحليب فاسد أو لسوء في التغذية، وأمام هذه الحقيقة، سارعت إدارة الصحة إلى جانب فتح مستشفى "ماري فربي" ومستشفى "مدام ليجي"، إلى تأسيس دور تعنى بصحة الأطفال الرضع،[1] وخاصة الرضع الفقراء منهم واليتامى ضعاف البنية، الذين كانوا يجدون فيها من الحليب الجيد ما يغذيهم ويقوم مقام حليب الأم، كما كان أولياء الأطفال يجدون في دور نقطة الحليب من أنواع العلاج العديدة و النصائح المفيدة، ما يطور أسلوب

تربيتهم ويحافظ على صحة الطفل الرضيع، ولم تقتصر مهام هذه الدور على ذلك فحسب، بل تعدته لتشمل خدمات أخرى، من قبيل تأمين للأمهات الرضع كل علب الحليب المعقمة والرضاعات واللقاحات الضرورية لعافية الرضيع،[2] وذلك بفضل احتضان هذه الدور على الإمكانيات التالية:

- قاعة لتعقيم الرضاعات
- قاعة للتوزيع
- قاعة الاستشارات
- مغسلة
- ملبنة لملء القنينات.[3]

---

[1] - جريدة السعادة، ***الاهتمام بصحة الأطفال***، العدد 2737، السبت 22 نونبر 1924، ص. 3.

[2] - Aissa (A), ***La santé publique***..., op .cit., p. 138.

[3] - Woytl Gisclard(Alix), ***L'assistance aux indigènes Musulmans au Maroc***, Ed Recueil Sirey, Paris 1936, pp. 199-200.

وقد كانت مدينتا الجديدة وأزمور، من بين المدن الست عشرة التي قامت بها دور نقطة الحليب برئاسة مدام "Bretey" (بريطي)[1] حيث اجتهدت هذه الأخيرة في الرفع من المداخيل المادية لهذين الدارين، بالاعتماد على تبرعات الأعيان المغاربة والفرنسيين.[2] ورغم هذه المجهودات، فقد ظلت شريحة واسعة من المسلمين تتعامل مع هذه الدور بالحيطة والحذر، وريبة من حليب مجفف يجهلون مصدره وحلية استهلاكه.[3]

هـ- مصلحة الصحية المدرسية:

وهي مصلحة تابعة للمعهد الصحي، ظهرت في بداية سنة 1937، باتفاق بين إدارتي الصحة العمومية والتعليم، وقد اهتمت بالمسائل الطبية المتعلقة بالطفولة المدرسية، في كل أسلاك التعليم وأنواعه (أوروبي- إسلامي- يهودي)، ونظمت التفتيش الطبي المدرسي، وعمّمت التربية البدنية، وأسهمت من جهة أخرى في تحسين عمل الممرضات الزائرات للمدارس، وأطباء الصحة المتدربين المدعوين للتفتيش الطبي في مدارس البادية،[4] وقد استهلّت الطبيبة "أوجين دلانوي" (Eugéne Delanoé) تفتيشها الصحي بمدارس مدينة الجديدة بشكل تطوعي منذ سنة 1916، حيث ذكرت أن تطوعها ناتج عن الحالة الصحية المزرية التي وجدت عليها ساكنة البلاد منذ وصولها، فكانت معاينة وعلاج الأطفال هي أولى خطوات عملها بمدينة الجديدة،[5] وهذا ما دفعها إلى تلقيح التلاميذ بأمصال ضد أمراض الجدري، بوحمرون، والسل، وفي إطار معالجة هذا الأخير، كانت الطبيبة "دلانوي" تقوم بتجربة حقن تلاميذ أعلاء بمصل جديد في علاجه تحت اسم B.C.G، وبعد أربعة أيام كانت تعود لقياس مدى فعاليته على المرض، وفي سياق ذلك كانت "دلانوي" تستغل الفرصة لكي تحذر التلاميذ والطاقم التربوي من مغبة الإصابة بعدوى السل، العملية نفسها كانت تقوم بها مع تلاميذ الثانوية التي لقحت منهم مائة وعشرين تلميذا، أما المرضى منهم فكانت تنصحهم بالمكوث في الفراش للراحة، مع تناول ثلاث كبسولات سائلة من دواء "Bile" المعروف بمرارة ذوقه، والصيام عن استهلاك الحليب ومشتقاته،[6] وفي غمرة ذلك، اكتشفت "دلانوي" أن الأطفال الذين يتراوح سنهم ما بين ست سنوات وإحدى عشرة سنة، هم الأكثر إصابة بمرض السل، وأن الأطفال المسلمين الذكور هم الأكثر إصابة بالداء من الإناث، كما أن الأطفال اليهود من السن نفسه هم الأكثر إصابة بالداء من الأطفال المسلمين.[7]

والشيء نفسه لاحظته الطبيبة "أوجين دلانوي" عند معاينتها لأمراض العيون (Les phliriases des cils)، وأمراض التعفن العصوي (Bacillaire Infection)، حيث وجدت أن الأطفال اليهود هم الأكثر إصابة بهذه الأمراض، والأمراض المرتبطة بغياب أسباب النظافة.[8]

وقد كانت هذه المعاينات والعلاجات تنسجم مع سياسة مصلحة الصحة المدرسية، التي ركزت اهتمامها على الأمراض المعدية مثل القرع، الرمد، داء السل.. لما يشكله التجمع في القسم أو الساحة أو الداخلية أو المطعم من تسهيل سريان العدوى، لذا حرصت المصلحة على ضبط أنواع الأمراض السائدة، باستنفار إمكانياتها العلاجية الواقية منها

---

[1] - جريدة السعادة، ***انتخاب المجلس الإداري لهيئة نقطة حليب***، العدد 7175، الثلاثاء 3 فبراير 1948، ص. 2.

[2] - (A) Aissa, op.cit., p.,***La santé publique***... 127.

[3] - رويان (بوجمعة)، ***الطب الاستعماري...***، م. س، ص. 337.

[4] - نفسه، ص ص. 337-338 .

[5] -Delanoë (E), ***Trente années d'activité médicale et sociale au Maroc***, Ed Maloine, Paris ,1949, p. 54.

[6] - Ibid, p. 143.

[7] -Ibid, pp. 132-133.

[8] -Jmahri (Mustapha), « ***La communauté juive de la ville d'El Jadida »,les cahiers d'El Jadida*** 1ère édition, Mars 2005 , p. 45.

والشافية، وعندما كانت موجة وباء تجتاح البلاد، كانت المدارس تتحول إلى مراكز للتلقيح والتفلية، وجدير بالذكر أن التلاميذ الأوروبيين، كانوا يحظون بأفضل وسائل الرعاية والاهتمام الصحيين.[1]

ز- المستشفيات:

جاءت سياسة تأسيس المستشفيات في جميع المدن المهمة، عملا يروم إلى تأكيد الحضور الفرنسي في المغرب،[2] وإلى اختراق المجتمع المغربي عبر منطق التفوق الحضاري، الذي من شأنه قهر المرض ومجاهدة منابع الألم. ولأن المغربي المسلم يربأ عن الإقامة في الغرفة نفسها التي يقيم بها الأوروبي"الكافر"، والأوروبي يأنف من مشاركة الغرفة ذاتها التي ينزل بها الأهلي المدمخ بمختلف الأمراض المقززة، تم إنشاء مستشفيات تضم أجنحة خاصة بالأوربيين وأخرى بالأهليين.

وهكذا يمكن القول، إن الإستراتيجية الصحية، التي أجرأت تصورها إدارة الصحة العمومية، نجحت إلى حد كبير في تليين مشاعر المغاربة، وتحسيسهم بأهمية الوجود الفرنسي في مداواة المغاربة، فالطبابة الفرنسية كانت بمثابة حصان طروادة الذي اخترق بخطة نفوس الأهالي المغاربة، وفي الوقت ذاته أضفى نوعا من الشرعية للسيطرة الفرنسية على المغرب.

ثالثا-وسائل الحد من الأمراض والأوبئة

أسهمت عمليات التلقيح ضد الجدري التي شجعتها إدارة الصحة العمومية، وباشرتها أطر المحلات الطبية المتنقلة في القرى، والمستوصفات والمستشفيات في المدن، في إضعاف دابر هذا الوباء والحد من انتشاره، وفي هذا الشأن ذكرت الطبيبة "أوجين دلانوي" أنها كانت تلقح شهريا ضد هذا المرض ما يناهز مائة وأربعين شخصا.[3] وبفضل الاعتماد على التلقيح الإجباري والتصاميم الخماسية لإعادة التلقيح، أصبح هذا الأخير يمثل حاجزا من الحواجز المضادة للأوبئة التي وضعت منذ سنة 1925،[4] غير أن ظروف الحرب العالمية الثانية، التي أفرزت واقع النقص الحاد في الأطر الطبية وتجهيزات المحلات الصحية المتنقلة، أدى إلى عودة هذا الداء واستبداده بالمناطق ذات الهشاشة الاجتماعية، وقد كان يزيد من استفحال هذا المرض اختلاط الناس بعضهم ببعض، وتصاعد موجات المهاجرين نحو المدن.[5] أما الطاعون فقد نجحت إدارة الصحة العمومية في الحد من ضحاياه بفضل تطعيم الساكنة بمصل وقائي ضد الوباء،[6] بجانب تكوين فرقة في كل مدينة لمكافحة الفئران، حيث كانوا يقومون بجمع الفئران الميتة ثم يحرقونها بالبترول، بينما تطمر الحية منها في ماء الجيل الدسم، وفي هذا الصدد خصصت مكافأة خمسة فرنكات من قبل البلدية لكل فأر يقتل، وحسب مسؤول عن مصلحة الصحة، فإن مائتين وأربعون فأرا قتل ما بين 1913 و 1915.[7] وفي الشأن ذاته دأبت إدارة الصحة العمومية منذ 1914 على محاربة الغزو التيفوسي من خلال حملات جمع المتشردين والمتسولين، وسكان الأزقة المفترشين لبلاط الأسواق، وبعد عزل حاملي العدوى ووضعهم في محاجز صحية، يتم غسل أجساد الناجين[8] بصابون أسود أو مسحوق لكريزيل، وعندما يهيج هذا المرض ويستبد بمختلف ربوع المغرب مسجلا به إصابات جسيمة بنسب مخيفة، كانت إدارة الحماية تعلن حالة الاستنفار، فتبدأ بحجز المرضى وإبعاد الفقراء النّاجين من الوباء، وبموازاة ذلك تطهّر المدينة أو القبيلة باستعمال الكبريت وكلورور الجير ولكريزيل، وترميد كل ما ليس له قيمة كبيرة، ونقل المخيمات، ومن الإجراءات المتخذة كذلك في هذا المضمار،

---

[1] - رويان (بوجمعة)، ***الطب الاستعماري...***، م. س، ص.338 .

[2] - A.N.R, Carton n°P 74, ***l'hopital indigène***, p. 7.

[3] - Delanoë (E), ***Trente années***...op.cit., p. 59.

[4] - رويان (بوجمعة)، ***الطب الاستعماري...***، م.س، ص. 56-57.

[5] - نفسه، ص. 157.

[6] - جريدة السعادة، ***نظام إدارة الصحة العمومية والمقاصد المقصود في تأسيسها***، العدد 1755، الأربعاء 3 يونيو 1918، ص ص. 1-2.

[7] - ريفي (دانييل)، ***الطب الاستعماري***...، م. س، ص. 119.

[8] - جريدة السعادة، ***نظام إدارة الصحة العمومية والمقاصد المقصود في تأسيسها***، العدد 1755، الأربعاء 3 يونيو 1918، م.س، ص ص. 1-2.

هو وضع مراكز متفرقة للتلقيح في كل المراكز الصحية والأسواق، واستعمال مسحوق" D.D.T " والمضادات الحيوية (الأوريومسين) للقضاء على الطفيليات،[1] وكان لاكتشاف الدكتور "جورج بلان" (George Blanc)، مصلا جديدا للمرض، دورا حاسما في تطويق الوباء والحد من انتشاره، حيث استعمل جرثومة المرض ومادته نفسها بكمية خفيفة، ثم أضاف إليها مادة أخرى ركبها من مرارة البقر، وقد أخذ الجرثومة من الجردان والفئران المصابة، وبهذه التركيبة بات المرء ينجو من داء التيفوس الثقيل بالاستعانة بمادة التيفوس الخفيف،[2] غير أن رفض الكثير من المرضى المغاربة الاستجابة للوسائل الطبية الوقائية الفرنسية، صعب من مهمة إدارة الصحة العمومية في اقتلاع جذور المرض. وهكذا نستنتج أن إدارة الصحة، وظّفت وسيلتين أساسيتين لمحاربة الوباء، الأولى هي التلقيح، أما الثانية فتتجلى في قطع دابر مسببات المرض وهو القمل.[3]

ولتطويق مرض الملاريا والتخفيف من وطأته على ساكنة المغرب أسست إدارة الحماية مصلحة لمكافحة حمى المستنقعات منذ سنة 1919، واتجه الأطباء العاملون بهذه المصلحة إلى المناطق المصابة، لتسجيل الحالات وضبط تطوراته، وحين لاحظوا ارتفاع المرض في المناطق التي تتخللها برك ومستنقعات، اهتدوا إلى استئصال الداء عن طريق مسبباته، فبدؤوا بتجفيف المياه الراكدة وصرف العادمة منها،[4] أما البحيرات فقد رشت مياهها بالوسائل التي من شأنها القضاء على البعوض وديدانه من قبيل الكريزيل، البترول، "فليطوكس"، مسحوقات زرنجية،[5] وبموازاة ذلك جدّت إدارة المصلحة في حفر المراحيض، وصرف المياه الآسنة المجاورة للمساكن، وسكب زيت الفحم الحجري الثقيل في الخزانات وقنوات الواد الحار.[6] ومن جانب آخر شجعت إدارة المصلحة الساكنة القريبة من المستنقعات، أو التي ينشط فيها المرض، على تربية الأرانب وخاصة الإناث منها، لأن دمها هو المفضل والأشهى عند البعوض الناقل للعدوى، وهذه التجربة نجحت في التقليل من الإصابات بحمى المستنقعات بأوروبا، كما استجلبت من جزيرة "الكرس" بإيطاليا نحو عشرين من حيتان تدعى "كامبوزيا هلبروكي" المعروفة باقتياتها على ديدان البعوض، وبفضل تكاثرها السريع أصبحت هذه الحيتان من أنجع الوسائل المكافحة للبعوض الفتاك.[7]

أما العلاجات التي استعملتها إدارة الصحة لشفاء المريض والقضاء على الداء، فكانت تتم إما عن طريق اللقاحات، أو من خلال تناول عقار "الكينا"، وفي هذا الصدد تمكن "سيكوط" (Sicault) من وضع وصفة علاجية لهذا الداء منذ سنة 1934م، وذلك من خلال إجراء اللقاحات اللازمة، وأخذ "الكنين" ومشروب "الأتبرين" ثم "البلازموسين"، هذه الوصفة الناجعة كانت تمكن المصاب من استعادة عافيته بعد خمسة أيام، كما تحميه لمدة طويلة من المرض.[8] أما عقار "الكينا"

---

[1] - عياش (ألبير)، ***المغرب والإستعمارحصيلة السيطرة الفرنسية***، ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين السعودي، مواجعة وتقديم إدريس بنسعيد وعبد الأحد السبتي، دار الخطابي، الدار البيضاء، 1985، ص. 346 .

[2] - جريدة السعادة، ***كشف الطبيب بلان مصلا و اقيا من داء التيفوس***، العدد 4061، السبت 16 دجنبر 1933.

[3] - بنعدادة (أسيا)، ***السياسة الاستعمارية الطبية في النظام التعليمي المغربي***، مطبعة عكاظ، الرباط 2011، ص. 267.

[4] -عياش(ألبير) ، ***المغرب والاستعمار*** ...، م. س، ص. 346 .

[5] - جريدة السعادة، ***مكافحة حمى المستنقعات***، العدد 3367، السبت 16 مارس 1929، ص. 1-2.

[6] - ريفي (دانييل)، "***الطب الإستعماري أداة استبدادية متسامحة لمراقبة السكان***" ، تعريب عزيز هيشوروعبد القادر مومن ، مجلة أمل، العدد السادس، 1995 ، ص. 119.

[7] - جريدة السعادة، ***مكافحة حمى المستنقعات***، العدد 3367، السبت 16 مارس 1929، م.س، ص ص. 1-2.

[8] - لكريط (عبد الرزاق)، ***المغرب والجنرال نوجس على عهد الحماية 1936-1943***، بحث لنيل الدكتوراه في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز، جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس، 2003- 2004، ص. 463 .

فكان المصاب يتناوله بقدر لا يتعدى العشرين سنتغراما قبل كل وجبة،[1] غير أن رفض الكثير من الأهالي الاستطباب بالأدوية الفرنسية، كان يعقد المأمورية، ويؤجل من استئصال شأفة هذا المرض كليا.

وأمام تكاثر أعداد مرضى الزهري المتقاطرين على المستشفى، ارتأت إدارة الصحة العمومية فتح مستوصفات قريبة من الأحياء المكتظة لمكافحته، ومدها بكل الأدوات اللازمة للعلاج، حيث تم تأمين دواء "الأرسينونيزول" الذي يبيض القروح، وحقنة "النوفرسينوبتزول" التي كانت تحد من تطور الداء،[2] وحقنة البنسينين التي قضت على المكروب المسبب للداء، فبعدما كان المرض يستغرق علاجه ما بين خمسة أشهر وعشرة، غدا بفضل "البنسينين" لا يتعدى علاجه الأسبوع الواحد،[3] وبالموازاة مع ذلك قامت سلطات الحماية بتنظيم العهارة باعتبارها مصدر الداء، حيث أفردت أحياء خاصة لها، وألزمت المومسات على الفحص اليومي للتأكد من خلو الأمراض الجنسية منهن.[4] كما نشطت إدارة الصحة العمومية في التحسيس بخطورة الداء، وذلك عبر حملات التوعية أواخر عهد الحماية، بهدف التقليص من عدد المصابين.[5] ورغم كل المجهودات التي قدمتها إدارة الحماية في محاربة المرض، فإنها ظلت عاجزة عن استئصال أسبابه ومسبباته.

وللحد من تفاقم داء الجذام، استعمل الطب الفرنسي بعض الأدوية المعروفة في المصنفات الطبية العربية-الإسلامية من قبيل "العشبة الرومية" التي عالج بها الدكتور"روليي" (Rollier) بعض الجذامى، ونجح في القضاء على المرض. إلى جانب ذلك عالج الأطباء الداء بمركبات "السلفون" (Les sylfones) التي يرمز إليها ب (D.D.S). كما استخدمت مادة (IBI) في العلاج، وحقن زيت "Chaulmoogra".[6]

ولم تألُ إدارة الصحة العمومية جهدا في القضاء على داء السل، إذ استهلت إجراءها الوقائي في هذا الصدد، بتأسيس مصلحة الاحتراز من داء السل، التي عملت بتنسيق مع عصبة مكافحة داء السل،[7] على إنشاء مراكز لإيواء المصابين في كل مدينة، وفي الوقت ذاته نصبت مخيمات للوقاية من الداء[8] عبر وسيلتين أساسيتين، وسيلة طبية وتجلت في تلقيح العليل بمصلين، مصل (B.C.G)[9] المكتشف من قبل العالمين الفرنسيين "كالسيت"(Calssit)[10] و"كيران"(kirane)، ومن خصائصه أنه يحرك في جسم المصاب قوى الدفاع الطبيعية، ما يحول دون انتشار المرض، ومصل "مستروبنوميسين" الذي ظل استعماله ضعيفا بسبب تكلفة ثمنه.[11] أما الوسيلة التضامنية والتحسيسية، فجاءت في إطار العمل على تأمين الموارد المالية الضرورية، لتوفير كل الأمصال اللازمة للمصابين، وهذا ما جعل إدارة الصحة العمومية تشرف على حملات تضامنية، تجلّت في بيع الطوابع البريدية، للتحسيس بخطورة الداء من جهة، وتأمين

---

[1] - المرجع نفسه.

[2] - رويان (بوجمعة)، ***الطاعون والزهري بالمغرب***، م.س، ص ص. 215 -216 .

[3] جريدة السعادة، ***القضاء على أدواء ثلاثة : الملاريا والسل والأمراض التناسلية***، العدد 7288، الإثنين 21 يونيو 1948، ص. 1 .

[4] - رويان (بوجمعة)، ***الطاعون والزهري بالمغرب***، م.س، ص. 209

[5] - المكاوي(أحمد)، ***الدور الاحترافي*** ...، م. س، ص ص. 122- 123

[6] - رويان (بوجمعة)، «***الجذام***»، معلمة المغرب، ج9، م.س، ص ص. 2939-2938.

[7] - رويان (بوجمعة)، ***الطب الاستعماري***...، م.س، ص. 326 .

[8] - جريدة السعادة، ***اتجاه جديد لمحاربة السل في المغرب***، العدد 7168، الاثنين 26 يناير 1948، ص. 3.

[9] - عياش(ألبير)، ***المغرب والاستعمار***...، م.س، ص. 349.

[10] - جريدة السعادة، ***لمكافحة داء السل***، العدد 3615، الخميس 30 نونبر 1930، ص. 1-2.

[11] - جريدة السعادة، ***القضاء على***...، العدد 7288، الاثنين 21 نونبر1948، م.س، ص.1.

احتياجاتها المالية لمكافحته من جهة أخرى، حيث كانت تخصص نسبة 90 % للجنة مكافحة داء السل، من مبيعات الطوابع البريدية.[1]

وقد كانت حملة التلقيح ضد السل بواسطة (B.C.G)، التي نظمتها في المغرب المنظمة الطبية الدولية، بمساعدة مديرية الصحة، مناسبة لتقدير مدى امتداد هذا المرض،[2] وفي هذا الصدد كتب الدكتور "هوول" (Haulle) قائلا:"**إن المعلومات التي جمعناها على امتداد الحملة، تؤكد الملاحظات السابقة التي اعتبرت أن الظروف الاجتماعية تحدد كثرة العدوى أكثر من العوامل الجغرافية، فالعوامل الأكثر أهمية هي اختلاط السكنى، ودور الاتصال الكثيف والطويل والإملاق، كما هي كذلك الهجرات البشرية التي تقود إلى تدفق السكان القرويين على المدن وإلى حدوث مبادلات بين المدن المصابة والمناطق القروية السليمة**."[3]

صفوة القول: وجد المغرب حتى قبل عهد الحماية، نهشا لأخطر الأمراض والأوبئة جرّاء انعدام الإمكانيات المتطورة لمواجهتها ومكافحة مسبباتها، فالساكنة كانت مؤمنة بقدرها وقضاء الأمراض فيها، من قبيل أمراض التيفوس، وحمى المستنقعات، والطاعون، وأمراض العيون، والأمراض الجنسية، والسل الرئوي...، التي أسهمت مجموعة من العوامل في ظهورها بين الفينة والأخرى، ولعل عاملي حالة المساكن وغياب النظافة، كانا من أبرز عوامل انتشار الأمراض واستبداد الأوبئة، فضيق مساحة النوالات في القرى والمساكن في المدن، وضعف التهوية والتشميس، واكتظاظ ساكنتها، وتساكن الإنسان مع الحيوان، مشارب عززت من بعث وإحياء الأمراض وسهلت من امتدادها، إذ كان المنزل الواحد يأوي أسرتين أو ثلاث، أما النوالات فكانت تحتضن أكثرمن ذلك بكثير، مع أثاث متآكل قديم شكل أوكارا مواتية لتعشيش القمل والبراغيث وتكاثرها، بينما خلف غياب قنوات الصرف الصحي، والمراحيض، ومواضع محددة لرمي القمامة، وتلوث الآبار...، ظروفا مناسبة لتضاعف أعداد الذباب والبعوض والقوارض...، فكانت وسائط ملائمة لتفشي الأمراض والأوبئة، وقد واكب ذلك تغذية روتينية اعتمدت على الخبز والشاي ومياه أغلبها غير صالحة للشرب.[4]

وعلى العموم، فقد كانت المغرب إبان الفترة المدروسة على موعد مع إرساء قواعد وأشكال طبية حديثة، ساعدت في الحد من سيل الموتى الذي كانت تحدثه بين الوقت والآخر "تسونامي" وبائية أو مرضية، وإذا كانت إدارة الصحة العمومية لم تنجح بالشكل المطلوب في القضاء على الجوائح الصحية التي كانت تنخر المجتمع المغربي، فإنها على الأقل أسست لممارسة طبية جديدة اعتمدت على المنطق العلمي في التعاطي مع المرض، وذلك عبر وسائط وميكانيزمات طبية حديثة، خلخلت بشكل أو بآخر ثقافة المرض عند المغربي، الذي صار مشدودا إلى التداوي بالجديد على حساب التليد دون القطع معه.

❖ البيبليوغرافيا المعتمدة:

مراجع العربية:

- ✓ بلحاج نادية، **التطبيب والسحر في المغرب**، طبعة الاولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1986
- ✓ بنعدادة أسيا، **السياسة الاستعمارية الطبية في النظام التعليمي المغربي**، مطبعة عكاظ، الرباط ،2011
- ✓ جادور محمد، **الطب المغربي في نهاية القرن التاسع عشر عبد السلام العلمي نموذج/**، منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، مطبعة عكاظ، الرباط،2011

---

[1] - السعادة، ***لمكافحة***...، العدد 3615، الخميس 30 نونبر 1930، م.س، ص ص. 1-2.

[2] - عياش(ألبير)، ***المغرب والاستعمار***...، م.س، ص. 349.

[3] - المرجع نفسه، ص. 349.

[4] - Delanoë (E), ***Trente années***..., op.cit., pp. 18-30

- ✓ جريدة السعادة، **نظام إدارة الصحة العمومية والمقاصد المقصود في تأسيسه**، العدد 1754، الاثنين 1 يونيو 1918
- ✓ جريدة السعادة، **نظام إدارة الصحة العمومية والمقاصد المقصود في تأسيسها**، العدد 1755، الأربعاء 3 يونيو 1918،
- ✓ جريدة السعادة، **الاهتمام بصحة الأطفال**، العدد 2737، السبت 22 نونبر 1924م
- ✓ جريدة السعادة، **كشف الطبيب بلان مصلا و اقيا من داء التيفوس**، العدد 4061، السبت 16 دجنبر 1933.
- ✓ جريدة السعادة، **مكافحة حمى المستنقعات**، العدد 3367، السبت 16 مارس 1929
- ✓ جريدة السعادة، **القضاء على أدواء ثلاثة : الملاريا والسل والأمراض التناسلية**، العدد 7288، الإثنين 21 يونيو 1948.
- ✓ جريدة السعادة، **اتجاه جديد لمحاربة السل في المغرب**، العدد 7168، الاثنين 26 يناير 1948
- ✓ جريدة السعادة، **انتخاب المجلس الإداري لهيئة نقطة حليب**، العدد 7175، الثلاثاء 3 فبراير 1948

- ✓ حسن الوزاني محمد، **مذكرات حياة وجهاد**، الجزء 1، *مؤسسة جواد للطباعة والتصوير، الرباط، 1985*
- ✓ دوتي إدمون، **مراكش**، ترجمة عبد الرحيم حزل، منشورات مداهي حسن، ***محاولة تحليل السياسة الصحية في المغرب***، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة في القانون العام، شعبة علم السياسة والقانون الدستوري، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماع أكدال، جامعة محمد الخامس الرباط،2001
- ✓ ريفي دانييل، "***الطب الإستعماري أداة استبدادية متسامحة لمراقبة السكان***"، تعريب عزيز هيشور وعبد القادر مومن ، مجلة أمل، العددرويان بوجمعة، **الطب التقليدي بالمغرب**، معلمة المغرب، الجزءالسابع عشر، مطابع سلا، سلا، 1998.
- ✓ ***رويان بوجمعة الطب العام في المغرب***"، معلمة المغرب، الجزءالسابع عشر، مطابع سلا، سلا، 1998.
- ✓ رويان بوجمعة ،**الطب الاستعماري الفرنسي في المغرب 1912-1945**، الجزء الأول، بحث لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكدال الرباط، 2003-2004.، ص ص. 290-291. 2001.

- ✓ رويان بوجمعة ، **الجذام**، معلمة المغرب، الجزء التاسع، مطابع سلا، سلا، 1998.
- ✓ رويان بوجمعة ، **الطاعون والزهري بالمغرب خلال عهد الحماية 1912-1937، منشورات مؤسسة عبد العزيز أل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الانسانية، مطبعة عكاظ، الدار البيضاء، 2001.**
- ✓ عسة أحمد، **المعجزة المغربية**، الطبعة1، دار القلم للطباعة، بيروت، 1975.
- ✓ عياش ألبير، **المغرب والإستعمارحصيلة السيطرة الفرنسية**، ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين السعودي، مواجعة وتقديم إدريس بنسعيد وعبد الأحد السبتي، دار الخطابي، الدار البيضاء، 1985
- ✓ الفينة نبيلة، **التنظيم الإداري والتشريعي لقطاع الصحة بالمغرب في الفترة الاستعمارية**، منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، مطبعة عكاظ ، 2011، ص. 233.
- ✓ المكاوي أحمد، **الدور الاختراقي والاستعماري للطبابة الأوروبية في المغرب**، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ،2009
- ✓ السعيدي (خديجة) و المالكي (الملكي)،"***وثائق غير منشورة عن عهد الحماية***"، مجلة تاريخ المغرب، العدد ماي 1999.

Références

- ✓ Aissa (Abdelmoumine, **La santé publique au Maroc à l'époque coloniale (1907-1986*),*** thèse de doctorat en histoire, Université Paris, le Pant néo Sorbonne, 1997.
- ✓ Akhmisse Mustapha, **Histoire de la médecine au Maroc des origines à l'avénement du protectorat** , Imprimerie Najah El Jadida, Casablanca, 1995.
- ✓ Anonyme, Archive national de Rabat , Carton n°117 ; ***apoétique des eaux de Moulay Yacoub utilisées en injection intraveineuses ou intra- musculaires*** » Avril 1947 .
- ✓ Anonyme, Archive national de Rabat , Carton n°110, ***Instruction pour monsieur le colonel Mangin***.
- ✓ Anonyme, Le Maroc Médical, ***« Lyautey et le Médecin »,*** Novembre 1954.
- ✓ Anonyme,Bulletin officielle, n°1, 1 Novembre 1912
- ✓ Anonyme,Le Maroc- médicale, « ***Statistique de Moulay Yacoub: 12 ans de consultation thermale »*** , Janvier – Février 1947
- ✓ Anonyme, Archive national de Rabat , Carton n°P 74, ***l'hopital indigène***.
- ✓ Anonyme, Bulletin officielle, n°4, 23 Novembre 1912. Delanoë (E), ***Trente années d'activité médicale et sociale au Maroc***, ed Maloine, Paris, 1949. Jmahri Mustapha, « ***La communauté juive de la ville d'El Jadida »,les cahiers d'El Jadida*** 1ère édition, Mars 2OO5 .
- ✓ Khayati Smail, **Développement agricole et aménagement de l'espace rural dans le périmètre irrigué des Doukkala**, tom I, thèse de Doctorat D'état, option Géographie humaine Faculté des lettres des sciences Humaines, Université Chouaib Doukkali El Jadida, 2001-2OO2.
- ✓ Mathieu (J), «***Notes sur les pratiques médicales»***, Maroc- médical, n°77, Mai 1928.
- ✓ Odinot Paul, ***Le Maroc au temps des sultans***, ed Ballard, Paris, 1993, p. 310.
- ✓ Raynaud (L), ***Etude sur l'hygiène et la médecine au Maroc***, Imprimerie typographique lithographique, Léon,1902. pp. 128-129 .
- ✓ Sicoult(Micouleau) et autres, ***Les médecins français au Maroc combats en urgences* (1912-1956)**, l'Harmattan, Paris, 2000.
- ✓ Woytl. Gisclard (Alix), ***L'assistance aux indigènes musulmans au Maroc***, ed Recueil Sirey, Paris, 1936.

موقف العلماء المغاربة من الحجر الصحي (الكرانتينة)في القرن التاسع عشر

The position of Moroccan scholars on the quarantine (Krantina) in the nineteenth century

1دربال سعيد، 2حصاد عبد الصمد

DERBAL SAID , HASSAD ABDESSAMED

1طالب دكتوراه، جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله، الجزائر/ الجزائر.

2طالب دكتوراه. جامعة يحي فارس. المدية/الجزائر.

الملخص:

سجل لنا التاريخ في مراحله المختلفة في الوطن العربي العديد من الكوارث الطبيعية و الصحية، و التي كان لها الأثر الكبير في حياة الأمم و الشعوب على السواء مثل المجاعات و الأوبئة، هذه الأخيرة التي كانت عند حلولها تحصد الالاف من الارواح، و تدمر الحواضر، و تشرد السكان، و لايمكننا إستثناء الدول المغاربية من هذا العقد، فقد شهدت هذه المنطقة خلال القرن 19 ميلادي العديد من الاوبئة و الطواعين التي حاولت السلطات بتأسيس منظومة صحية لمجابهتها ،في حين كانت أوربا قد ابتكرت منذ قرنين ما يسمى بالحجر الصحي (الكرنتينة)، و التي هي مكان يعزل فيه المرضى و المسافرون القادمون من الاراضي الموبوءة مدة من الزمن تقدر باربعين يوما، او اقل للتحقق من عدم الاصابة بالعدوى، و التي جاءت بنتائج حدت و قللت من اثر الوباء، لكن هذه الكرنتينة اثارت في المنطقة العربية و المغاربية في ذاك الوقت سجال فقهيا كبيرا بين العلماء انتج لنا تراثا علميا (كتب، و رسائل، و ردود) تبين موقفين مختلفين ،متضادين . بين الاباحة و الحظر.

الكلمات المفتاحية: الكرانتينة- بلدان المغرب- علماء- القرن 19م- فتاوى.

Abstract:

History in its various stages in the Arab world has recorded for us many natural and health disasters that had a great impact on the lives of nations and peoples alike, such as famines and epidemics. The latter, when it arrived, claimed thousands of lives, destroyed cities, and displaced the population. We cannot exclude the Maghreb countries from this decade. During the nineteenth century AD, this region witnessed many epidemics and plagues that the authorities tried to establish a health system to confront, while Europe had invented, two centuries ago, the so-called quarantine (Carnitina), which is A place where patients and travelers coming from affected lands are isolated for a period of time estimated at forty days, or less, to verify that they have not contracted the infection, which came with results that limited and reduced the impact of the epidemic. But this quarantine provoked in the Arab and Maghreb region at that time a great jurisprudential debate between scholars that produced for us a scientific heritage (books, letters, and responses) showing two different, opposing positions. between permissibility and prohibition.

Key words:

Karantina - Maghreb countries - scholars - 19th century AD - fatwas.

مقدمة:

تعد الكرانتينة او ما يعرف حاليا بالحجر الصحي الذي أحدثه الغرب من المسائل المستحدثة على المسلمين ، مما أوجب على العلماء المسلمين ضرورة الإدلاء بأرائهم و إصدار فتاويهم و بيان موقفهم منها، و هذا الأمر أحدث سجالا فقهيا كبيرا في البلاد المغاربية في القرن التاسع عشر ميلادي كان له صدى واسعا على كل المنطقة، و الذي أفرز موقفين متضادين الموقف الأول يجيز الاخذ بالكرنتينة ، و الموقف الثاني يمنع أداء الكرنتينة، و كذلك أقر بحظر العمل بها لأنها من البدع المستحدثة في الدين الإسلامي و هي من عمل الكفار الإفرنجيين . و قد استدل كل فريق على موقفه بمجموعة من النصوص من الكتاب و السنة و كذلك إستدلوا بأقوال الصحابة و الفقهاء .

فمن هم أصحاب هذين الموقفين في بلاد المغارب؟ و ما هي أدلتهم في ذلك؟

01- تعريف الكر انتينة أو الحجر الصحي:

عرفها حمدان خوجة: بأنها مكان أعد للإحتماء و الإحتراز من الوباء، و جعلوا ذلك المحل في مدخل الداخلين اليهم، فيمكث الداخلون بتلك الاماكن المخصصة لهم ، مهما توهم الفرنج أنهم أتوا من بلاد بها الوباء، الى أن يتحققوا إنقطاع أثرها عنهم[1].

الكرانتينة كلمة أصلها لاتيني مشتقة من اللغة الاسبانية، و تعني مدة أربعين يوما ، و هي مدة الحجر الصحي، أي النظام الوقائي الذي إتبعته الدول الاوروبية في حال إنتشار الأوبئة.

و المقصود بالكرانتينة أيضا تحديد إقامة الوافدين الجدد في مكان معين و معروف، و مخصص لهذا الإجراء لمدة أربعين يوما ، لايخرج منه و لا يدخل إليه أحد، و هو إجراء إحترازي لتوخي دخول الوباء الى البلاد، و يقول آخرين أن الكرانتينة أصلها ايطالي ظهرت منذ بداية عهد محمد علي، و عناها الحجر الصحي[2].

02- موقف العلماء المانعين للكر انتينة:

موقف ابو القاسم الزياني:

لعل أول المصادر التي بين أيدينا و التي تبين رأي علماء بلدان المغرب في هذه المسألة، هو كتاب أبو القاسم الزياني المغربي في رحلته الأخيرة التي تنقل فيها من أزمير (تركيا) الى مدينة تونس أواخر القرن الثامن عشر 1791م و التي أبان عن رأيه في هذه المسألة – إذ هو من الفقهاء - .

- ترجمة ابو القاسم الزياني:

أبو القاسم بن أحمد بن محمد بن علي الزياني، نسبة الى قبيلة زيان الصنهاجية. ولد بفاس سنة 1147هـ/1734م تلقى تعليمه في جامع القرويين و غيره على يد محمد بن حسن البناني، و محمد بن الطيب القادري، و احمد بن الطاهر الشرقي، و غيرهم. اتصل بالبلاط الملكي سنة 1169هـ/1785م، و خدم فترة طويلة سلاطين المغرب، كما أنه قد كلف

[1] حمدان خواجة،1968، **إتحاف المنصفين و الأدباء في الاحتراس عن الوباء**، تحقيق: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر،ص 79.

[2] نجاة زروق، هيبة كنيوة، 2021، اعمال المؤتمر الدولي، الاوبئة عبر التاريخ، " **الكر انتينة من خلال كتاب اتحاف المنصفين و الادباء**"، ص 72.

بالكتابة، و بعدة قضايا مع القبائل، و أسندت إليه سفارات ...و رغم ذلك فقد تعرض للسجن، و العزل، و المصادرة و كان آخرها في عهد المولاي سليمان. هذا مادفعه الى الإعتزال و التفرغ للتأليف. توفي بفاس سنة 1249هـ/1833م.

ترك الزياني العديد من المؤلفات ذكر أنها تبلغ العشرين منها:

- الترجمان المغرب عن دول المشرق و المغرب- البستان الظريف في دولة أولاد مولانا الشريف- الترجمانة الكبرى في اخبار المعمورة برا و بحرا (رحلته) : و هي مجموع رحلاته الثلاث ، تتضمن اخبارا شخصية، تاريخية، جغرافية...[1]

- قوله في المسألة

يذكر الزياني في رحلته انه لما قدم الى مرسى حلق الوادي بتونس الخضرا، مع جماعة من الحجاج ،ناداهم منادي، و أمرهم بالإبتعاد عن البر ، لأنكم تحملون الوباء معكم، و الشر ، فرجعوا و أمروا بالنزول بقلعة تكلي التي كانت مكان مخصص للكرانتينة " الشنعاء، الممنوعة عرفا و شرعا ، و بقوا بها عشرين يوما على الكمال [2].

ويؤكد الزياني أن هذا الوباء حملوه معهم عند عودتهم من مدينة أزمير التركية التي كان بها الوباء، أنزلوهم بقلعة تيكلي – و هي جزيرة صغيرة وسط البحر- بقصد **بدعة الكرنطينة التي جعلوها دفعا للوباء قبح الله مبتدعها**"[3].

فهو يرى مثل فقهاء المالكية أن هذه الكرانتينة بدعة الشنعاء في الدين،و حتى مرفوضة عرفا، فالزياني بوصفه الكرنتينة بالبدعة شرعا، و عرفا قد أوجز في حكمه و فصل بعدم الأخذ به .

بل نظم الزياني قصيدة في الكرنطينة أتبث رأيه فيها، و صب جام غضبه على من استحدثها في تونس:[4]

من كان يسعى لخلق الله في الضرر * و يظهر الخير و الإحسان بالكذب

و من كان يفعل السوء عادته * يعامل الناس كابن عياد رجب

ذاك الذي قد طغى و اخترع البدعا * بشره بالهم و الإدبار و الكرب

يلقى ابا لهب في شرر لهب * و زوجه مثل حمالة الحطب

حاشى لمثله ان يعزى له كرم * او حسب او وفا ينسب للعرب

سن "الكرنطينة" الشنعا ببدعته * في بلدة هي دار العلم و الأدب

يحسبها بصميم الجهل منجية * يقي بها النفس من سقم و عطب

الى ان يقول:

آه على تونس الخضرا يسود بها * معتزلي بلا دين و لا حسب

يدس في الدين أشياء محرمة * فقلما يسلم الجربى من الجرب

---

[1] ناصر الدين سعيدوني، 1999،**من التراث التاريخي و الجغرافي للغرب الإسلامي**، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص 476.

[2] ابو القاسم الزياني،1991، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برا و بحرا**، تحقيق: عبد الكريم الفيلالي، دار نشر المعرفة، الرباط، ص363.

[3] الزياني،نفس المصدر، ص 282.

[4] الزياني، المصدر السابق، ص364.

عادة أسلافه أكل الكلاب و ذا * رخص في الخمر و الأزلام و النصب

ظن الخبيث بأن الموت يفلته * و ما درى أنه خلفه في الطلب

الموت ختم فلا عنه محيد و لا * يدفع بالفضة البيضاء و الذهب

ملكت نفسك اذ غدوت تحرسها * من الوباء و أمر الله مقترب

موقف محمد بن سليمان المناعي المالكي التونسي:

لم يكن الزياني وحده الذي رفض العمل بالكرانتينة، و أفتى بعدم جوازها بل نجد علماء تونس الذين تصدوا لهذه المسألة و على رأسهم الشيخ محمد المناعي الذي درات بينه و بين محمد بيرم الثاني محاورة في المسألة و كان ينزع الى الحظر و عدم الجواز .

- ترجمة محمد بن سليمان المناعي:

هو أبو عبد الله محمد بن سليمان المناعي العالم المتبحر في الفقه و أصوله، أخذ عن الشيخ صالح الكواش و الشيخ اسماعيل التميمي، و الشيخ حسن الشريف و غيرهم، رحل الى فاس و اخذ عن الشيخ التاودي و الشيخ احمد التيجاني، و أخذ عنه جماعة منهم إبن أبي الضيا ، و الشيخ محمد النيفر .

له رسالة في الوباء سماها تحفة الموقنين، ووقعت بينه و بين مفتي الأنام شيخ الإسلام الثالث محمد بيرم في شأن الكرنتينة، فصاحب الترجمة – المناعي- يقول بالمنع، و شيخ الإسلام يقول بالإباحة، و ألف كل منهما رسالة في الاستدلال على رأيه بالنصوص الفقهية، و سيأتي مزيد بسط في المسألة في التتمة، توفي المناعي سنة 1247ه/32- 1831م[1].

من مؤلفاته:

- تحفة الموقنين و مرشدة الضالين، رسالة في الوباء ألفها بطلب من مخدومه حسين باي، و قال ابن أبي الضياف : ومن طالعها علم مقداره".

- رسالة في بسط الأرض و عدم كرويتها، ألفها على أثر محاورة بينه و بين شيخ الإسلام محمد بيرم الثالث، و لهذا الأخير رسالة في إثبات كروية الأرض .

- رسالة في المنع من الكرنتينة (الحجر الصحي)، ألفها على إثر محاورة بينه و بين الشيخ محمد بيرم الثالث ، و لهذا الأخير رسالة في هذا الحوار أثبت فيها العدوى و صحة الأخذ بالكرنتينة[2].

أظن أن الرسالة الأولى تحفة الموقنين هي نفسها الرسالة الأخيرة في المنع من الكرنتينة كما قال الشيخ مخلوف في الشجرة الزكية، بل إبن أبي الضياف قال رسالة في الوباء و لم يسمها[3].

---

[1] محمد بن محمد مخلوف، (د.ت)،**شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، دار الفكر للطباعة و النشر، بيروت، ص370.

* أحمد بن أبي الضياف، 1999، **إتحاف أهل الزمان بإخبار ملوك تونس في عهد الأمان**، تحقيق:لجنة من وزارة الشؤون الثقافية،الدار العربية للكتاب، تونس، ج7 ، ص 164.

[2] محمد محفوظ، 1985، **تراجم المؤلفين التونسيين**، ط1،دار الغرب الاسلامي، بيروت،ج4،ص 394.

[3] صاحب المداخلة

وقعت محاورة بين الشيخ ابي عبد الله محمد المناعي و شيخ الإسلام العلامة محمد بيرم الثاني[1]في شأن الكرنتينة، فمحمد بيرم يقول بالجواز، و المناعي يقول بالمنع، و ألف كل واحد منهما رسالة حافلة في الإستدلال على رأيه بالنصوص الفقهية.

يقول صاحب شجرة النور الزكية في المسالة التي دارت بين المناعي و بيرم : الحاصل في ذلك أن العلماء إفترقوا في هذا الطاعون الى قسمين:

قسم يرى الإحتفاظ و عدم الخلطة و ربما ساعده بعض ظواهر الشرع العزيز منها " فر من المجذوم فرارك من الاسد" مع دليل التجربة، فإن غالب من تحفظ حفظه الله مع إعتقاد أن المؤثر هو الفاعل المختار ، و كان هذا ينظر الى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه و إلى هذا مال شيخ الإسلام.

وقسم لايرى هذا الإحتفاظ و ربما ساعده بعض ظواهر الشرع العزيز كقوله " لا عدوى" و يرى التسليم لما جاء في القدر، و من القدر لا يغني الحذر، و هذا رأي سيدنا أبي عبيدة رضي الله عنه و إليه مال المناعي [2].

و قد أثارت هذه المحاورة ردود فعل لدى علماء آخرين نذكر منهم رفاعة رافع الطهطاوي المصري[3] في كتابه تخليص الإبريز في تلخيص باريز 1826م الذي يذكر أنه عندما وصل الى مرسيليا أنزلوهم في الكرنتينة على عادتهم، و لنذكر هنا ما قيل في الكرنتينة بين علماء المغرب ...و ذكر محاورة المناعي و بيرم التونسيين في المسألة [4].

موقف الناصري من الكر انتينة من خلال كتابه الاستقصا:

أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي، ولد بسلا نهاية 1250هـ/1834م ينسب الى إبن ناصر الدرعي مؤسس الزاوية الناصرية بتمكروت، درس بمسقط رأسه على جلة من المشايخ، الحاج محمد لعلى السلاوي ، و محمد بن الجلالي الحمادي، و عبد السلام بن طلحة، و غيرهم، و قد وسع معارفه بمطالعة الكتب و الجرائد، كما أنه إشتغل بالتدريس، و كذلك تولى عدة مناصب حكومية، و بعد سنة 1895م تفرغ للمطالعة و التاليف، و تجنب الخوض في الأمور السياسية، توفي بسلا سنة 1315هـ/ 1897م، و ترك عدة مؤلفات منها :

رسائل و تقاييد عدة في مسائل مختلفة – تعاليق و شروح و حواشي- فتاوي و نصائح و أشعار- كما ان ابو العباس اشتهر بكتابه في التاريخ المعروف بكتاب "الاستقصا في اخبار دول المغرب الاقصى الذي بدأ تأليفه سنة 1397هـ و انتهى منه سنة 1881م و به اشتهر و عد في مقدمة مؤرخي المغرب في القرن التاسع عشر[5].

ويظهر موقف الناصري من خلال نص أورده في كتابه الاستقصا، ينبه فيه على أمرين خاصين بالوباء و ما يتعلق به من الاحتراز:

---

[1] مرة يقول صاحب شجرة النور الثالث و مرة الثاني.

[2] محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، ص169 التتمة.

[3] رفاعة رافع الطهطاوي: عالم مصري ، من أركان النهضة العلمية في العصر الحديث، ولد في طهطا سنة 1801م، قصد القاهرة فتعلم في الازهر. أرسلته الحكومة المصرية اماما مع البعثة الى اوروبا لتلقي العلوم الحديثة، درس الفرنسية.لمل عاد الى مصر أنشأجريدة الوقائع المصرية، ألف و ترجم العديد من الكتب، توفي بالقهرة سن 1873م **(الاعلام: ج3 للزركلي، ص،29)**

[4] رفاعة رافع الطهطاوي،2007، **تخليص الابريز في تلخيص باريز**، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية،الجزائر،ص 59.

[5] ناصر الدين سعيدوني،1999، **من التراث التاريخي و الجغرافي للغرب الاسلامي**، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت،ص 559.

الاول:

إذن المنصور لولده أبي فارس في الخروج من مراكش إذا ظهر بها أثر الوباء و لو شيئا يسيرا و هذا الأمر محظور في الشرع كما هو معلوم مصرح به في الاحاديث.

الثاني:

أمره إياه ان لا يقرأ البطائق الواردة عليه من السوس[1] و أنما يتولى قراءتها كاتبه بعد أن تغمس في الخل و هذا عمل من أعمال الفرنج و من يسلك طريقهم في تحفظهم من الوباء المسمى عندهم بالكرنتينة، و قد إتفق لي فيها كلام أذكره هنا تتميما للفائدة، و ذلك أنه لما كانت سنة ست و تسعين و مائتين و ألف عرض لنا سفر الى حضرة السلطان المولى أبي علي الحسن بن محمد الشريف[2] أيده الله عز وجل بمراكش المحروسة بالله فخرجنا من سلا أواخر ربيع الأول من السنة المذكورة، و مررنا في طريقنا على المحب القائد الأنبل أبي عبد الله محمد بن إدريس الجراري بثغر الجديدة و هو يومئذ متول لعملها فأجل قدومنا على عادته، حفظه الله في محبة العلم و من ينتمي إليه و حضر معنا عنده بعض من فقهاء الوقت، و كانت السنة سنة وباء فجرت المذاكرة فيما يستعمله النصارى في أمر الكرنتينة من حبس المسافرين و شذاذ الآفاق عن المرور بالسبل و الدخول الى الأمصار و القرى، و منع الناس من مرافقهم و أسباب معاشهم و حصل التوقف تلك الساعة في حكمها الشرعي، ماذا يكون لو أجريت على قواعد الفقه.

ثم بعد ثلاثة أشهر وقفت على رحلة العلامة الشيخ رفاعة الطهطاوي المصري في أخبار باريز فرأيته ذكر في صدره أنه وقعت المحاورة بين العلامة الشيخ أبي عبد الله محمد المناعي التونسي المالكي المدرس بجامع الزيتونة، و مفتي الحنفية بها العلامة الشيخ أبي عبد الله محمد البيرم في إباحة الكرنتينة و حظرها، فقال المالكي بحرمتها و ألف في ذلك رسالة و إعتمد في الإستدلال فيها على أن الكرنتينة من جملة الفرار من القضاء، و قال الحنفي بإباحتها و استدل على ذلك من الكتاب و السنة أيضا.

فلما وقفت على هذا الكلام تجدد لي النظر في حكم هذه الكرنتينة و ظهر لي أن القول بإباحتها أو حرمتها منظور فيه الى ما إشتملت عليه من مصلحة ومفسدة و لو مرسلة على ما هو معروف من مذهب مالك رحمه الله، ثم يوازن بينهما و أيتهما رجحت على الأخرى عمل عليها فإن استوتا كان درء المفسدة مقدما على جلب المصلحة كما هو معلوم في أصول الفقه، و نحن إذا أمعنا النظر في هذه الكرنتينة وجدناها تشمل على مصلحة و على مفسدة:

أما المصلحة فهي سلامة أهل البلد المستعملين لها من ضرر الوباء و هذه المصلحة كما ترى غير محققة بل و لا مظنونة لأنه ليست السلامة مقرونة بها كما يزعمون، و أنه مهما استعملها أهل قطر أو بلد إلا و يسلمون لا دائما و لا غالبا بل الكثير أو الأكثر أنهم يستعملونها و يبالغون في إقامة قوانينها، ثم يصيبهم ما فروا منه كما هو مشاهد، و من زعم أن السلامة مقرونة بهذا دائما أو غالبا فعليه البيان إذ البينة على المدعي فنتج من هذا أن مصلحة الكرنتينة مشكوكة أو معدومة، و إذا كانت كذلك فلا يلتفت إليها شرعا بل و لا طبعا لأنها حينئذ من قبيل العبث.

و أما المفسدة فهي دنيوية ودينية، أما الدنيوية فهي الأضرار بالتجار و سائر المسافرين الى الأقطار بحبسهم و تسويقهم عن أغراضهم و تعطيل مرافقهم على أبلغ الوجوه و أقبحها كما هو معلوم، و أما الدينية فهي تشويش عقائد

[1] تقع جهة السوس وسط المغرب الأقصى و تحتل شريطا جغرافيا من المحيط الأطلسي إلى غاية الحدود الجزائرية، و تمتد الجهة على مساحة 70880 كلم2 أي ما يمثل حوالي 10 بالمئة من مساحة المغرب الأقصى
(www.marefa.org/سوس_ماسة_درعة)

[2] هو المولى علي بن الحسين بن عبد الله المعروف بالشريف و منه تفرعت فروع المحمديين، و كان مولده سنة 997هـ/ 1589م
(www.marefa.org/مولاي_علي_الشريف)

عوام المؤمنين و القدح في توكلهم و إيهام أن ذلك دافع لقضاء الله تعالى و عاصم منه و ناهيك بما بهما من مفسدتين محققتين ترتكبان لشيء يكون أو لا يكون فان العامة لقصور أفهامهم قد تذهب أوهامهم مع هذه الظواهر فيقفون معها و يقعون في ورطة ضعف الإيمان عياذا بالله فإن قلت هذا الكلام فيه ميل الى سوء الظن بالعامة و هم جمهور الأمة، ليس فيه ميل الى سوء الظن بهم و إنما فيه تقرير الخوف عليهم و الإحتياط لهم حتى لا نتركهم هملا يفعلون ما شاؤوا أو يفعل بهم ما يضرهم في دينهم و دنياهم مع أن سد الذريعة قاعدة من قواعد الشرع لاسيما في المذهب المالكي و لأمر ما جاءت الشريعة المطهرة ممتلئة من التحذيرات من مكامن هذه المفاسد و نحوها و رد الأسباب و المسببات كلها الى الله تعالى مع ما في إستعمال هذه الكرنتينة مع الإقتداء بالأعاجم و التزي بزي الكفرة الضلال و رمقهم بعين التعظيم و نسبتهم الى الإصابة و الحكمة كما قد يصرح به الحمقى من العوام فأما اذا وافق قدر بالسلامة عند إستعمالها فهي الفتنة و العياذ بالله فأي مفسدة أقبح من هذه.

فالحاصل أن الكرنتينة اشتملت على مفاسد كل منها محقق فتعين القول بحرمتها و جلب النصوص الشاهدة لذلك من الشريعة لا تعوز البصير و قد ذكر العلامة الحافظ القسطلاني في تفسير سورة النساء من الجامع الصحيح عند قوله تعالى : ﴿ **وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا**﴾[1]، ما نصه دل على وجوب الحذر من جميع المضار المظنونة، و من ثم علم أن العلاج بالدواء و الاحتراز من الوباء و التحرز عن الجلوس تحت الجدار المائل واجب، و هو يقتضي بظاهره أن الإحتراز عن الوباء واجب بأي وجه كان و لا يخفى أنه يتعين تقييده بالوجه الذي ليس فيه مفسدة شرعية كعدم القدوم على الأرض التي بها الوباء و نحو ذلك مما وردت به السنة و لا تأباه قواعده الشرعية كبعض العلاجات المستعملة في إبانة المنقولة عن أئمة الطب .ـأما بالوجه الذي يشتمل على مفسدة أو مفاسد كهذه الكرنتينة فلا ، هذا ما تحرر في هذه المسألة و الله أعلم[2].

موقف ابو محمد عبد الله بن الهاشمي ابن خضراء السلاوي:

لما وقف العلامة ابو محمد عبد الله بن الهاشمي ابن الخضراء السلاوي ، قاضي مدينة مراكش على ما كتبه الناصري وافقه و كتب اليه:

وأما حكم الكرنتينة فهو ما ذكرتم من الحظر و به أقول لما فيه من الفرار من القضاء مع المفاسد العظيمة التي لا تفي بهام صلتها على فرض تحققها أو غلبة ظن حصولها سيما و قد إنتفيا بعد التجربة المتكررة في الجهات المتعددة و لا يخالف في هذا الحكم إلا كابر متبع للهوى فماذا بعد الحق إلا الضلال، ثم جلب حفظه الله من النصوص مايشهد لذلك تركناها اختصارا و الله تعالى الموفق بمنه[3].

03-موقف العلماء المجيزين للكر انتينة:

اما الموقف الثاني و الذي أجاز فيه أصحابه العمل بالكرنتينة فهو موقف الفقهاء الحنفية في الغالب.

موقف شيخ الاسلام محمد بيرم الثاني التونسي:

و لد في ذي القعدة عام 1162هـ/ الثلاثاء 28 اكتوبر 1748م، أخذ عن جماعة : التجويد عن الشيخ محمد قربطاق، و غيره، و الفقه و الحديث عن والده، و باقي العلوم عن الشيخ الصالح الكواش، و البرانيسي، و محمد الدرناوي، أقرأ

---

[1] سورة النساء، الآية 102.

[2] أحمد بن خالد الناصري السلاوي،2015،**الاستقصاء لأخباردول المغرب الأقصى**،ط3،دار الكتب العلمية، بيروت، ج2، ص365.

[3] الناصري، نفس المصدر، ص 367.

بالمدرسة الباشية نيابة عن والده، و بالجامع الأعظم و غيرهما، و قلد القضاء سنة 1192/ 1778م، ثم عزل، ثم عاد سنة 1780/1194، و أخذ عنه إبن أبي الضياف.

من تآليفه : رسالة في بيع الوفاء، و منظومة في الهلال، و رسالة في رجوع الموصي عن وصيته...[1]

حسن النبا في جوازالتحفظ من الوباء، و قعت محاورة بينه و بين معاصره الشيخ المناعي المالكي في شأن عدوى مرض الوباء، و ما تتخذه الدول من الحجر الصحي (الكرنتينة) برا و بحر لإيقاف خطره و منع تسرب عدواه، و من رأي صاحب الترجمة صحة القول بالعدوى، و ألف هاته الرسالة في ذلك، و المحاورة أشار اليها الشيخ رفاعة الطهطاوي في صدر رحلته، و يبدو أنه ألفها على أثر الطاعون الجارف الواقع في عهد محمد علي سنة 1785/1199 و الذي دام اكثرمن عامين[2]، و توفي في 16 جمادى الاولى سنة 1247هـ/ الاحد 23 اكتوبر 1831م.

موقف حمدان خوجة من خلال كتابه إتحاف المنصفين:

حمدان بن عثمان خوجة كاتب سياسي من رواد الحركة الوطنية الجزائرية، ولد بمدينة الجزائر حولي سنة 1775م و كان ذلك على عهد الداي محمد بن عثمان، نشأ بها و تعلم على يد أبيه، ثم قام مقامه بعد وفاته، و أصبح أستاذا في الحقوق المدنية و القوانين الاسلامية، و في سنة 1784م صحب خاله في زيارة لأهم مدن البلقان و القسطنطينية و غيرها، و في سنة 1820 زار فرنسا، تقلب عدة وظائف، و بعد إحتلال فرنسا للجزائر دافع عن القضية الجزائرية، وذهب إلى باريس سنة 1833م ليكون عن كثب من مجالس الحكومة الفرنسية و المجتمعات البرلمانية مدافعا عن وطنه، غادر فرنسا سنة 1836 الى القسطنطينية، فألقى بها عصا الترحال، و سلم أمره الى الله، إشتغل بالتأليف و الترجمة و التحرير لجريدة " تقويم وقائع" الصادرة بالعربية في مطبعة العامرة الى ان توفي سنة 1255هـ/1840 م رحمه الله[3].

مؤلفاته :

كتاب " **المرآة** "،الذي ألفه سنة 1833 بعد مغادرته الجزائر الى فرنسا.

و كتاب " إتحاف المنصفين و الأدباء في الإحتراس من الوباء" : و هي رسالة في وجوب الوقاية و الإحتماء فرغ من تأليفها سنة 1252هـ/ 1837م جاء في خاتمتها :"...انتهى ماجمعه كاتب الحروف، الحقير حمدان بن المرحوم عثمان خوجة – كان الله له- عام 1252هـ ".تم بخير[4].

و الهدف من تأليف هذه الرسالة هو ما رآه حمدان خوجة من تزمت بعض فقهاء الإسلام، و نبذهم لما جاء عن الإفرنج و لو كان فيه رقي أمتهم، و إصلاحها ...و الإفراط في أمر التوكل، و المغالاة و ترك الأسباب التي حث عليها الشارع، و حذر من عواقب التفريط فيها، و من بين هذه الأسباب الوقاية و الاحتماء من الوباء[5].

---

[1] ابن ابي الضياف، المصدر السابق، ص 158

[2] محمد محفوظ، المرجع السابق، ص 134.

[3] محمد بن عبد الكريم، 2017، **حمدان بن عثمان خوجة الجزائري و مذكراته**،ط1، دار الوعي، الجزائر، ص94.

* عادل النويهض، 2017، **معجم أعلام الجزائر**، دار الوعي، الجزائر، ص 179.

[4] حمدان خواجة، المصدر السابق،ص 164.

[5] محمد بن عبد الكريم، المرجع السابق، ص 134.

بين حمدان خوجة في المقالة التاسعة من الرسالة حقيقة الكرنتينة و ضرورة تطبيقها في العالم الإسلامي، مستدلا بالقرآن و السنة، وآثار الصحابة كذلك، و أقوال العلماء في شأن إباحة الفرار من الضرر، و الرد على أقوال العلماء المانعين لذلك، و مبينا لكيفية تطبيق هذا الاحتماء[1].

ويقول:"... لنا ثلاثة أحوال: الأولى الفرار من الأرض التي وقع بها الوباء، و الثانية: القدوم على الأرض التي ظهر بها الوباء، و سبق أحكام هاتين الحالتين مبسوطا، و الحالة الثالثة: قدوم من وقعت الوباء بأرضهم علينا ولم يرد فيه نص بالخصوص أن يرجع الى الأصول، و الأصل في الأشياء الإباحة، و إباحة الأخذ بالأسباب و دفع المضرة بعد ثبوت السببية، و عرفة مدخل الضرر بالنص ، و بالتجربة[2].

و يذكر حمدان خوجة أن الكرنتينة لا تصادم أصل من أصول الدين الاسلامي :"... و إنما أطلنا بما لاطائل تحته من هذه الخزانات، لكشف حقيقة ما يستعمله الفرنج، لمن يقف على رسالتنا، حتى لا يتوهم من لفظ "الكرنتينة" أنها أمر غريب، يصادم أصول ديننا، و حتى يتحقق بأنه إحتراز عن ورود من فيه شائبة مرض الوباء، و ان باقيه احتياط"[3].

وطالب حمدان خوجة من الحكومة الإسلامية الأخذ بهذا النظام – الكرنتينة- لحفظ صحة المسلمين في خاتمة هذه الرسالة، و أن يعهد هذا الأمر لذوي الاختصاص[4].

يذكر حمدان خوجة أنه أثناء إشتغاله بجمع هذه الرسالة وقف على رسالة ألفها - بعض من ينتسب الى العلم- و صرح فيها بكفر من إحترز على قاعدة الكرنتينة من الوباء، ويقول أنه لم يقف على تلك الرسالة و لا على اسم مؤلفها[5]، و لا مستنده في تكفير من يؤمن بالله و اليوم الآخر[6].

موقف محمد بن مصطفى الجزائري:

محمد بن مصطفى بن محمد بن باكير بن الخوجة ، الملقب بالمضرّبة، و المشهور بالشيخ الكمال: أديب، و عالم و فقيه، ولد و تعلم بمدينة الجزائر، و أخذ عن عدة شيوخ منهم : ابن الحفاف، و ابن زكري، عمل في جريدة المبشر الرسمية كمحرر للغة العربية من سنة 1304 الى سنة 1319هـ /1868م /1901م. عين مدرسا بمسجد سفير سنة 1895م، ثم عين سنة 1913 وكيلا على ضريح عبد الرحمن الثعالبي، له مواقف في محاربة البدع في الجزائر، يعد من أوائل تلاميذ الأستاذ الإمام محمد عبده الذين نشروا مذهبه الإصلاحي خارج مصر.

مؤلفاته:

الاكتراث بحقوق الإناث – إقامة البراهين العظام في نفي التعصب الديني في الإسلام – اللباب في أحكام الزينة و اللباس و الحجاب - تنوير الاذهان في الحث على التحرز و حفظ الأبدان - السمط الدري في مسائل تتعلق بالجدري، و غيرها كما نشر تفسير الثعالبي الجواهر الحسان[7].

---

[1] محمد بن عبد الكريم، المرجع السابق،ص 137.

[2] حمدان خوجة، المصدر السابقنص118.

[3] المصدر نفسه، ص 143.

[4] نفسه، ص145.

[5] ليت حمدان خوجة نقل إلينا اسم الرسالة و اسم مؤلفها، و موطنه. وأغلب الظن أنه الشيخ المناعي التونسي لاشتهار رسالته.

[6] حمدان خوجة، الصدر السابق، ص149

[7] عادل النويهض، المرجع السابق، ص 181.

نشر محمد بن مصطفى كتيبا عن الطب و الحجر الصحي (الكرنتينة) و علاقتة بالشريعة الإسلامية سنة 1896م، و ربما كلفه الفرنسيون هم من كلفه بوضعه، و قد تكفلت الإدارة بنشره و ترويجه، و كان ذلك في عهد الحاكم العام جول كامبون.

و استدل على آرائه بعدم منافاة الشريعة الإسلامية للحجر الصحي بآيات قرانية و أحاديث نبوية، و أقوال فقهية، و أن حفظ الصحة الذي يستعمله الفرنسيون ليس ضد الدين الاسلامي، و إلزام الناس بالحجر الصحي لمنع انتشار الأوبئة، و قام الفرنسيون بالدعاية للكتاب، و ترجمته، و توزيعه، في بلدان الشرق و إفريقيا.

كما نشرت مجلة إفريقية الفرنسية تعليقا جاء فيه ان الكتاب يقع في حوالي أربعين صفحة تحدث فيه المؤلف عن الأدوية في الشريعة الإسلامية، و مكانة الطبيب فيها، و ذكر بعض الأعشاب المفيدة الموصى بها في الطب النبوي، كما أشار المؤلف الى ماجاء في كتاب إتحاف المنصفين لحمدان خوجة حول الحجر الصحي، و على المسلمين إنشاد الطب عند غيرهم (الفرنسيين)، و قد قرض هذا الكتاب مفتي المالكية ابن زاكور، و مدح مؤلفه، و أحمد بوقندورة مفتي الحنفية و غيرهما [1].

موقف الجبرتي المصري الحنفي من الكرانتينة

سبق و أن ذكرنا ان الأحناف كانوا اكثر مرونة في قولهم بإباحة الكرانتينة من المالكية، إلا أننا نجد أن الجبرتي في تاريخه ينكر هذا العمل، و ينكر الأخذ بالكرانتينة.

و الجبرتي المؤرخ المصري و إن كان حنفيا المذهب، فإنه أنكر الكرنتينة، وذلك سنة 1812-1813م عند ظهور الطاعون باسلامبول، و مصر :" و في ذلك اليوم 12 افريل 1813م أمر الباشا بعمل الكورنتيلة بالجيزة، ونوه باقامته بها وزاد به الخوف و الوهم من الطاعون، لحصول القليل منه بمصر، و هلك الحكيم الفرنساوي، و بعض النصارى الأروام، و هم يعتقدون صحة الكرنتينة، و أنها تمنع الطاعون، و قاضي الشريعة الذي هو قاضي العسكر، يحقق قولهم، و يمشي على مذهبهم، و لرغبة الباشا في الحياة الدنيا، و كذلك أهل دائرته و خوفهم من الموت يصدقون قولهم..."[2]. و يذكر كيفية الوقاية من الوباء.

و يذكر في كتابه أن محرم بك عمل الكرنتينة سنة 1815م بالجيزة "...**من اخراج الناس و ازعاجهم، تطيرا و خوفا من الطاعون**"[3].

الخاتمة:

وختاما لما سبق يمكن القول أن مسألة جواز العمل بالكرنتينة من عدمه قد أثارت سجالا فقهيا كبيرا بين العلماء في بلدان المغرب خلال القرن التاسع عشر .

- الشريعة الاسلامية كمصدر للتشريع في الدولة.
- الخلاف الفقهي بين المذهبين الفقهيين السائدين في بلدان المغرب الحنفي، و المالكي في هذه المسألة.

[1] ابو القاسم سعد الله،المرجع السابق، ج 7، ص256.

[2] عبد الرحمن بن حسن الجبرتي،1998،**عجائب الاثارفي تراجم الاخبار**، دار الكتب المصرية، القاهرة، ج 4، ص 279.

[3] الجبرتي، المصدر السابق، ص 345.

- تصدر كبار العلماء للفتوى دون غيرهم، (المؤسسة الرسمية للفتوى).

- التعدد المذهبي، أنتج تعددا في الفتاوى الفقهية، و حتى الفكرية .

- إثراء المكتبة الفقهية بمثل هذه البحوث و الفتاوي، و التي تعبر عن واقع إجتماعي و سياسي و ثقافي للدول آنذاك.

- إهتمام علماء البلدان الإسلامية و العربية بهذه الفتاوى و انتشارها، و هذا ماحدث مع رفاعة الطهطاوي و الناصري السلاوي – وصول محاورة المناعي و بيرم اليهما-

- ظهور تحرر كبير عند علماء الحنفية في معالجة القضايا النازلة على الامة، عكس الجمود الذي اصاب الفقهاء المالكية و الاعتماد على اراء الاقدمين – خاصة في هذه المسألة-

- **القرآن الكريم رواية ورش.**

<u>الببليوغرافيا</u>

01- أحمد بن أبي الضياف، 1999، **إتحاف أهل الزمان بإخبار ملوك تونس في عهد الأمان**، تحقيق:لجنة من وزارة الشؤون الثقافية،الدار العربية للكتاب، تونس، ج7 .

02- ابو القاسم الزياني،1991، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برا و بحرا**، تحقيق: عبد الكريم الفيلالي، دار نشر المعرفة، الرباط.

03- ابو القاسم سعد الله، ـــــــــــــــــــــــــــ ج7.

04- ابو القاسم سعد الله، 2017، **تاريخ الجزائر الثقافي**، علم المعرفة، الجزائر، ج1.

05- أحمد بن خالد الناصري السلاوي،2015،**الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى**،ط3،دار الكتب العلمية، بيروت، ج2.

06- حمدان خواجة،1968، **إتحاف المنصفين و الأدباء في الاحتراس عن الوباء**، تحقيق: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر.

07- خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1980م.

08- رفاعة رافع الطهطاوي،2007، **تخليص الابريز في تلخيص باريز**، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر.

09- عادل النويهض، 2017، **معجم أعلام الجزائر**، دار الوعي، الجزائر.

10- عبد الرحمن بن حسن الجبرتي،1998،**عجائب الآثار في تراجم الأخبار**، دار الكتب المصرية، القاهرة،ج 4.

11- محمد بن عبد الكريم، 2017، **حمدان بن عثمان خوجة الجزائري و مذكراته**،ط1، دار الوعي، الجزائر.

12- محمد بن محمد مخلوف، (د.ت)،**شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، دار الفكر للطباعة و النشر، بيروت.

13- محمد محفوظ، 1985، **تراجم المؤلفين التونسيين**، ط1،دار الغرب الاسلامي، بيروت،ج4.

14- ناصر الدين سعيدوني، 1999،**من التراث التاريخي و الجغرافي للغرب الإسلامي**، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

15- نجاة زروق، هيبة كنيوة، 2021، اعمال المؤتمر الدولي، الاوبئة عبر التاريخ، " **الكرانتينة من خلال كتاب اتحاف المنصفين و الادباء**".

المداخلات	الصفحة
من الجائحة إلى الأدب- روايتي؛ " الطاعون " لكامو و"الحلزون العنيد" لبوجدرة أنموذجين أ.د. شعيب مقنونيف -جامعة تلمسان- الجزائر	23-10
الجوائح والأوبئة في مغرب ما قبل الحماية: أشكال المواجهة وطرق التدبير أ.د.محمد الكرادي جامعة ابن طفيل، القنيطرة/ المغرب	33-24
المجاعة الكبرى في لبنان خلال الحرب العالمية الاولى 1918-1915 د.هيفاء سليمان الامام -الجامعة اللبنانية الدولية/البقاع/لبنان.	46-34
معهد باستور بالجزائر ودوره في ترقية الوضع الصحي بها(1909-1962) حورية جيلالي -المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الإجتماعية والثقافية، وهران. ليلى بلقاسم- جامعة أحمد زبانة، غليزان، الجزائر.	60-47
وباء الطاعون وأثره على المجتمع الزياني ما بين القرنيين (8-9هـ/14-15م) د رزيوي زينب -جامعة د مولاي الطاهر، سعيدة/ الجزائر.	69-61
كتاب مجاعات قسنطينة لصالح العنتري -دراسة وتقديم- ط.د- مراد بن زفور- جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة - الجزائر. ط.د - خولة بوشامة- جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة 2 - الجزائر.	79-70
دور المستشفيات العربية الاسلامية في علاج الأمراض والأوبئة في الوطن العربي خلال العصور الوسطى د. زواوي مراد -جامعة أبو القاسم سعد الله (جامعة الجزائر2). الجزائـــــر.	89-80
المجاعات وانعكاساتها على المجتمعات الزراعية في المغرب الأوسط خلال القرنين (07-08هـ/13-14م) -قراءة في الحالة الديمغرافية والسلوكات الغذائية- صبرينة بولامة	98-90

طالبة دكتوراه، جامعة قسنطينة02، قسنطينة، الجزائر	
مجاعات وأوبئة المغرب خلال العصر الوسيط بين تعدد العوامل وآليات المواجهة د. خالد عبوبي، جامعة الحسن الثاني /كلية الآداب والعلوم الإنسانية المحمدية، المغرب	107-99
الأمراض و أثرها على الحياة السياسية فى المغرب فى عهد دولة بنى مرين (668-869هـ/1269-1465م) د/ عبدالله أحمد همام عبدالمجيد- كلية الآداب– جامعة أسوان أسوان- جمهورية مصر العربية	123 -108
الطاعون والكوليرا في برقة خلال العهد العثماني الثاني 1835 : 1911 د/ حمادة الشافعي محاضر بكلية الآداب جامعة دمياط- القاهرة - مصر	134-124
أثر الطب الكولونيالي على ثقافة التداوي بمغرب الحماية د.أنس الصنهاجي أستاذ باحث، جامعة ابن طفيل القنيطرة.	151-135
موقف العلماء المغاربة من الحجر الصحي (الكرانتينة)في القرن التاسع عشر دربال سعيد- طالب دكتوراه، جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله، الجزائر/ الجزائر. 2حصاد عبد الصمد- 2طالب دكتوراه. جامعة يحي فارس. المدية/الجزائر.	162-152

المركز الديمقراطي العربي
للدراسات الاستراتيجية، الاقتصادية والسياسية
Democratic Arabic Center
for Strategic, Political & Economic Studies

كتاب

المجاعات والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور

(الجزء الثالث)

رئيس المركز الديمقراطي العربي: أ. عمار شرعان

مدير النشر: د. أحمد بوهكو

إشراف وتنسيق الكتاب: د. تلي رفيق

رقم تسجيل الكتاب: VR. 3383.6547. B

الطبعة الأولى

سبتمبر 2021 م

الدراسات الإستراتيجية والسياسية والإقتصادية
D.A.C
المَرْكزُ الدّيمُقراطِيُ العَرَبيُّ